

باب العبيد

حسين الواد

رواية

باب العبيد...

تصميم الغلاف

للفنان التشكيلي: نصر ورور

حسين ورور

باب العبيد...

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٨م

بـاب العبيـد: روايـة / حـسين ورور.- دمـشق: الهيئـة العامـة السورية للكتاب، ٢٠١٨م.- ٣١٢ ص؛ ٢٥ سم.

١- ٨١٣,٠٣ ورو ب   ٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ ورو ب
٣- العنوان   ٤- ورور

مكتبة الأسد

المنتصرون

من يكتبون التاريخ ويندثر دائماً

تاريخ المنـهزم

-غاستون باشلار-

- ١ -

... كان كلّ الذين قدموا إلى ساحة الحاكمية بدعوة من الوالي في حالة توتّر وترقّب. كانت مثل هذه الدعوة تتكرّر في الأسبوع مرّة على الأقل لمشاهدة عقوبة إعدام.

الشاب عبد الله المحكوم بجريمة قتل فوق النطع معصوب العينين. أمامه تماما العبد السيافّ شكاكرين. وصفّ من المحكومين المساجين المقيّدين إلى سلاسل. وحدها صلصلة سلاسلهم تكسر الصمت في تلك اللحظات الرهيبة. بناء على إشارة من القاضي لكاتبه، راح الكاتب يتلو اسم المحكوم، والجريمة التي ارتكبها، والعقوبة التي استحقّها. صدور الجميع تنقبض حين أعطى أمره لرئيس السجن كي ينفذ العقوبة. بدوره رئيس السجن يومي إلى السيّاف أن يستعد. تراءى للجميع أنّ السيّاف ينتظر الإشارة الأخيرة لقطع رأس عبد الله. جاءت الإشارة الأخيرة لتجري الأمورعلى نحو لم يتوقعه أحد. يد السيّاف ترفع السيف وهي ترتجف. يهزّ السيف قبل أن يتلقّى الأمر.عيناه يشعّ منهما غضب مكتوم. راح يتملّى بنظرة بانوراميّة وجوه الحشد المدعو لرؤية سيف العدالة كيف يهوي على رقبة المجرم.

يعرف السيّاف أن المحكوم شاب شاميّ بريء، بعد أ ن شاعت قصته حتى بين السجانين أنفسهم، وبين رجال الحامية جميعا..

.. صور كثيرة مرت أمام عينيه لحالات من القتل الظالم في تلك اللحظة الحاسمة. سيفه لم يهوِ على أحد ظلماً من قبل.. هذه هي المهمة الأولى التي يكلف بها بقطع رأس إنسان، بعد أن أُوكلت إليه هذه المهمة. لم يستطع أن يقول: لأ.. فهو ليس أكثر من عبد. هو كغيره من العبيد. كان يشعر أحيانا بمحاباة الجميع له، بسبب توصية من الوالي. كان ينتظر من الوالي أن يهيّء له أسباب العودة إلى مسقط رأسه في النوبة، بعد أن أعيته الحيلة للهرب والالتحاق بالثائرين في الأهوار. غضبه يتصاعد مع هول هذه التداعيات السريعة. فجأة، تململ وهو يستعرض الحشد من جديد. لم يلمح إشارة رئيس السجن له ليهوي بسيفه على رقبة عبد الله. يصرخ به. ينتبه له. يشيّعه بنظرة هازئة. يحرّر العصابة عن عيني عبد الله بكل برود. يصرخ رئيس السجن به :

- ماذا تفعل ؟

كان في نيّة السيّاف أن يحرّر عبد الله من مصيره. همس بأذنه. يلكزه. يصرخ به :

- اهرب !

يتسمّر عبد الله بالسيّاف خائفا. يدفعه السيّاف طالباً منه الهرب، قائلا له:

- اتبعني...

يهزّ السيّاف سيفه محذّرا ألاّ يقترب منهما أحد. يقول لعبد الله:

- انطلق خلفي!

يهيج قائد الحامية. يأمر جنده بإلقاء القبض عليهما.

ينطلق السيّاف، وهو يزمجر، وعبد الله يلوذ به مرعوباً. يشقّ السيّاف السدّ الذي شكّله جند الحامية. يجرح أكثر من واحد ممّن تجرّأوا على الوقوف في وجهه، والتصدّي له، ومنعه، ومنع عبد الله من الفرار.

يشكّل بعض الأهلين -وعن قصد - في هذه اللحظات حاجزاً بشريّاً يساعدهما لأن يجدا مخرجاً من الجهة الجنوبيّة، بعد أن دبّت الفوضى في أرجاء الساحة. فجأة انفصل عبد الله عنه، واختفى عن ناظريه. يختفي هو الآخر في إحدى الحارات المفتوحة إلى الغرب، ويعبرها كشبح. كان الناس يلوذون مذعورين حين يرونه من بعيد، أو يفاجأون به عن قرب. يلمح داراً خربة مهجورة. يتطلع حوله، فلم يشاهد أحداً. يقفز إلى سطحها . يتمدّد عليه حتى لا تراه العيون...

كانت عقوبة سجّانه مريعة. أمر قائد الحامية حرسه الخاص بجلده فوق النطع. لم يشفِ غليله الجلد، فأمر الجند بشيّه على حديد محمّى، ليكون عبرة لسواه ودرسا في الخوف لا ينسى..

* * *

.. تلقى حاكم المدينة مجريات ما حدث من وزيره. دعا إلى اجتماع حضره الحاجب، والقاضي، وصاحب الشرطة، ورئيس الاستخبارات. انتهى سريعا بأمره لقائد الحامية أن يبحث عن الفارّين، ويأتي بالسيّاف حيّاً، ولو كلفه الأمر مقتل رجاله عن بكرة أبيهم، ويأتي بالمجرم عبد الله ولو ميّتاً، أو سيلقى أشدّ العقاب: الموت بحد السيف! كما أمر رئيس الاستخبارات

ببثّ جواسيسه في كلّ مكان تحسّباً من شركاء لهما فيما فعلاه، أو من يكون قد سهّل فرارهما، أو خبّأهما، والوقوف على ما يقول الناس حول ما حدث، أو ما يتقوّلونه حول هذه السابقة الخطيرة.

يكلّف قائد الحامية ثلاثة من جنده المخلصين الأشداء بجولة بحث أخيرة. يوعز لهم أن يذهبوا على الفور سرا إلى مكان ما في الولاية. قال لهم:

- هناك اصنعوا قبرا وهميا لذاك العبد الفار، فيما لو فشلتم بإلقاء القبض عليه.

قال قائد الحامية ذلك بعد أن نمي إليه عمّا أصاب سكّان المدينة من خوف، وقلق، وتوتّر .

انتشرت حكاية هذا العبد السيّاف الفارّ لترسم في خيال الناس الذين لم يشاهدوه صوراً شتّى لشبح أسود يستطيع القفز من سطح بيت إلى سطح آخر بخفة ريشة... منهم من تصوّره سريعاً كنمر. منهم من تخيّله كطائر خرافيّ يستطيع الانقضاض على من يشاء كصقر.

لكنّ الأطفال كانوا الأكثر تأثّرا بحكايته، فجسّد خيالهم له صوراً بأشكال شتّى لكائنات أسطوريّة لا يمكن أن يتغلب عليها بشر.

يبلغ الرعب أشدّه. تخلو الطرقات من مشاتها. تُوصد أبواب الدور. يتغيّر شيء ما في المدينة. إنّه الخوف الذي يفعل أشياء لم تكن تخطر على بال...

كلّ ذلك يقابله أولئك الذين رأوا به بطلاً استطاع أن يتحدّى الظلم، وينتصر، وبلغت بهم الشماتة المكتومة أن يعرضوا عن الجند بلامبالاة، وخبث مبطن يفصحون عنه همساً، أو بإشارات ساخرة..

أما عبد الله، فقد نسجت حوله هو الآخر حكايات أقرب إلى القداسة:

- نجا من قطع رأسه لمكانته العالية عند الربّ !

- نجا للمكانة التي يمنحها الله لعباده الشرفاء. كل الناس يرجون الله أن تعمى عنه، وعن أمثاله عيون الظالمين..

* * *

عاد جند قائد الحامية الثلاثة بعد أن أنجزوا مهمتهم الكاذبة، وتمثيليتهم المفبركة. يصدّقها الحاكم، وربما هم صدّقوها!.

يسدل الستار على فصلها الأخير :

«أنّ هؤلاء الثلاثة عثروا على العبد السيّاف منتحراً. عيناه نقرتهما الطيور. الجند يدفنون الجثة!».

«يذهب قائد الحامية إلى أشهر صنّاع السيوف في المدينة. يشتري سيفاً يشبه إلى حدّ ما سيف العبد المنتحر شكاكرين.

يؤكّد لحاكم المدينة نهاية هذا العبد البشعة، التي اختارها لنفسه منكراً نعمة وليّه الحاكم العادل!..».

كان الحاكم قد تلقّى هذا العبد كهديّة من أحد تجّار الرقيق لقاء خدمة لم يكن يحلم أنها ستسدى إليه من أحد، إذ خلّصه من أكبر منافسيه في هذه التجارة، ومنعه من الدخول إلى أرض الولاية كلها. رأى الحاكم بهذا العبد الرجل القويّ الذي لا يرفّ له جفن إذا ما تعرض لخطر. يستطيع مواجهة غابة من سيوف، حتى ولو كان أعزلاً. لم يكن يعلم عن هذا العبد شيئا، إلاّ أنّ ذلك

التاجر اشتراه من تاجر بغداديّ بأغلى ثمن. كان من أبرز حراس قافلته. كانت قافلته -بفضل هذا العبد- تصل بأمان إلى أسواق المدن.

* * *

لم يستطع أحد في الحاكمية – حتى الحاكم نفسه – معرفة سرّ فرار هذا العبد، عند أوّل مهمّة يُكلف بها بقطع رأس عبد الله، قاتل ابن محتسب الحاكمية المملوكيّ..!.

روى أحد الجند تفاصيل قصّة هرب العبد السيّاف، والمحكوم عبد الله، وسرعان ما راحت تروى على وجوه مغايرة ليس فيها من الحقيقة سوى رائحتها..قال :

«تقدم العبد السيّاف بين صفّين من الجند. وقف كمارد يستعرض الوجوه خلسة. ينظر بشفقة وأسى إليها. ينزع رئيس السجن العصابة عن عيني عبد الله. تقع عيناه على العبد السيّاف أمامه. يتجاسر، وينظر إلى عيني السياف. تلتقي عيونهما بنظرة طويلة مليئة بالأسئلة، كانت الإجابة عليها بمثابة رسالة لعبد الله تدعوه إلى الخلاص من هذا المصير، أعقبها بغمزة خاطفة توحي له بالهرب إلى جهة الغرب..».

* * *

شكاكرين، وعبد الله يفترقان بسبب الفوضى التي عمّت المكان...

يتّجه العبد (شكاكرين) غرباً. يسير متخفّياً في بساتين الضاحية الغربية للمدينة، حتى يصل كروم الضاحية من جهة الشرق. يسير في

دروبها الضيّقة. دروب تحاذي هذه الكروم المسوّرة بدكّات ترابيّة برع أهل الغوطة بصنعها. كان منظر العبيد مألوفاً للناس، فلم يثر تواجده هناك أحداً. كان العابرون في هذه الدروب يعرضون عنه، ويكتفون بإلقاء نظرة سريعة عليه. لم يقف في وجهه أحد.

.. هو الآخر كان يعرف في قرارة نفسه، أنّ الناس في الشام، وما حولها اعتادوا مشاهدة العبيد طلقاء في الأيام التي أعقبت اندحار الزنج الثائرين في سواد البصرة..

* * *

كان أحد الكروم دون سور. دخله شكاكرين محاذرا. شاهد عند نهايته خيمة من قصب النهر. فوجيء بخروج امرأة تتبعها فتاة زنجيّة. كانت المرأة ترتدي ثوباً أسود فضفاضاً، وتغطي رأسها بفوطة بيضاء؛ بينما كانت الفتاة تأتزر بما يغلب ألوانه اللون الترابي. عادت الفتاة إلى الخيمة، وخرجت حاملة على رأسها صينيّة نحاسيّة مليئة بثياب مغسولة للتوّ. قامت الاثنتان بنشرها على حبل غسيل مشدود بين شجرتي حور باسقتين..

كان شكاكرين متماسكاً، ومتوازناً على الرغم من الوضع الذي هو فيه. جلس في ظلّ شجيرة عنب ظليلة يفكر ما سيفعل، وكيف يتصرّف. أغراه وجود الفتاة الزنجيّة. قدّر سلفاً أنّها لاشكّ عبدة، والمرأة سيّدتها. كان جائعاً أيضاً. تساءل في سرّه:

- أأطلب منها طعاماً، ويكون طلبي هذا مفتاحاً، ومدخلاً لما أريد؛ فأتعرّف إلى فارّين من العبوديّة، أو ناجين من ثورة العبيد؟؟.

-٢-

خرج شكاكرين من مكمنه، في اللحظة التي انتهت بها المرأة، والفتاة من نشر الغسيل، ودخلتا الخيمة. اتّجه نحو الخيمة محاذراً. لاحظت المرأة أنّ الفتاة تصغي متخوّفة، فبادرتها الفتاة قائلة :

- أسمع وقعاً غريباً، وليس بعيدا ياسيّدتي!

أصغت المرأة، فتأكّد لها ما قالت الفتاة :

- قد يكون أحد أفراد الأسرة !؟

تنحنح شكاكرين حين صار قريباً من الخيمة.

- من سيكون هذا؟ تساءلتا متوجّستين.

- لاشكّ انّه غريب. قالت المرأة، ثم تهامستا :

- لننتظر ماذا سيفعل..؟

يتوقّف شكاكرين عن الحركة. ينتظر خروجهما. يدرك أنّهما شعرتا بوجوده، وحين لم تخرجا تأكّد له أنّهما خائفتان منه. ناداهما :

- أنا عابر سبيل جائع، لا أريد إلاّ طعاماً.

تطلّ المرأة، فتفاجأ برجل: قامة فارعة. سمرة داكنة. عضلات مفتولة. لا يشدّ قامة الرجل سوى مئزر يأتزر به العبيد عادة.

تقدّر المرأة أنه عبد آبق. تسأله :

- من أنت ؟

لم يتردّد في إجابته لها. يقول بكل عنفوان:

- أنا عبد جائع!

تلتفت المرأة إلى الخلف حيث الفتاة:

- هاتي رغيفاً ، وشيئاً من أدام يا زهريت..

ثم تلتفت نحو شكاكرين تسأله:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟ وما اسمك؟

- اسمي مرزوق. أما الذي أتى بي إلى هنا، فليس سوى الجوع!

- عجيب أمرك يا مرزوق!

- لا تعجبي من شيء في هذا الزمن يا سيّدتي!

راحت المرأة تتأمّله خلسة. لاحظت ندباً لجرح مندمل في عنقه :

- لم تقل لي سبب وجودك هنا يا مرزوق.. لا أعتقد أن السبب هو الجوع!؟

- ربّما لا يقتصر الأمر على هذا السبب وحده !

(قبل أن يكمل الإجابة خرجت زهريت من الخيمة، وعلى راحة يدها طبق من القشّ عليه أكثر من رغيف، وشيء من لبن وزيتون).

فوجئت زهريت به :

- إنّني أعرفه. قالت في سرّها. إنّه العبد شكاكرين.. لكن كيف يقول أنّ اسمه مرزوق ؟!.

تقدّمت منه، وقدّمت له الطبق. تناوله من يدها، وهو الآخر راح يمعن النظر إليها. تراجعت، وأخفت وجهها عنه، ثم أطرقت في الأرض تفكّر. تذكّرت أن ذلك كان منذ زمن بعيد، وتحديداً مذ كانت طفلة. كان مرزوق ينظر إليها خلسة، وبدا كأنّها يتذكّر. كان جائعاً، فراح يأكل بنهم، لكنه لم يتناسَ ما يفكر به.

عادت زهريت إلى الخيمة. لحقت بها المرأة بعد أن لاحظت ما بدا على الاثنين من دهشة، لعلها تعرف من زهريت سرّ شكوكها.

قالت زهريت لسيّدتها :

- أنا أعرف هذا الرجل. أعتقد أنه كان في خدمة الخليفة بسامراء !

- متى كان ذلك ؟

- لا أدري متى كان ذلك تماما. كنت صغيرة، ولم أره حينها إلاّ قليلا. أكبر الظنّ أنّه كان من المقرّبين جداً من الخليفة.

- لو كان مقرّبا من الخليفة، لما رأيته هنا يقتله الجوع !

- سمعته يقول أنّ اسمه شكاكرين. هذا هو اسمه أيضا !؟

- لكنه قال: اسمي مرزوق. على أيّ حال، ما شأننا به؟ فحين ينتهي من طعامه، سيغادر المكان، وكأنّ شيئا لم يكن.

- مثل هذا العبد لا يُفرّط به يا سيّدتي.

- لو كان سيّدك هنا، وشاهده، ربما اختلف الأمر، لأنّه أقوى بنية من عبده الحالي!.

يتنحنح مرزوق في الخارج، موحياً أنّه انتهى من تناول الطعام. راح يمعن النظر إلى الخيمة، متمنيّاً أن تخرج زهريت ليتأكّد من حدسه، أنّها الفتاة التي يعرفها..

قالت له المرأة من الداخل :

- يمكنك مغادرة المكان!

ذلك ما لم يكن ينتظره مرزوق، لكنّه تريّث قليلاً لعلّ الفتاة تخرج، أو تطلّ. لم ينقطع لديه خيط ألأمل، فيغادر، وهو يلتفت إلى الخلف.

يمرّ من الوقت أقلّه. يأتي زوج المرأة ممتطياً حصانه، وعبده يسير خلفه. تخرج المرأة، وعبدتها (زهريت) من الخيمة.

يسألها بمجرّد وصوله:

- ألم يأت المزارع بعد ؟

- لا.. !

تهمس زهريت في أذنها :

- أخبريه عن العبد الذي كان هنا !؟

كان الزوج قد نزل عن حصانه. تناول العبد الرسن من يد سيّده، يقول للعبد :

- خذه إلى مسكبة البرسيم. اربطه فيها إلى وتد، كي يأكل.

يدخل الرجل الخيمة. تتبعته الزوجة، وهي تتلجلج في إخباره عن مجيء مرزوق.

يسألها مرتابا :

- ألم يقل شيئا !؟

- بلى. أجابته متردّدة. طلب طعاماً فأطعمناه. سألناه عن اسمه أيضاً، أجاب : مرزوق..

لكن زهريت قالت لي بعد أن غادر أنّ اسمه شكاكرين...

لم يدعها تكمل كلامها، فأجابها بعصبية:

- ماذا ؟ شكاكرين، ها...!؟

- أي، هكذا قالت لي زهريت.. ماذا في الأمر !؟

- هل تصفينه لي ؟ سألها مشكّكا.

- فارع الطول. قوي البنية. عضلاته مشدودة. أسمر، سمرته غامقة. ثم سكتت.

- ماذا بعد؟ سألها كيما يعرف المزيد، ويتأكّد من أنّه السيّاف، الذي رآه صباح هذا النهار، وفرّ دون أن يستطيعوا إلقاء القبض عليه. أضاف وهو يهزّ رأسه شامتا:

- أتعرفين من يكون هذا الشكاكرين يا نائلة؟

- من سيكون؟ إنه عبد من العبيد، وما أكثرهم هذه الأيام يا عبد الجبّار!

- نعم، عبد. لكنه غير العبيد الذين ترينهم!

يخفي عن زوجته نائلة سرّ هذا العبد السيّاف، ويقول في داخله:

- إذا كان هو حقّاً، ويجب أن يكون هو ذاته؛.. لماذا إذاً أشاعوا أنّه انتحر!؟.. يجب عليّ السعي لمعرفة من أشاع هذا الخبر. لابدّ أن يكون المشيع من الحاشية، ويجب أن أصل إليه.

تسأله الزوجة:

- أراك تكلم نفسك ما الأمر؟

- الآن بدأ نجمك يسير في مداره يا عبد الجبار !

ترتسم على وجهه ابتسامة مشرقة. ينشرح صدره ، وبدا كما لو أزيحت صخرة عن صدره.

قالت له الزوجة :

- عملت هذه الخيمة، كي تخفّف عنك الربو. ليتك تنام فترة كي تستريح في هذا الهدوء، قبل أن تدهمك نوبة الربو!؟

- يمكنكما المكوث تحت أيّ شجرة ظليلة إذن، ريثما أصحو من نومي.

تقصد الزوجة، وزهريت شجرة توت قريبة، وتجلسان في ظلّها.

يتمدّد عبد الجبار في الخيمة. تراوده هواجس شتّى تطغي عليها ما تناقلته الألسن حول السيّاف. يتساءل :

- كلّهم اكّدوا أنّه انتحر، وتمّ دفنه أيضاً.. كيف سيكون هو من جاء إلى هنا؟.

ظلّ هذا الهاجس يدور في حلقة مفرغة، ويسير بعبد الجبّار في طريق مسدود، إلى أن غالبه النعاس، واستسلم إلى النوم..

* * *

هبّت بعد ظهيرة ذاك النهار نسائم صيفيّة تنعش الروح. تتململ نائلة، وتتأمّل وجه زهريت، فلا ترى به مسحة الحزن التي لم تكن تفارقه. تشيح ناظريها عنها قليلاً، وتفطن إلى أنّ زهريت أفضت عن معرفتها بالعبد مرزوق. لماذا لا أسألها عن فحوى هذه المعرفة؟ قالت في سرّها.

التفتت نائلة نحو زهريت، فانتبهت لها.

- ماذا تريد سيّدتي؟

- قلت أنّك تعرفين العبد الذي مرّ من هنا. كيف كان ذلك؟

- كنت مع أطفال صغار ماتت أمهاتهم، أتى بهم الجنود إلى دار أحد الأمراء في سامراء. انتقوا عددا منهم كنت من بينهم. ساقونا إلى دار الخلافة. تمّ تسليمي هناك إلى جارية تدعى ضحى. كانت هذه الجارية، على علاقة وطيدة مع هذا العبد..

... ينهض عبد الجبار، إثر نوبة سعال، فيقطع استرسالهما. يقف بباب الخيمة. يشير لهما بالمجيء إليه. تنتبهان له. تقول زهريت لسيدتها:

- أكمل لكِ فيما بعد. سيّدي يشير لنا أن نعود إلى الخيمة.

- ٣ -

كان مرزوق يغذّ السير غرباً. يتمنّى لـو يلتحـق بـه عبـد الله. يـدرك في سرّه، أنّه إذا لم يَلق القبض عليه ثانية، سيؤثر البحث عنه، واللقاء به، بل ربما يتابع رحلة الحياة معه حتى النهاية؛ فعبد الله، سيكون المطارد أبداً، ليلقى جزاءً مضاعفاً بسبب هربه، أقلّه (الخوزقة)، أو تقطيع أعضائه شيئاً، فشيئا، لينال أقصى العذاب بموت بطيء.

أما عبد الله، فقد التبست عليه الأمور، بسبب الفوضى التي حدثت. كان مكرهاً أن يتّجه شرقاً. يلجأ إلى الكهف الذي لجأ إليه، أحد حواريي السيد المسيح عليه السلام..

ينزل الدرج المؤدي إليه. يستقبله الراهب الوحيد الذي يسكنه. يصارحه عبد الله بقصّته. يطلب منه أن يختبيء لديه. يتحمّس الراهب، ويتعاطف بكلّ جوارحه معه، مكتفياً بالكلمات الأولى مما قاله عبد الله:

«قتلتُ ابن المحتسب دفاعاً عن فتاة مختطفة كان يبغي اغتصابها!».

لم يسأله الراهب عن تفاصيل ما حدث.. فكّر مليّاً بالأمر. نصحه بمغادرة المدينة فوراً. أكّد له أنّ العسس سينتشرون حتما –كعادتهم- في أرجاء المدينة: حواريها. أزقّتها. خرائبها. دور العبادة. ثم أشار له بالذهاب إلى أحد أديرة القلمون، قائلاً: -هناك الكثير من المغاور، والكهوف، التي

يمكنك التواري فيها إذا ما فضح أمرك. ينتزع الراهب سلسالاً فضيّاً يتدلّى منه صليب من خشب الزيتون إلى صدره، كان قد صنعه بيده، وكتب عليه بطريقة الحرق، الحرف الأول من اسمه (....) باللاتينية. طوّق عنق عبد الله بهذا الصليب. قال له :

- فليحمك الربّ..

ترقرقت عينا عبد الله بالدموع. جال ببصره في الكهف. يشيّع النور الشحيح المنبعث من سراج معدني في كوّة، كان قد حفرها القدّيس حنانيّا، في الصخر. يلقي نظرة على الفرش البسيط، والأواني النحاسية المتواضعة، التي يستعملها الراهب لطعامه، وغسل ثيابه.

يستأذن الراهب بالمغادرة. يشدّ الراهب على يده. يكرّر قوله:

- فليباركك الربّ..

يصعد عبد الله درج الكهف. عينا الراهب تشيّعانه، حتى غاب عن ناظريه..

مع الغروب، كان الراهب يقرأ بصوت خافت، في لفافة من الورق السميك، مفرودة بين يديه. يسمع جلبة خارج الكهف. يلمح في الباب الخارجي هيئة جنديّ تغطي فتحة الباب. يتوقّف عن القراءة. يعيد لفّ الورقة بأصابع ترتجف. يسأل الجنديّ من باب الكهف بصوت جلف:

- من هنا ؟

ينهض الراهب. يحمل السراج، ويقف عند أسفل الدرج قبالته:

- أنا هنا.! أجابه الراهب بصوت يعتريه الخوف.

- من عندك؟ سأله الجنديّ.

- لا أحد. قالها الراهب بثقة.

لم يثق الجنديّ بإجابة الراهب. ينزل الدرج. يظهر جنديّ آخر، ويتبعه. يحمل أحدهما الشمعة. يجوسان الكهف بنظرات سريعة. يخرجان دون أن يتفوّها بكلمة.

يرسم الراهب إشارة الصليب شكراً للربّ، على نجاة مستجيره منهما..

.. ومع الغروب، كان مرزوق قد وصل بقعة في الجهة الجنوبية من بساتين الضاحية، تشتبك فيها النباتات الشوكيّة، كالعلّيق، والقرّيص، والهالوك. يطمئن إلى أنّ أحداً لن يمرّ من هذه البقعة الموحشة ليلاً. يظهر أمامه سور طويل، من دكّات ترابيّة، لبستان يبدو أنّه لواحد من ذوي النعمة، حسبما قدّر ذلك. تعلو دكّاته أغصان من شجر السياج الشوكيّ، يشتهر مزارعو الضاحية بخاصّة، بصبّ قوالبها، لتسوير بساتينهم. منعه هذا السور من متابعة خطّ سيره باتجاه الغرب. يتّجه جنوباً على ضفّة ساقية جافة. ُيفاجأ بأرض فلاة تبدأ بحقل خضار لم تتبيّن له نهايته، بسبب العتمة التي عمّت الكون، ولم يعد يرى سوى خيوط الأفق. يتابع السير. يقطع حقل الخضار إلى حقل آخر ترفل فيه عيدان الذرة بأوراقها الخضراء، وعرانيسها الغضّة، ممّا أتيح له أن ينهش بنهم حبّات بعض العرانيس النيّئة

كي يسكت جوعه. يصل إلى نهاية الحقل من جهة الغرب. يجلس، وهو يصغي إلى أيّ صوت يمكن أن يصدر، ويراقب أيّة حركة، إذ تغدو هذه البرّية ليلاً ملعباً للوحوش. كان لا يسمع سوى خرير السواقي البعيدة، ونقيق الضفادع، وأصوات بنات آوى، والطيور الليلية..

لأوّل مرّة يصغي إلى موسيقى الطبيعة، ويتماهى بسحرها الذي صنعته الحرية وحدها.

لأوّل مرة يتأمّل النجوم السابحة في السماء، والهلال، وهو يلتمع كسيف في وسطها...

يتابع السير جنوبا . يستوقفه حاجز ترابيّ طويل. يتصاعد من خلفه خرير الماء. يدرك أنّه أمام قناة باتّساع نهر، لكنّها لا تشبه نهر الفرات الذي يعرفه، أو نهر دجلة، مع صغرها بأيّ حال، بالمقارنة معهما أدرك أنّه لا يستطيع اجتيازها. هو لا يعلم أنّه أمام قناة (بولويز)، التي تتّجه شرقاً لتروي حقول، وبساتين قرية السبينة، وما بعدها من حقول.

يصعد مرزوق ضفّتها الترابية. يقدّر مجدّدا أنّه لن يستطيع اجتياز هذه القناة فعلاً. بسبب سرعة جريان الماء فيها، وعمقها الذي يجهله. يتّجه غرباً لعلّه يحظى بجسر ما، أو نفق تعبره القناة، ليقطع من فوقه إلى الضفة الأخرى، قبل أن يجازف، ويقطعها سباحة.

لم يخذله حدسه؛ فالقناة في ذلك الاتجاه تزداد عمقاً. تعبر أنفاقاً شتّى. كان الأقدمون قد عمّقوا مجراها تلافياً لمخاطر سيول يسبّبها ذوبان ثلوج

حرمون، ونتيجة طبيعيّة لتعزيل أرضية القناة كلّ موسم، ممّا يتراكم فيها من أتربة، ونفايات، وما ينبت في مجراها من نباتات، وطحالب، تعيقها عن الجريان. يرى مرزوق بهذه الأنفاق ملاذاً له. تيسّر له الأمان الذي ينشده..

فكّر مليّاً أن يقيم في هذا المكان. تناهى له أنّ الجسر الذي يقف عنده الآن هو معبر المزارعين إلى حقول ما وراء القناة من الجنوب. يتساءل متوجّسا، وحذرا:

- لماذا لا يكون كذلك ممرّا للجند، وسواهم!؟.

كان قراره التوغّل أكثر، لعلّه يصل المكان الذي يجنّبه رؤية أحد. يقف متسمّراً في المكان حائراً يتساءل:

- أليس من الخطأ أن أتابع السير في هذه العتمة؟ إذن، يجب ألاّ أغادر من هذا المكان. هنا يجب أن أبيت حتى مطلع الفجر. كيما أعرف إلى أين سأتّجه. لم يستطع أن يهدأ له بال طوال الليل. كان مشوّشا بالهواجس، والتساؤلات. تتنازعته أسئلة لا حصر لها، جلّها حول مصيره. لم يكن يخيفه شيء. الإنسان، والوحش عنده سواء. تتدافع الأسئلة إلى رأسه المثقلة بالقلق، والحسابات الخاطئة حيناً، والمراوغة أحياناً، لتأتي الإجابات عليها حرونة حيناً، وبعيدة عن أن تصيب أهدافها أحياناً. كانت تتماوج بين حاضر اللحظة، وماض يبتعد، ومستقبل لم ينبنِ إلاّ على وهم، أو في لجّة من سراب. يتساءل:

- لماذا لا أقصد مكاناً مرتفعاً، فأشرف على كل ما حولي من منافذ، أو دروب، حتى لا أقع في الشراك التي قد تنصب لي؟.

تنسف ذاكرته القريبة بإجابة حاسمة: لا..

يجب ألاّ تبتعد عن المدينة يا مرزوق!.. لكن، هل سيظلّ على قراره هذا؟.. الزمن وحده سيجيب على هذا السؤال!.

لأن كل مرتفعات الجهة الجنوبية للمدينة، ليست أكثر من تبّات بسيطة، لا صخور فيها. لا مغاور. هي لاشك لا للفلاحين الذين يزرعون سفوحها فحسب، بل مقصد المتنزهين من المدينة، على اختلاف مشاربهم...

يرتفع فجأة صوت المؤذّن لصلاة العشاء فوق الضاحية. يصل سمعه جليّا: الله أكبر. يتكرّر صداه في الفضاء. وفي ذلك الليل الذي ليس له آخر عند عبد جاء إلى الحياة، ولم يشفع إيمانه للونه في ارتياد فضاء الحرية، الذي وسّعه الأنبياء للناس جميعا دون تمييز. يحدّث نفسه بمرارة:

«إلامَ سيجرّ لوني عليّ هذا القيد. لماذا لا أخترق الآن هذا الليل، وأصرخ بالمصلّين:

.. إنّي مؤمن مثلكم، بل أشدّ إيمانا. لماذا لا أقول لهم بأعلى صوتي: لم يخلقني الله سيّافا. لم يخلقني الله لأقطع رؤوس البشر، أو أبتر يداً بأمر من أحد».

.. يكرّ شريط ذكرياته نحو الماضي، ولمّا يكن عمره يزيد عن خمسة عشر عاما. يتذكّر غانم الشطرنجي حين اشتراه من التاجر البغدادي، في

سوق العبيد بسامراء. تذكّر السنة المشؤومة، (٢٤٧هجري)، حين أتى ذلك التاجر بأكبر قافلة عبيد من النوبة، لكسح السباخ إلى الجنوب من البصرة.

.. يتذكّر كيف تعرّف إلى سعيد الصغير، ويسر الخادم، وغيرهما من خدم القصر.

.. يتذكّر الرجل الذي طلبه من غانم ليكون في كنفه،وهو يعلم علم اليقين، أنه يعيش على أعطيات غانم، وبقية الخدم، وعلى ما يجود به سواهم. يتساءل يومها كيف يفرط به لمثل هذا الرجل الفقير المتسوّل. يتذكّر كم تألّم، وكم ندم حين لم يقدّر قيمة هذا الرجل، الذي قاد ثورة الزنج.

.. يتذكّر كم تألم حين غيّر اسمه من مرزوق إلى شكاكرين.. كيف كان ذلك الطفل المدلّل في القصر.. كيف شب عن الطوق.. كيف رآه الخليفة المنتصر، فيما كان يتنزّه ذات يوم في حديقة قصره، وهو يسقي أشجارها، وورودها..

.. يتذكّر كيف توقّف الخليفة يراقبه عن بعد. كيف تقدّم منه، وهو يتأمله:

- ما اسمك.. ؟

يجمد مرزوق في مكانه مندهشاً. ينحني أمامه بكل خشوع:

- عبدك مرزوق يا مولاي!

- سمعتهم بالأمس ينادونك (شكاكرين). كيف ذلك !؟

- ادعيت هذا الاسم لأنني كنت النوبي الوحيد الذي جاء مع قافلة العبيد.

- إذن أنت نوبي يا مرزوق !؟

- ومن أشراف النوبة يا مولاي. رأيت أن ذلك لا يليق بي، بعد أن صرت عبدا. أما الذي أرجوه منك يا مولاي...

يقاطعه الخليفة، وهو يهزّ رأسه أسفاً:

- ألا يعرف أحد بهذا السرّ؟

- لا يا مولاي. يكفيني أن أظلّ خادمكم المطيع، وأن يظلّ اسمي شكاكرين، الذي أعرف به.

- هل لك شكوى من شيء في القصر يا ولدي؟

لأوّل مرّة يلمس مثل هذا الحنوّ من شخص في حياته؛ فكيف يحسّه مغترفاً من أمير المؤمنين. ذلك لم يخطر بباله في يوم من الأيام. أجابه، والدموع تترقرق في عينيه:

- ما أشكو منه يا مولاي لا يتعلّق بي. (وسكت مطرقاً رأسه)

شعر الخليفة أن لدى مرزوق ما يخفيه.قال له مطمئِنا :

- أفصح يا بنيّ، عليك الأمان !؟

- قائد الحرس و.. (يلتفت إلى الخلف خائفاً، ويسكت)

يستحثه الخليفة على المتابعة:

- وماذا!؟

- وجاريتكم بنوّجة!

قال له منفعلاً :

- يكفي. يكفي..

يغادر الخليفة المكان. يتجه نحو الباب الخلفي للقصر، ويدخله.. بينما يتابع مرزوق عملية السقاية خائفاً. ينتبه إلى أن قائد الحرس يتابع نزهة الخليفة خلسة، وشاهد الخليفة يتبادل الحديث معه.

.. يقبل قائد الحرس نحوه. ينظر إليه طويلا نظرة متفحصة لا تخلو من وعيد، وفيه انفرد به يستدرجه.. يهزّ عصا الخيزران التي لا تفارقه بوجهه.

يؤثر مرزوق الصمت. يكلفه صمته ضربة عصا على أسفل ظهره. يصرفه، وهو يضمر له سوء العاقبة..

* * *

مساء، ينفرد قائد الحرس بالخادم غانم الشطرنجي. لم يكن يدري أن الخليفة المنتصر كان قد طلبه، وأوعز إليه بمراقبة الجارية (بنّوجة). يعرف غانم ما يريده قائد الحرس سلفاً. يصارحه بما رآه في نزهة المنتصر. يهدّىء غانم من روعه، فيقلّل من شأن هذه الحادثة في نفسه.

.. لم يخطر ببال قائد الحرس، أنّ الأمر يتعلق بالجارية بنّوجة، التي يلتقي بها سرّاً عند غياب سيّدها عن القصر، مع أنّ الخليفة كان أبعد من ذلك في شكوكه. كان الأمر لا يتوقّف عند علاقتها بقائد حرسه التركيّ هذا.

.. يلجأ الخليفة بعد يومين من لقائه بمرزوق، إلى ضمّه لخدمه الخاصّ داخل القصر.

- ٤ -

تنقطع تداعيات مرزوق عند هذا الحدّ من التذكّر ؛ لكن الوقت لم يدم طويلاً. تستعاد صور مشوّشة، وكثيرة لسامراء، ولوجوه غيّبتها لعنة الزمن، وأخرى انتهت إلى شتات من الصعب لمّ شمله. كان الليل حوله يغلّف كل شيء، حتى روحه التي لم تستطع أن تحلّق بخياله إلى أبعد من ذكريات الماضي. ينفتح باب التذكّر من جديد على الصور ذاتها. لم يكن بمقدوره الخروج منها، أو محوها. مع ذلك كان يرى أنّ العبوديّة لم تطل إلا جسده. ربما لأن عبوديته كانت تمارس عليه بين جدران قصور عليّة القوم: الملوك!.

.... كان مرزوق يرى، ويسمع كلّ ما يدور في قصر سيّده المنتصر عن كثب، إذ كان في قلب الأحداث. كان يرى كلّ الداخلين، والخارجين من أفراد الحاشية الملكية، إلى الوافدين من ولاة، وقادة فرق، وحجاب، وقضاة، وكتبة، وتجّار، وملاّك الأراضي، والأطيان، ويتسلّم باليد ما كان يرده من هدايا، ومجوهرات، للثقة العالية به. صار لا يردّ له طلب أيّا كان هذا الطلب، لكن ذلك لم يدم طويلا، لأن الفترة التي عاشها في القصر كانت لمع سراب بعمر الزمن..

كان خلف الأكمة ما وراءها!

تنقلب الأمور فجأة على مرزوق، بعد أن لفّق قائد الحرس كذبة بحقه لم تكن بالحسبان، ونسج خيوطها مع إحدى خادمات المطبخ، لتصل المنتصر بأسرع من الصوت، فيصدّقها. لم تكن الكذبة سوى تهمة باطلة تمسّ خادمة إحدى زوجاته، فأنهى حياة فتاة بريئة، لتكون واحدة من الحكايات الكثيرة التي تحاك في قصره، بسبب طغيان العناصر الأجنبية التي تدير شؤونه..

ليلاً.. يستدعي خادمه مرزوق، بعد أن أشفى غليله بقتل الفتاة، وهدأت ثائرته، مؤثراً التريّث في معاقبة مرزوق، ليسمع منه الرواية على حقيقتها..

يحضر مرزوق، ويركع أمام قدميّ مولاه الجالس على أريكة اعتاد الجلوس عليها حين يكون وحيداً. يقبّل مرزوق الأرض:

- أمر مولاي ؟

روى المنتصر له ما حدث، ثم طلب منه قول الحقيقة. الحقيقة الناصعة التي لا غبار عليها، مكرّراً ثقته به،آملا ألاّ يخيّب ظنّه، أو سيلقى أشدّ العقاب.

يروي مرزوق الحكاية بتفاصيلها، والتي كان الدور الأوّل بتلفيقها لزوجته تلك، وكانت تلك المسكينة التي قتلت ظلماً، إحدى ضحاياها..

تنطفىء تلك الحكاية كسواها من الحكايات التي تحاك في ظلال القصور، وتنفّذها أيدٍ سوداء بدمٍ بارد. لأنّ أحداً لم، ولن يطالب بدمها.

تنطفىء لأنّ المنتصر لم يستطع مكاشفة هذه الزوجة السنديّة، التي كان يؤثرها على جميع زوجاته الأخريات. كان يأمل أن تلد له وليّ العهد، مع عدم أحقيتها بذلك، إذ لم تكن أكثر من جارية وضيعة قبل زواجه منها.

عادت المياه إلى مجاريها، وكأنّ شيئا لم يكن..

الخراج يصل كالمعتاد تباعاً إلى بيت المسلمين من ولايات الأمبراطورية الشاسعة. كذلك الميرة، ونمي للخليفة أن الخازن يتلكّأ بنقل الصورة الحقيقية له عنها، بسبب تواطؤه مع عمال بعض الولايات، مستغلاً تفاوت ما يرد إلى بيت المال منها. كان يتصرّف أغلب الأحيان بها، أو بما يرد من أعطيات على هواه، كما كان يخفي الكثير مما يتلقى من هدايا تخصّ القصر، أو يهديها من جديد لذوي الشأن، من العناصر الأجنبيّة ذات النفوذ المطلق في جميع شؤون الحكم. كان الخازن كثيرا ما يسبب الحرج لمولاه المنغمس في صغائر لا تليق به، أوفي أمور لا ترقى إلى المستوى الذي يجب أن يكون عليه أمير المؤمنين، عدا عن الدسائس التي يحيكها هذا الخازن، لتضيع معظم أوقات الخليفة بين ردهات القصر، ممّا جعل الكثير من المهمات الكبيرة تدار وتنفذ من قبل أعوانه. كانت تبتعد عنه الصور الحقيقية لما يجري من مظالم، أو ما يجري في القضاء، أو ما يحدث من انتهاكات في جباية الأموال، وفي الأسواق من احتكار، أو فوضى في الأسعار ..

تعم الفوضى كل شؤون الحياة. ينتشر الفساد. تصبح المؤامرات صغيرها وكبيرها شيئاً عادياً، وهي تخرج من السرّ إلى الظهور. كانت أقواها تلك التي ترتبها العناصر الغريبة، لتغيير جسم الدولة، بتغيير الدم الذي

بجـري فيـه، كـي تقـود تلـك الدولـة المترامية الأطـراف، وفـق أهوائهـا، ومطامعها..

كان يكفي الخليفة ما يدور في القصر وحده، ليظل مشغولا ساعات النهار والليل.. مطالب الزوجات، والجواري –ربما- وحدها كانت لا تدع فرصة أمامه، كي يعالج أمراً عامّاً مهما كان صغيراً، عدا عن أنّ عدم ثقته ببعضهن يجعله دائم التوجّس، فيؤثر أن يظل قريباً منهنّ خوفاً من خيانة، أو مؤامرة، أو غدر..

* * *

هنا تبدأ حكاية صاحب الزنج **(علي بن محمد)**.. وكيف استطاع هذا الرجل البسيط، التسلل إلى قصر الخلافة الحصين؟.

تشتبك الأسئلة التي لم يكن من الصعب الإجابة عليها، بعد استعادة تلك الفترة، التي لم تكن بعمر الزمن أكثر من نيزك ما لبث أن سقط حتى غدا رماداً..

نستعيد تلك الفترة من التواريخ التي كتبتها ذاكرة القهر في دفاتر لا تصفرّ أوراقها، ولا تهترىء، ولا تحترق في النكبات التي تتعرّض لها البلاد، لأنّها مكتوبة بماء الحياة السريّ، الذي لا ينضب. لا يجفّ. لا يتبدّد، ولا يتلاشى. يظلّ بكامل سحره مع دورة الأيام، وسيلان الزمن في الزمن..

... «يرى الخليفة المنتصر ذات يوم، خادمه **(يسر)** يخرج من مقصورة زوجته السنديّة، وهو يتلفت يمنة، ويسرة، وفي يده صرّة كبيرة. يتابع النظر إليه حتى خرج من الباب الخلفي. يعطي يسر الصرّة، إلى شاب كان ينتظره

بعيدا عن الأعين، في الوقت الذي كان بإمكان الخليفة أن يعترضه، لكنه لم يفعل ذلك خوفاً من ردود فعل زوجته، التي كان مطواعاً لها، والأبعد عن الشكوك بها..

يلجأ إلى خادمه مرزوق كي يتقصّى له هذه الواقعة، ويعرف من هو الشاب الذي أخذ الصرّة من يسر، وما الذي تحتويه تلك الصرّة التي أعطيت له..!».

كان يسر صريحا مع مرزوق.. قال له:

«هذا الشاب، هو أحد الفقراء المعوزين في سامراء، واسمه عليّ بن محمد. غير ذلك لا أعرف شيئاً.

.. يحاول مرزوق الانفراد بمولاه المنتصر، لينقل ما باح به يسر صديق علي، فلم يفلح. كانت المشكلات التي تثيرها الإماء، والجواري، في القصر، بسبب تسلط أعوانه عليهنّ، وعجز القهرمانات عن حلها، وانغماسه الكليّ في هذه المشكلات، وعجزه هو الآخر عن الوصول إلى الحقائق، يدور في حلقة مفرغة، وفي كلّ مرّة يجترّ خيبة جديدة..

.. زوجته السندية، تعلم من يسر، ما طلبه مولاه منه، حول علي بن محمد. تثور ثائرتها. تهتمّ بعليّ أكثر كي تغيظه. ترسل له الأعطيات بواسطة الخدم، والعبيد، الذين اختارتهم شخصياً، ليكونوا تحت يدها لحظة تشاء..

.. يتسرّب لعلي عن طريق هؤلاء كلّ ما كان يدور في القصر من أسرار. يستدرجهم بدهائه ليعرف أكثر، عن الحياة الخاصّة لساكني القصر. ليعرف كل شيء عن الحاشية. القادة. الولاة. القضاء. عن علاقة الخليفة

بدهاقنة البلاد من تجّار، وإقطاعيّين. ليعرف كيف تأتي الخراج، ومن أين تأتي، وكيف تنفق. باختصار، ليعرف أين مواطن الفساد.

يتاكّد لعليّ بالتالي، أنّ الخليفة المنتصر، ليس أكثر من رهينة، ولا يملك من الخلافة سوى اسمها، بسبب استئثار ذوي النفوذ بمواقعهم، وكلّ مرجعيات الدولة بيد هؤلاء.

يتأكد له أنّ أيّا منهم لا يأتمر إلاّ بما تمليه عليه أطماعه، وأهواؤه، لا يهمّه إلاّ التوسّع بنفوذه. بثرائه. بزيادة ممتلكاته..

يتأكّد له أخيراً أنّ سفينة الدولة تسير في محيط متلاطم إلى المجهول. لا ربّان لها يقودها إلى برّ الأمان..

يتناهى له أيضاً من أصدقائه الخدم، أنّ قائد الحرس يمنع حتى أصدقاء المنتصر من زيارته، ويعرف منهم علاقته بحاجبه. يعرف أنّ هذا الحاجب يتلكّأ لساعات من الزمن حين يطلبه لأمر ما، أو لمعرفة حقيقة الأخبار التي ينقلها العسس من أنحاء البلدان، في الولايات كافة، وغالبا ما كانت تزوّر مثل هذه الحقيقة. كان الحاجب غالباً ما يلقي بهؤلاء في السجون، أو يرسلهم للعمل مع عبيده في كسح السباخ جنوبي البصرة، أو تسخيرهم في العمل مع التمّارين، والدبّاسين الذين يعملون لحسابه، في واحات النخيل، أو يرسلهم كأعطيات وهدايا -بعد وشمهم- لأصدقائه ملاّك الأرض في منطقة البطيحة، بسواد البصرة..

* * *

- ٥ -

.. مع الفجر، ينهض مرزوق من غفوة طويلة على كتف قناة(بولـويز). يتفقّد أشياءه. يمسح الجهات من حوله بناظريه. يجهجه الضوء. يرى ما رسمته ذرى المرتفعات من انحناءات على طول خطّ الأفق: قاسيون الذي يعرفه جيداً. حرمون. المانع. ظهرة الكسوة، وامتداداتها شرقاً وغرباً. .يحمد الله أنّ الوحوش لم تقترب منه، بسبب انهماكها بافتراس حيوانات نافقة ملقاة بعيداً عن القناة. تبزغ الشمس. يستطلع المكان، وما فيه من حركة وحياة .

يرى بيوتا في الجهة الجنوبية الغربية. يخمّن في سرّه أنّه قد رآها من قبل: لا شكّ أنّها قرية صحنايا. حدّق مليّا بما رأى (بيوت في جهة الجنوب، وقصر، وخان إلى الشرق منه).

تذكّر أنّه جاء إلى هذا المكان ذات يوم، مع عدد من العبيد، وحمّلوا من مطحنة قرب الخان، ومن الخان ذاته، طحيناً، وأرزاقاً للجند.. أمّا تلك البيوت، فتأكد له أنّها (حديثة الضاحية) .. يتذكّر أنّه، ومن معه من السخرة، عادوا بحمولتهم على الطريق المحاذية لـ (نهر البويضة)، ولم يعودوا على الطريق الذي جاؤوا منه بسبب انغمار الدروب، ومساحات كبيرة من الأرض، بمياه الأنهار التي تفيض عن حاجة المزروعات.

* * *

..كان المزارعون قد شرعوا بالتوافد للعمل في حقولهم، يرى مرزوق بعضهم قادماً من بعيد، ليقطع (جسر القنطرة) إلى الطرف الآخر من القناة. يقف هنيهة حائراً يسارع، ويتخفّى خلف قصب النهر. ينزلق من الضفة إلى الأسفل ليجد نفسه في الماء. يرى النفق الذي تتدفّق منه مياه القناة. يسبح، ويدخله. يتمعّن فيه. يدرك أنّ يداً بشريّة قد حفرته، وأنّ من حفروه أخذوا بعين الاعتبار صيانته الدائمة، فنقشوا في الصخر، عند محاذاة سطح الماء، وعلى طول النفق ممراً، وفتحات في الأعلى يدخل الضوء منها، ومصاطب تعلو الممرّ.

يجد مرزوق في هذا المكان ملاذاً، ولكنّه ليس آمناً. يصعد إحدى المصاطب، ويجلس عليها. يفكر غير مبالٍ بتيّارات الهواء التي تعبر باردة جدّاً في هذا النفق، ولا يكترث بنعيق البوم الذي اتّخذ لنفسه أعشاشاً في فجوات سقف النفق، ولا بجلبة المزارعين، ودوابهم، وهم يقطعون الجسر من فوقه.. أما كيف سيكون خروجه، وإلى أين ستكون وجهته ؛ فهذا ما أرّقه.. البرد يتسلّل إلى عظامه في نوبات من الارتعاش الشديد. يسود الصمت في الخارج، بعد أن أصبح المزارعون في حقولهم القريبة، والبعيدة . يسمع صوت امرأة يتقطّع ما بين اللطم، والبكاء، والصراخ. يصغي، بينما الصوت يقترب من القناة، ويخالط خرير مياهها . يسمع صوت امرأة أخرى تناديها من بعيد، وتدعوها لأن تعود، ولا تفعلها ..! أمّا ما ستفعله هذه المرأة لا يدري.. فوجىء بظلّها يرتسم على جدار النفق ساقطاً من فتحةٍ تعلوه، وقريبة من المصطبة المتكوّم عليها، ثم تُجفِله تلك الجلبة التي حدثت في القناة . ألقت المرأة نفسها فيها. كانت المرأة التي لحقت بها قد

وصلت، ووقفت عند الفتحة من الأعلى، وهي تصرخ بأعلى صوتها مستنجدة إنقاذها . يهبّ مرزوق واقفاً، وينقضّ كما النسر خلفها. يستطيع بخبرته في الصراع مع الماء، وانتشال الغريق، أن يخرج بها سالمة. تخافه المرأة التي كانت تصرخ. ينعقد لسانها. تركض على غير هدى نحو البساتين المجاورة ..

يجري مرزوق للمرأة التي ما زالت بين يديه بعض الحركات التي أعادت لها وعيها. (لم تسمع منه قبل أن يختفي عن ناظريها سوى) :

- عودي إلى أهلك..

- النفس، حرّم الله قتلها..!

كان مرزوق قد قفز إلى النفق، حيث المصطبة التي ترك عليها الصّرة، والسيف، وسلك الممرّ داخل النفق بخفة قرد بين عدو، وقفز. واقفاً، وجاثياً، وزاحفاً بما أملته جغرافية النفق، وعلى ضوء عينيه، والأضواء متباعدة على طول النفق، ليخرج بالتالي من فتحة كان الخروج منها سهلاً.

يجد نفسه داخل سياج أحد بساتين الضاحية الغربيّة، وقربه من الداخل خيمة أعمدتها من خشب الحور، يُصعد إليها بسلم خشبيّ، ويُسحب إلى الأعلى بعد الصعود.

- إنّها خيمة ناطور إذن.. قال في سرّه..

- لكن أين الناطور؟ يتساءل .

كان ذلك فرصة مناسبة له، كي يرتاح قليلاً، وأن يجفّف ثيابه الخفيفة، وما في الصرّة من ثياب ..

يصعد مرزوق الخيمة. يسحب السلّم الخشبي القصير خلفه . يتملّى الخيمة من الداخل. الأرضيّة، وقد فرشت بحصير عتيق . الجدران من قصفات حور، وقضبان من شجر رمّان وسفرجل، وعيدان من قصب النهر، نسجت بأناة. تصدر بعد يباس أوراقها، خشخشة محبّبة بفعل النسائم التي تهبّ من الجهات جميعها. ضوء الشمس يجد الكثير من الشقوق، والفتحات الصغيرة التي خلّفتها الأوراق بعد جفافها. يقع بصره على صرّة صغيرة من منديل متعدّد الألوان، يغلب عليه السواد، معلّقة في سقف الخيمة. يرجّح أنّها زوّادة طعام. يفكّ رباطها. يفردها، ليجد فيها كسرات من خبز الذرة يابسة، وحبّات زيتون أسود جافّة، وبصلة. .يلتهمها بنهم. يتمدّد. يصغي، وهو على أتمّ الحذر، من أيّة مفاجأة يمكن أن يتعرّض لها. كان الأرق أقوى من ذاكرته المشتّتة، والإرهاق أقوى من محاولته التركيز على أمر ما يتوقف عنده ليفكّر فيه. يتسلّل الوسن إلى جفنيه. يتلمّس السيف بجانبه. ينزعه من غمده. يشدّ أصابعه على مقبضه. ينتشر الدفء بكل عضو فيه، حتى بمقبض سيفه. لم يعد يخشى المباغتة. كان ملاك النوم أخيراً أقوى من إرادته على البقاء يقظاً، فاستسلم له في غفوة هانئة، لم يزره فيها سوى طيف المرأة التي حاولت الانتحار غرقا. كان مرهقا. لم يستطع التمييز بأن ذلك كان حلماً، أم كابوساً..

* * *

* حديثة الضاحية هي في أيامنا بلدة أشرفية صحنايا تأسست في عهد الأشرف الأيوبي ٦٠٣هجري.

* * أقنية:(بولويز) (البويضة) (السبينة) (شوّاقة).

هي أقنية مياه حفرها الأقدمون في غوطة دمشق الغربيّة لتصريف مياه الفيضان، وغالبا ما كانت تجفّ صيفاً. أما الآن، فقد طمرت جميعها، أو استغلت ممرّاً لأسيقة الصرف الصحيّ. كانت إلى خمسينيات القرن الماضي تروي قرى: سبينة- بويضة.. وقناة بولويز تحديداً أمر بحفرها قائد الفرقة الرومانية الثالثة في جيش المشرق (بولويز) في عهد الأمبراطور الروماني تراجان..

* * *

- ٦ -

لم تعد تلك المرأة إلى أهلها كما أشار لها مرزوق. . فبعد أن قطعت مسافة قصيرة في بستان مجاور لقناة (بو الويز)، توقّفت قليلاً. رسمت إشارة الصليب على جبينها، وصدرها، وعصرت ثيابها، وانكفأت عائدة تقطع الجسر الذي يعلو النفق، وكانت قد استعادت هدوءها، لعلّها تعرف منقذها، ذلك الشبح الأسود الذي ظهر فجأة، واختفى.. تطلّعت حول الجسر دون أن يخالجها الخوف، وكانت عاجزة عن تفسير ذاك الحدث، إذ لم تكن بكامل وعيها، وكأنما مرّ كحلم.. ودون أن تفكّر طويلاً، رسمت أمام عينيها الخطّة التالية: أن تلتجىء إلى (الراهب نايا) في القرية الجنوبية المجاورة، الصديق الحميم لوالدها، والمحبوب من كلّ الناس في المنطقة صغيرهم، وكبيرهم. سادتهم، وعبيدهم، لما يتمتّع به من خلق وتقوى، والذي كان بمثابة ناقوس في دعوته لصلوات الآحاد والأعياد، لعدم وجود ناقوس في كنيسته الصغيرة، خلوته، وسكنه، الذي بناه بنفسه، ليصبح المكان الذي يُؤمّ للعبادة من قبل جميع أبناء طائفته، وممارسة طقوسهم في الاعتراف، والعمادة على يديه، الأمر الذي جعله مرجعاً أيضاً لأبناء الطوائف الأخرى، في حلّ النزاعات، وجعل من كلمته القول الفصل فيها..

كان (نايا) يصيح بأعلى صوته داعياً الناس للصلاة، حين وصلت

المرأة القرية. كان يتكرّر على لسان بعض الرجال، والنسوة بصوت عالٍ في المزارع المحيطة بالقرية: صاح نايا.. إيذاناً بموعد الصلاة، لتحمل القرية فيما بعد اسمها التاريخي، والأبديّ. (صحنايا) اختزالاً لأثرة توطّنت في القلوب، وقداسة لهذا الراهب..

أدّت المرأة شعائر صلاة الأحد بين المصلّين، وهم يختلسون النظر إليها مستغربين حضورها بينهم، وغادروا المكان بعد انتهاء الصلاة، دون تطفّل أيّ منهم بسؤال عنها، تاركين ذلك السرّ في عهدة راهبهم ..

- أنا أوليا مطانيوس. قالت له، وأبي كما تعرف يعمل فلاّحاً في مزرعة الشوري، وأنا وحيدة أهلي، وعلى أن أظلّ وحدي أغلب الأحيان، لأعدّ الطعام، وأغسل الثياب. .

ابن الشوري هذا شابّ شقيّ لا يحلّل، ولا يحرّم. يستقوي بأبيه، وأعمامه أصدقاء الحاكم (ماجور) ولا يجد من يردعه. اعتدى على أكثر من فتاة، وكان ينتقم ممّن يلجأ إلى الشكوى. حاول مراراً الاعتداء عليّ في غياب أهلي. كنت دائماً أنجو، إذ كان القدر دائماً إلى جانبي في كلّ مرة. .أمس، كرّر الحكاية. حاول اغتصابي. هدّدني أن يمحو عائلتي عن وجه الأرض. هو يستطيع ذلك. يكفي أن يصطحب سيّافاً يجزّ أعناقنا، ويلقينا في بئر، ويطمره، وكأن شيئاً لم يحدث..

لم تستطع أوليا أن تكمل بوحها للراهب نايا، بعد أن غالبتها الدموع، وانخرطت في البكاء..

راح الراهب يهدّىء من روعها :

- الزهرة يا أوليا مقصد النحل.. والفراشات ..

قاطعته، وهي تجهش بالبكاء :

- وذكور النحل، والدبابير أيضاً .!.

- الدبابير تأتي على العنب. وأنت كنت حصرماً يا أوليا.. شرف لك، أنّ هذا الحصرم كان يُفقأ في عينيه دائماً. .أنت لست أوّل امرأة تتعرّض لمثل هذا..قبلك كثيرات : القدّيسة تقلا. .سارة. .و..

- قاطعته ثانية:

- أنت قلت يا أبتِ. .ما أريده منك الآن هو الخلاص ؟!

- كيف ؟ سألها.

- أرسلني إلى دير القديسة مار تقلا، لأكون فيه خادمة ليسوع، ولها. أنا خائفة من سوء العاقبة، ومن مصير مجهول، ومن فضيحة تنال من سمعة أهلي، وكرامتهم..

فكّر الراهب قليلاً، وتمتم :

- معك حق يا أختي الصغيرة. العين لا تقاوم المخرز. هؤلاء ذئاب. أنا سأصطحبك بنفسي إلى ذلك الدير، إذ ليس من الحكمة أن تذهبي وحدك. الدروب ليست آمنة. فيها وحوش بشريّة، أكثر من وحوش البراري .

- وأهلي يا أبتِ ؟!

- أنا سأذهب بنفسي إليهم، وأطمئنهم عنك لا تخافي.. ولكن حينما

أوصلك، وأعود .

مساءً ، استعار من أحد أصدقائه بغلة .أردف أوليا خلفه، وقصدا ذلك الدير..

كان الطريق من ضواحي الشام إلى الدير آمناً ؛ فحاكم الشام التركيّ الذي استغلّ ضعف الخلافة العباسيّة المتمركزة في سامراء، كان من اهتماماته الأولى دعم الخانات التي كانت بمثابة محطات، واستراحات لعمال الدولة، وموظفيها، وللمسافرين، وحماية الدروب جميعها من قطاع الطرق، واللصوص، والمجرمين.

وكان يكفي الراهب نايا زَهْوُهُ بزيّه الكنسّي، والقلنسوة التي يعتمرها، الشعور الكبير بالأمان، وقطع الطريق بطمأنينة، وبتيقّنه من اهتمام الحاكم برجالات الدين من الطوائف جميعها، ليكونوا له عوناً في إدارة شؤون العامة، وكسب شرائحهم الاجتماعية ، وولائها له، تحقيقاً لما يضمره من مطامع في الاستقلال عن مركز الخلافة من جهة، ووحدة الصفّ من جهة أخرى لمواجهة الطامعين بحاكمية دمشق، وما أكثرهم. أكثر حساباته كانت في هذا القبيل لابن طولون حاكم الديار المصرية...

على طول الطريق، كانا كأنّما على رأسيهما الطير.. ظلّ الصمت يخيّم عليهما، حتى وصلا الوادي المفضي إلى قرية معلولا، حيث الدير في أعلى بيوتها من جهة شمالها الشرقيّ ..

يسألها الراهب ما أخفت عنه، وذلك ليقطع شكوكه حول ثيابها الملطخة :

- لم تقولي يا أختاه كلّ حكايتك. .أليس كذلك ؟!..

ينفكّ عقال لسانها بعد كلّ ذلك الصمت. تطمئن له. تبوح بما حدث معها في الأمس.

كان أكثر ما أثار استغراب الراهب، ودهشته، الشبح الذي أنقذها من موت محقّق، ووصيّة هذا الشبح لها، كانت علامة مضيئة تسير بهديها على طريق الرهبانية ..

في سرّه قال الراهب :

- لا شكّ، في هذا الشبح سرّ من الرّب، وإلا لما ظهر في اللحظة المناسبة لأوليا الطاهرة.

* * *

* (ماجور): ولاّه المعتمد على الله، على ولاية دمشق منذ بداية خلافته في العام ٢٥٧هجري بعد أن تمكّن من هزم عيسى بن الشيخ. وعيسى بن الشيخ هذا، هو بن المسليل بن حسن من بني جسّاس بن مرّة بن وهد بن شيبان أبو موسى. تغلب على دمشق أيام المهتدي بالله، وأول أيام المعتمد إلى أن وجه إليه المعتمد أماجور التركي الذي هزمه ففرّ إلى أرمينية.

* علي بن ماجور التركي، ولاّه المعتمد على دمشق بعد وفاة أبيه،وقد أناب عنه أحمد بن غباش.

* أحمد بن غباش، تولّى نيابة عن علي بن ماجور، ثم بقي عليها أيام أحمد بن طولون، الذي دخل دمشق عام ٢٦١هجري، واستمرعليها حتى عام ٢٧٠هجري.

- ٧ -

تفقّد أهل أوليا، وأقاربها فتاتهم الهاربة. وجدوا نصف الجواب عند خادمة الشوري المصرية عواطف.

لم تبح عواطف لهم إلاّ بقصد أوليا الانتحار غرقاً، وإنقاذها من قبل شبح أسود. وأخفت عنهم قصّة محاولة اغتصابها..

سرعان ما انتشرت قصّة أوليا بين أهالي الضاحية كلهم.. حتى الشوري ذاته، حضر إلى المزرعة، ليسأل عن هذه الصبيّة التي كان يعاملها كابنته، إذ كان منذ طفولتها، يأتي لها بألعاب، وحلوى، ثم ارتفعت قيمة هداياه لها، لتصبح منديلاً، أو قطعة قماش، وآخر هديّة لها كانت صليباً فضّياً يزين عنقها، إلى اليوم الذي تقطّعت سلسلته، فيما كان ابنه الوحش يحاول الاعتداء عليها ..

تدخل قصّة أوليا في عاصفة من التأويلات :

بعض رجال الدين قالوا عن الشبح:

- إنّه الخضر..

آخرون قالوا :

- ملاك من عند الله..

- جنيّ من الجنّ الذين يعبدون الله ..

امرأة قالت:

- رسول جاء به البراق..

امرأة أخرى:

- وليٌّ من أوليائه الصالحين..

يعود الراهب نايا مباشرة بعد أن استأمن أوليا في دير مار تقلا.

يخبر ذويها بما آل إليه مصير ابنتهم. يتقبّلون مشيئة القدر. ترتفع مكانتهم، ومكانتها لدى الناس..

أما قصة الشبح الذي أنقذها، أو الملاك، أو الجنيّ هذا، فأصبحت على كلّ شفة، ولسان .استطالت. تضخّمت. جعل لها خيال الناس امتدادات، وأوصاف، وتصوّرات، بلغت حدّاً لدى بعضهم لا يمكن تصديقه ؛ ففي الوقت الذي يدّعي فلان من الناس أنه رآه خارجاً من نفق قناة (أبو لويز)، يدّعي آخر أنّه في الوقت ذاته تماماً رآه فوق تبّة (الجبّ الأحمر)[1] في حديثة الضاحية، وآخر رآه عند خانها، أو عند (نبع العمية). والحقيقة أن العبد شكاكرين(مرزوق) الشبح لم يغادر نفق (بولويز) الروماني، إلاّ في أنصاف الليالي، ليحصل على ما يقتات به من ثمار البساتين المجاورة، أو طيور المزارعين التي لم تكن قد أوت إلى أقنانها، وهو الذي قد أدرك بحسّه القويّ،

(١) الجبّ الأحمر -نبع العمية - فقوّرة العبد.. أسماء مواقع في حديثة الضاحية، التي هي اليوم أشرفية صحنايا..

أنّ الناس بعد حادثة إنقاذه لأوليا التي لا يعرف من تكون، سيكون -إلى جانب كل التأويلات التي سبقت عنه- عامل خوف أيضاً. يتأكّد له ذلك من انعدام حركة الناس ليلاً على امتداد قناة بولويز، وربما في مواقع أخرى كثيرة سواها، بعد ذلك الحدث..

كان الشاب عبدالله الذي أنقذه شكاكرين السيّاف، من الموت، قد وجد سبيلاً للعيش بمساعدة رجال الدير في معلولا، بعد أن صارحهم بقصّته، وصار اسمه (حنّا) بدلاً من عبد الله، وناطوراً لكروم القرية، بعد أن أقرّ وجهاؤها بذلك، وخصّصوا له عند طرف الدير غرفة يسكنها. لم يلبث خلال فترة قصيرة أن كسب ثقة كلّ من عرفه. كان لا يجد غضاضة في القيام بأيّة خدمة يكلّف بها من قبل أهل الدير، بما فيهم الراهبات، اللواتي اجتمعن ذات يوم ـ بحضور القسّيس ـ وقرّرن زيارته في غرفته، لتقديم صليب من خشب الأبنوس كهديّة له، يزين صدره..

سيليفيا، الراهبة المسؤولة عن بنات الدير، وعن الأرزاق، والثياب، والأقمشة، والمجوهرات، التي تـُقدّم للدير من هنا وهناك، كأعطيات، ومنح، وهبات، وعن المطبخ أيضاً، كانت شديدة العطف عليه، تؤمّن له وجبات الطعام بمواعيدها، بعد أن لمس الكلّ شهامته، وإخلاصه، وغيرته على الدير، وما فيه، ومن فيه..

بعد أن روى لسيلفيا ما حدث معه، وعرفت حكايته، لم تبخل هي أيضاً عليه، فأفصحت له عن سبب وجودها في هذا المكان. قالت له:

- أُسرتُ مرّتين يا حنّا.. أنا بالأصل من تراقيا لأسرة ماتت كلـّها في

الحروب. .كان قد اختطفني، وأنا طفلة، رجل صقلي، وباعني في بيزنطة لأسرة لا تنجب أولاداً. كبرت عند هذه الأسرة. أحببت شابّاً من هناك . عند وصولنا تماماً اشتعلت الحرب. طوّقت جيوش المعتصم المدينة ودمرتها. وخسر الجيش البيزنطي الحرب، وقُتل الشاب الذي أحببته. وجدت نفسي بين الآلاف من الرجال والنساء الأسرى. كنت بين الصبايا اللواتي اختارهنّ أحد القادة لسيّده المعتصم. تعرّضت القافلة عند تخوم حلب لقطّاع الطرق، الذين يبيعون غنائمهم لتجّار العبيد، أو للبيوتات المترفة في المدن.. تتابع بعد لحظات من الصمت :

- للقدر لعبته أحياناً يا حنّا. افتدانا أحد التّجار الحلبيّن الكبار، وأهدى عدداً منّا للكنيسة.. وبدورها وزّعتنا الكنيسة على الأديرة، وكان نصيبي في هذا الدير..

* * *

كانت قد انتشرت في الدير قصّة أوليا مع الشبح المنقذ، ووصلت أسماع حنّا. يتسقّط حنّا أوصاف هذا الشبح . كلٌّ يرسم له صورة على هواه، لكنّ الوصف الحيّ له سمعه من أوليا ذاتها:

- شاب أسود قامته فارعة، عريض المنكبين، ندب لجرح مندمل في عنقه، وندب لجرح آخر في أعلى الصدر من الجهة اليمنى..

- إذن هذا هو السيّاف شكاكرين! قال حنّا في داخله. .ثم عرف- فيما بعد- من أوليا، المكان الذي أنقذها فيه من الغرق. يقصد حنّا رئيس

الدير مساء ذلك اليوم. يرجوه زيارة الراهب نايا. يوافق رئيس الدير له على هذه الزيارة بعد تردّد خوفاً عليه من مكروه يصيبه. يحتاط لذلك بأن قدّم له ثياب قسّ ليرتديها، كما قدّم له بغلة فتيّة، وزوّده بهدّية متواضعة من زبيب، وتين، ونبيذ، وثياب رهبانية تليق براهب :

- على بركة الربّ. .ليحمك يسوع يا حنّا .

فجراَ، ينطلق حنّا في الطريق المؤدّية للشام، وكلّه أمل أن يحظى بلقاء شكاكرين. ... لم يدخل المدينة، بل سلك الطريق المحاذية لسورها الشرقي، فالجنوبي، وهي الطريق التي تسلكها القوافل القادمة من شمالي البلاد عادة، وهي تقصد حوران، أو فلسطين.. إلى أن وصل بساتين القدم الشريف. تملّى خضرتها، وأشجارها الباسقة من حور، وسرو، وكينا. اشتهى أن ينزل عن دابّته، ويتمشّى بين أشجارها المثمرة، أو ينام قليلاً تحت ظلالها، أو يقفز من فوق سواقيها، أو يغسل قدميه في إحدى هذه السواقي، كما كان يفعل مع أقرانه في نزهاتهم إليها أيام القيظ. تذكّر الكثير من الحكايات معهم. خياله يشتطّ بعيداً لمعرفة أحوالهم، ومصائرهم، بعد أن انحرفت بوصلته، ليكون مسيّراً تقوده يد القدر إلى مجاهل لا يعرف نهاياتها، وتدخله في متاهات لا سبيل للخروج منها، وهو على هذه الحال، لكن للزمن مفاتيح (يخشخش) بها بيد خفيّة، سمّها الأمل، أو ما تشاء ؛ من أسماء ؛ فالزمن يترك لنا فسحة من الضوء، في آخر النفق الذي ندخله، أو، يمنحنا البصيرة، التي ترينا، وبوضوح كل الدروب التي ندخلها بالغلط، ولا نستطيع الخروج منها، ونلصق على جدارها من الخارج عجزنا، الذي نسميه عادة: المتاهة!!.

لم يكـن عبـد الله يـدري أن هنالـك خيطـا خفيّـا قـد لا ينتهـي عنـد حـدود الموصـل التـي حملـت العبـد مـرزوق إلى الـشام، لينقـذه مـن المـوت، ولا ينتهـي عنـد سـامراء التـي تعلـم هـذا العبـد فيهـا كيـف يكـون عبـداً مطيعـاً، ولا في بـلاد النوبـة التـي جـاء منهـا إلى العبوديـة. ربّـما ينتهـي عنـد ذاك الـشابّ الـذي عـرف كيـف يـدخل قـصر سـامراء، ولكنّـه لم يـستطع الخروج منه.. !!.

* * *

- ٨ -

لم يكن فيها الخليفة أكثر من لعبة بيد رجال الجيش الأجانب، وهم يمارسون السلطة الحقيقيّة في الدولة..

كان عليّ في هذه الفترة من حياته، ينظم الشعر، ويتّخذه وسيلة للعيش، فيمدح به أصحاب السلطان، وكتّابه، كما اتّخذ إلى جانب قرض الشعر، حرفة تعليم الصبيان بسامراء، كوسيلة أخرى للعيش، فكان يعلمهم الخط، والنحو، وعلم النجوم، والسحر، والاسطرلابات..

يرحل علي من سامراء سنة ٢٤٩هجري إلى البحرين متأثراً بما شاهد، وسمع في عاصمة الخلافة، من فوضى واضطرابات، ولعله صمّم أن يفعل شيئا ما، لكنه رأى أنّ سامراء لا تصلح أن تكون قاعدة ينطلق منها لأيّ عصيان ضدّ الخلافة، بسبب الرقابة الشديدة، والجاسوسيّة المحكمة، ووجود السلطة المركزيّة فيها..

لم يعد أحد يشاهد علي بن محمد في سامراء. لم يخبر أحداً ممن يعرفهم أين سيذهب، أو ماذا سيفعل.

يسر الخادم وحده يعرف السرّ، لكنه لم يبح به لأحد.

ربما زهريت وحدها تعرف مثل هذا السرّ، بسبب علاقتها، التي كانت مباشرة مع خدم القصر بسامراء..

زهريت تروي لسيّدتها نائلة الحكاية كشيء مضى، وانقضى، دون أي شعور بمسؤوليّة ما، كأنّما تستعيد حكاية من حكايات الجدّات ليس أكثر. السبب، أنّها ألقت كلّ الماضي خلف ظهرها، كي تتابع حياتها وفق ما هو مقدّر لها.

تتوقّف زهريت طويلا عند عليّ بن محمد، ذاك الشاب الذي صار اسمه على كلّ شفة، ولسان، ليس في القصر وحده، بل في جميع أرجاء سامراء، وتعدّاها إلى أماكن أخرى، بأسرع من اشتعال النار في الهشيم.. وممّا قالته زهريت لسيّدتها نائلة:

- يغادر عليّ سامراء سرّاً إلى البحرين، حسب الأخبار التي وصلت إلى يسر الخادم صديق عليّ الحميم. يقول يسر، إنّ رابطة نسب، وقرابة تربطه بالبحرين. أمّا الحقيقة -يقول يسر- هي أنّ البحرين كانت بيئة صالحة لنشر أيّة أفكار جديدة، ولا بدّ له هناك من أن يكسب أعواناً يخلصون له، ولا يغدرون به. وقد كان على صواب فيما كان يرمي إليه.

تسألها نائلة وهي تتثاءب:

- وما يعنينا من كلّ هذا الكلام الفارغ!؟

تنكفىء زهريت على نفسها، وتسكت على مضض، مع أنّها تتمنّى في داخلها، لو انّ حديثها هذا كان موجّها لسيّدها عبد الجبار: إنّه يعرف كيف يصغي كغيره من الرجال. النساء لاتهمّهنّ مثل هذه الحكايات. لو كنت حكيت لها عن الجنّ، أو الغيلان لكان أفضل. على أيّة حال، أنا أخطأت، فهي لم تطلب مني أن أحكي..

بدا الندم على وجه نائلة. قالت في سرّها:

- يا ليتني تركت زهريت على سجيّتها تروي لي كيف استطاع فقير مثل عليّ أن يهزّ أركان أعظم أمبراطوريّة في الدنيا !؟.

جعلهـا النـدم تعـاود الطلـب مـن زهريـت أن تتـابع الحـديث مـن حيث انتهت:

- كان يسر يا سيّدتي يبوح لي بكلّ شيء. ممّا قاله لي :

- إنّ أهل البحرين أحلّوه محلّ النبيّ! كان من دعاته يحي البحراني، ويحي بن أبي ثعلب. الأوّل كان كيّالاً، والثاني كان تاجراً صغيراً. تصوّري يا سيّدتي أنّ هناك من كان يسجد له!.

- أمعقول هذا ؟ سألتها نائلة مستغربة ما قالت.

- الخوف يا سيّدتي يفعل العجائب!. لقد جعل عليّ من نفسه، المهديّ المنتظر! فكيف لا يتسلّل الخوف إلى القلوب !؟.

- ألهذا الحدّ يا زهريت !؟

- أكثر من هذا يا سيّدتي. لقد بلغ الأمر بيهوديّ أن يصدّق. اليهوديّ «مانذويه». يقبّل يده، ويسجد له، ويزعم أن صفته في التوراة، وأنّه المهديّ المنتظر!.

- هـذه مـسألة فيهـا نظـر! اليهـوديّ هـذا -لغايـة في نفـسه- يفعـل ذلك. فكّري بالأمر. ألا ترين أنّ هذا اليهوديّ يبغي أن يستقويه على السلطة العبّاسيّة؟!.

- ربّما.. لكنّني لا أفهم بمثل هذه الأمور!.

- أحب قصص الملوك. أسمعيني شيئاً. لقد كنت في قصورهم. لابدّ أنّك تعرفين الكثير عنهم !؟.

- سأحكي لك كيف قُتل أحدهم. ما رأيك ؟

- من منهم يا ترى؟

- الخليفة المتوكّل!

- ولِمَ اخترته دون سواه ؟

- لما في موته من عبر !

- أعتقد أنّ في موتهم جميعاً مثل هذه العبر.. حدّثيني عن موت هذا الخليفة. كيف حدث !؟

- أتسمعين بالشاعر البحتري؟

- لا. لم أسمع به ؛ لماذا تسألين ؟

- أسأل، لأنّه كان من ندمائه، وكان حاضراً حين قُتل..

- وصلنا خبر مقتله في البداية، على النحو التالي :

... قُتل الخليفة المتوكّل بسيف هنديّ اشتراه من رجل من أهل اليمن. أمر المتوكّل بتسليم هذا السيف الفريد لأحد حرّاسه، واسمه باغر التركي، ليكون واقفاً به على رأسه كلّ يوم مادام الخليفة جالساً. في تلك السهرة سكر المتوكّل سكراً شديداً. أقبل باغر، ومعه عشرة من الأتراك، وهم ملثّمون، والسيوف في أيديهم، وقام باغر بقتل الخليفة بالسيف الهنديّ

ذاتـه، بعـد أن كـان المنتـصر بـن الخليفـة، قـد اسـتمال كثـرة مـن الأتـراك، والفراغنة، والأشروسية، وكان على رأس مغامرة قتل أبيه**!**.

... في رواية أخرى يـا سيّدتي، يقـال إنّـه بعـد شراء الخليفـة للـسيف، انتقل المقرّبون منه إلى الحديث عن تكبّر الملوك في القديم ؛ وإذ سمع المتوكّل هذه الأحاديث خرّ على وجهه الذي تعفّر كلّه بالغبار، وأعلن بصوت جهير أنّه عبد الله، وأنّه من التراب وُلد، وإليه يعود**..**

.. رأى البحتري في قول الخليفة، وتصرّفه هذا نذير شؤم.

بعـد أن اسـتعاد الخليفـة هـدوءه، وجلـس يـشرب الخمـر، وغنّـى العبيـد أعذب الغناء بكى المتوكّل، وقال لوزيره الفتح بـن خاكـان إنّـه لم يبـق أحـد ممّـن يقدّرون الغناء سوى الخليفة، والوزير. رأى البحتري في هذا القـول نـذير شـؤم ثانياً. بعد ذلك دخل مخدع الخليفة خادم إحدى زوجاتـه حـاملاً لأمـير المؤمنين قفطاناً فاخراً هديّة منها. فرح الخليفة لذلك، وأراد أن يجـرّب القفطـان، ولكنّـه استدار استدارة تمزّق معها القفطان، فتكدّر، وأمر الخادم أن يعود بالقفطـان إلى سيّدته، ويبلغها رغبته بأن تحفظه لتكفّنه به عند موته. اعتبر البحـتري هـذا نـذير شؤم أيضاً. شاءت الأقدار أن كان تخوّفه في محلّه**..**

قبيل الفجر كان السكر قد نال منه. اقـتحم مخدعـه عـدد مـن الحـرّاس على رأسهم باغر. تفرّق جميع رجال البلاط ، بينـما حـاول الـوزير الفـتح بـن خاكان حماية الخليفة ؛ غير أن الحرّاس قتلوا الاثنين.

في الصباح، دُفن المتوكّل، بعد أن لفّتـه زوجتـه بكفـن صـنعته مـن ذاك الثوب الذي قدّمته له كهديّة عشية مقتله.

هناك من رشّ شيئاً من البهار، ليجمّل قصّة المتوكّل المأساويّة. قال: كانت قد أُهديت له جارية في مطلع حكمه. هي (محبوبة). آلت بعد مقتله إلى (بُغا) أحد مدبّري المؤامرة ضدّ الخليفة المقتول. يقال أنّ بُغا أقام سهرة ذات ليلة، كان من المفترض أن تغنّي فيها محبوبة ذات الصوت الجميل. ما إن تناولت العود حتى شرعت تغنّي حزنها على الخليفة. استشاط بُغا غضباً. أمر بزجّها في الحبس. ماتت في سجنها، وهي على عهدها في الحبّ لخليلها!

-كلّهم هكذا! قالت نائلة.

سألتها زهريت:

- من تقصدين يا سيّدتي.. الملوك!؟

- لا.. الرجال كلّهم! أوّلهم بغا.. هذا الذي يريد أن يستأثر بامرأة. محبوبة أخطأت أيضاً. كان عليها أن ترقص على قبر سيّدها، هذا الذي نصّبوه أميراً للمؤمنين، وجعلوا منه جسراً يمرّ الماء من تحته، لا جسراً يقطعه الناس إلى أعمالهم..

قالت زهريت لسيّدتها نائلة:

- ليتك يا سيّدتي تسمحين لي أن ألحق بالعبد الذي مرّ من هنا. هناك أمور كثيرة بودّي أن أستفسر منه عنها!؟.

- لو يعود الأمر لي لفعلت يا زهريت، لكن سيّدك عبد الجبّار يجنّ لو سمعك تطلبين مثل هذا الطلب، فكيف لي أن اسمح لك!؟.

* * *

- ٩ -

بعد الحصار الطويل لقصر علي بن محمد صاحب الزنج، آخر المعاقل في عاصمته (المختارة)، التي دمّرها الجيش العباسيّ عن بكرة أبيها، ولم يترك فيها جداراً قائماً، وُقتل من قُتل، وُأسر من أُسر من المدافعين عنها، ومن نسائها، وأطفالها، كان الناجون قلّة استطاع بعضهم الوصول إلى القرى البدويّة في البطيحة، بعد فرارهم خارج دائرة النار التي حوصر فيها الزنج بأمر من الخليفة الموفق، وحقّق النصر الكامل عليهم. .من هؤلاء الفارّين كان (سيدوك)، و (صفوان)، و(عاصم)، و(سيّار). .التقوا، واتخذوا قراراً بالتوجّه إلى الشام، وضواحيها، وهم يدركون العداء بين الخليفة في سامراء، وابن طولون حاكم دمشق، وامتناع هذا الأخير عن تحويل الخراج إلى مركز الخلافة ، الذي لم يتوقّف عن المطالبة به، وبأيّة مساعدات يمكن أن تُقدم إليه، لتمويل حروب أبي أحمد الموفق طلحة ولي العهد، هذه الحروب التي لم تهدأ منذ عقد له أخوه الخليفة المعتمد على ديار مضر، وقنّسرين، والعواصم، في يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول سنة ٢٥٨ هـ وخلع عليه، وعلى مفلح الساعد الأيمن للموفق إلى البصرة لحرب الزنج، في يوم الخميس أوّل ربيع الآخر من تلك السنة، بعد أن ظهر عجز القوّاد الصغار عن إيقاف تقدّمهم، فجهّز جيشاً كامل العدة والسلاح، وأكثر عدداً ..

دخل العبيد الفارّون: سيدوك، ورفاقه أرض البطيحة حفاة عراة إلاّ

ما يستر عوراتهم. يتجرّعون مرارة انكسار آمالهم، والشمس الملتهبة تكوي جلودهم، يسيرون فرادى، أو مثنى، أو جماعة، فيبثّون ما في صدورهم من حسرة، أو ذكرى عن نصر، أو اندحار، أو مشاهدات مؤلمة، ومناظر تقشعر لها الأبدان ..

قال سيدوك لهم حين سأله عاصم عما يعرفه عن وجهة فلول الزنج الفارين من المختارة:

- رأيت جماعة تتّجه إلى عبدان، فيما إذا استطاعت أن تقطع نهر الأبلة، لكن لا أعتقد أنّها ستصل بسلام ؛ فثمة جند متمترسون على طول النهر، وحتى شطّ العرب، عدا عن أنّها منهكة من القتال، ومن الجوع. يحملون في صدورهم أسراراً لا تحملها الجبال. كلّ واحد منهم تجري العبودية في دمه، بأقسى أشكالها، ومنذ ولدته أمّه، عليه أن يحمل نيرها، ووزرها، ويمشي في دروب لا يشاء السير عليها، ويحيا في أماكن لا إرادة له بالعيش فيها، وتحت رحمة أناس لا سبيل للخلاص من الخضوع لهم ..

تحت ضربة شمس، أصابت عاصم الحمّى.. راح يهمهم :

- حالنا..كنّا.. تنتظرنا العبودية حيثما اتّجهنا.. يقول وهو بين الصحو والهذيان :

- أرى كتلاً من نار تتدحرج نحونا ! يتّكىء بكل ثقله على كتف سيدوك مترنّحاً، وقد غامت عيناه..

- لنسترح قليلاً. يقول سيدوك، وهو يشير إلى ساقية قريبة تجري بطيئة، كأنّما الماء الموحل يغلي فيها..

- أحدكم يسند معي عاصماً. .إنّه يتلاشى، فلنحمله إلى ضفة الساقية. ينتبه سيّار إلى فارس قادم من بعيد نحوهم. يوعز لهم :

- تأهّبوا. قد يكون عدواً ؟!

- لو كان عدوّاً، لما جاء وحيداً. .أجابه صفوان .

... كان الفارس رسولا من قبل الشيخ (أبو مدلج). هذا الرجل كان متعاطفاً مع عليّ بن محمد صاحب الزنج، يمدّه بما يستطيعه من التموين، ويشدّ أزره بمقاتلين أشدّاء. حتى بعد مقتله، قطع على نفسه عهداً، ألاّ يتخلى عن رجالاته في محنتهم، بعد انكسارهم الأخير، وشتات من نجا منهم، ولجوئهم إلى البطيحة..

ينقلب فيها بعض زعماء العشائر الذين يتعاملون مع صاحب الزنج، بعد أن كانوا يؤمّنون الأرزاق، واللباس، لمقاتليه، أو لعبيده من كاسحي السباخ، أو التمّارين، أو الدبّاسين، بعد أن انقطع عنهم مورد هذا الباب التجاري..

ينقلب عليه أيضاً تجّار العبيد، الذين كانوا يجنون الأموال الطائلة من تجارتهم بالأسرى، أو بالغنائم من نساء وأطفال..

تنتشر في البطيحة أيضاً، قوّات من جند الدولة لملاحقة، وقتل الناجين من المعارك الأخيرة التي كانت ساحتها في المختارة. هؤلاء كان لا سبيل أمامهم سوى القتل، لا العفو، ولا الأسر..

يطمئنهم الفارس القادم بعد وصوله إليهم،بأن لا خوف عليهم. يزوّدهم بالطعام. يشير إلى الدرب الآمنة التي عليهم أن يسلكوها للوصول

إلى مضارب عشيرته. يردف عاصماً أمامه على فرسه الدهماء، ويسارع في طريق العودة، حتى غاب عن الأنظار .

يهتمّ الشيخ (أبو مدلج) بعاصم شخصيّاً يبدّل له الكمّادات التي تخفّف من حمّاه بيده. أتوا له بالطعام والشراب بعد أن تعافى، وأخذ قسطاً من الراحة، ودون أن يتوجّه له الشيخ بأيّ سؤال، حتى سؤاله عن اسمه ..

- رفاقك تأخّروا !.. قا ل له الشيخ .

كانت علامات القلق بادية على وجه عاصم. يلاحظ الشيخ ذلك. يتمتم قائلاً:

- أرجو ألاّ يكونوا قد تاهوا عن الطريق..

ثم قال متوجّسا :

- أخشى أن يكونوا قد وقعوا في فخّ ما !

وقال لخادمه :

- قل لولدي مطرود أن يعود، ويتفّقد رفاق هذا الشاب..

- سمعاً وطاعة يا شيخ . أجابه الخادم.

يسأ ل الشيخ ضيفه بعد لحظات من الصمت:

- من هم ربعك ؟

يجيبه، وفي داخله فرح غامر من اهتمام الشيخ به:

- من عبيد الله..إنّهم، سيدوك، وصفوان، وسيّار، يا سيّدي، وأنا عبدك عاصم .

- حدّثني عنهم يا ولدي يا عاصم!؟

- سيدوك يا سيّدي، أصله من زنجبار، ساقه القدر ليكون واحداً من عبيد يحي الزبيدي، مولى الزياديين، وعبيد، هو رئيس وكلاء الهاشميّين في قرية الجعفريّة التابعة للبصرة. .إنّه مالك كبير، الملك لله وحده.. وحتى ينال مكانة لدى الوالي أهداه العبد سيدوك. لكن هذا العبد انضمّ إلى جماعة عليّ بن محمد. قاطعه الشيخ يسأله:

- أتقصد صاحب الزنج ؟

- نعم يا سيّدي. .ذلك حدث عند الهجوم على البصرة . إنّه بطل من الأبطال يا شيخ. أرجو أن يصل إلى هنا بالسلامة، وتراه بأمّ العين..

العبد الثاني، هو صفوان. .ولا أعرف إلاّ أنّه من البحرين. انضمّ لعليّ حين كان عليّ هناك..

- وماذا كان يعمل عليّ هذا في البحرين ؟

- كان يحرّض الناس ضدّ الخلافة، والله أعلم!. .ثم تابع يقول:

- أما الثالث يا سيّدي، فهو سيّار، الأصل من الصومال. عرفته مؤخّراً، ولا أعرف عنه الكثير، لكن على ما أذكر، كان عبداً عند مالك كبير، أظنّه المعلّى بن أيوب، وقدّمه المُعلّى هديّة للخليفة المعتمد عند توليه الخلافة. إنّه رجل فيه كلّ صفات الرجولة، ثم سكت عاصم عن الكلام، وأطرق رأسه في الأرض منتظراً من الشيخ طلب المتابعة..

كان الشيخ شارداً يفكّر بمصير رفاق عاصم الثلاثة، فلم يطلب منه متابعة الكلام .

دنت الشمس من الغروب، ولمّا يعد مطرود بعد. .بدا التوتّر على والده الشيخ، فراح يذرع أرض ربعته جيئة وذهاباً. يسأل نفسه عمّا إذا كان قد تعرّض لمكروه. يساوره القلق الشديد عليه. ينعكس على كلّ تعبير، أو سلوك يصدر عنه.

كان أحد الجواسيس المتعاملين حديثاً مع إحدى المفارز العباسيّة التي تمركزت في واسط بعد هزيمة الزنج، يصطاد الفارين منهم بمساعدة أقارب له، مقابل درهم واحد على الشخص سواء أكان رجلاً، أم امرأة. شيخاً، أو طفلاً .

كان فخّه الماء، إذ يكفي أن يفتح سدّة من سدّات السواقي غزيرة الجريان في الممرّات الإجباريّة التي يتوقّع أن يسلكها الفارّون المساكين، وهم يغوصون بالوحل، فيسهل عليه، وعلى من معه إلقاء القبض عليهم، إلاّ إذا كانوا أكثر مما يستطيع السيطرة عليهم عدداً، فيلجأ إلى قتلهم. يقطع رؤوسهم. يحملها لأسياده الجدد كدليل لا شكوك فيه، للحصول على الثمن. أما مطرود الذي بحث طويلاً عنهم، لم يكن يعلم عن هذا الجاسوس الذي هو أحد أفراد عشيرته شيئاً..

كانت الشمس قد لملمت خيوط أشعتها تغيب شيئا،فشيئا خلف حدود خط الأفق. يغشى الظلام الأرض. يرى من بعيد هيئات كما الأشباح تتحرّك. يقترب أكثر. تستوقفه مياه كما السيل تتدفق في سبخة يعرف أنّها كانت جافة تماماً في النهار. يتأكّد من أنّ ذلك لم يكن إلاّ بمثابة فخّ، لكنّه يجهل ناصبيه..

يلكز فرسه. تعدو به ليسابق السيل على ما لم تصله من الأرض البور، وعليه أن يذهب شوطاً بعيداً لبلوغ الأشباح التي كان قد رآها..

كان سيدوك، وسيّار، وصفوان، قد وقعوا في هذا الفخ المائيّ الموحل، وهناك من يكمن لهم لاصطيادهم فرادى، بعد أن يكونوا قد أُنهكوا تماماً، وهم يحاولون الخلاص..

ينطلق فرسان ثلاثة، بأمر من الشيخ أبي مدلج،لمعرفة مصير ولده مطرود ؛ وفي اللحظة التي وصلوا فيها أوّل المستنقع الكبير المفتعل، كان بالصيّاد من الغباء ما تحوّل إلى فريسة ؛ فحين شاهد الفارس يعدو نحوه، ونحو من معه، صاح به، ليغيّر طريقه عن هذا المكان، وكأنّما كان ذلك إشارة له، ولمتتبّعيه المرسلين خلفه من قبل أبيه أن يحتاطوا. .كان هؤلاء الفرسان قد سارعوا إلى المكان، بعد أن لاذ الصيّادون بالفرار، متخفّين بالظلام الذي لم يكن لهم عوناً على الإفلات من مطاردة الفرسان لهم. . أحدهم عرف أنّهم من رجال شيخ عشيرتهم، فنبّه رئيس عصابتهم، الذي لم يجد بدّاً من الاستسلام لهم، خوفاً من عاقبة المصير..

كان الشيخ في أشدّ حالات قلقه ينتظر، ومعه صحبه من العشيرة، يشاطرونه القلق، والصمت، وحالة الانتظار، والترقّب. يتوعّدون بالانتقام ممّن سيلحق أيّ مكروه، أو أذى بأولادهم، أو بالثلاثة الذين صاروا في عهدتهم، ودخلوا حرم البقعة التي يعيشون عليها من الأرض، أو بمن يأتيها وافداً، أم دخيلا ..

.. ربيعة، (أمّ مدلج) كانت خارج الديوان أشدّ توتراً من الجميع،

وهي تشرف على قدور الطعام التي تغلي على نار هادئة. كان نور القمر يمنحها الرؤية لأبعد مما تتوخّاه. تشاهد كما الأشباح تتحرّك في البعيد من جهة الجنوب الغربيّ. تسمع وقع سنابك الجياد، وصوت مطرود يقترب حادّاً، ناهراً. .وتسمع همهمة، وتوسّلا . تصرخ:

- يا أبو مدلج.. الشباب قد جاؤوا.

أمام الخيّالة، كان الشقيّ جدعان، واثنان معه من عشيرة مجاورة، مكتوفين. يتوسّلون. يتعثرون. يلهب السوط ظهر أحدهم إمّا تلكّأ في المسير. وكان سيدوك، وسيّار، وصفوان، يسيرون فرادى في الخلف يتقدّمهم سيدوك. يبلغ الإنهاك أشدّه بهم، والجوع..

كان أبو مدلج، ورجاله قد خرجوا من الربعة إلى العراء. .يرفع ظهره مستنداً إلى عكّاز من خيزران، وهو يتملى القادمين بهدوء وصبر.

يتوقف مطرود، وكلّ من معه أمامهم، وهم ينتظرون بفارغ الصبر ما سيقوله الشيخ...

يشير الشيخ بعكّازه لجدعان أن يتقدّم نحوه، ثم يرفعها، ويشكّلها أمامه كإشارة لجدعان أن يتقدّم أكثر كي يكون تحت متناولها. .كان جدعان يرتجف، وقد عقد الخوف لسانه..

- أهذا أنت ؟! سأله الشيخ إذ فوجىء به، ثم لكزه بطرف عكّازه في صدره بقوّة وأشار لرجاله اللحاق به إلى الربعة، وظلّ الآخرون متسمّرون في أمكنتهم يحدّقون نحو هذا الشقيّ بتشفٍ، وتساؤلات مكتومة في أنفسهم عما سيكون مصيره ..

في الربعة، جلس أبو مدلج يقلّب الأمر في سرّه، وهو يُنقّل بصره بين عيون رجاله التي تستحثه على الكلام. أعياهم الصبر، فسأله أحدهم متردّداً:

- ما أنت فاعل به، وبرفيقيه يا شيخ ؟

بدا حائراً، وسألهم الرأي، فأجاب آخر:

- بالنسبة له، فأمره بيدك. إنّه ابن عشيرتنا. .أما شريكاه، فأرى أن نجعل منهما عبرة لسواهم..

- ماذا تقصد ؟ سأله الشيخ، والتجّهم يرتسم على سحنته .

أجابه متلعثماً :

- يبقى الرأي لك ..

يسأل الشيخ الرجل الآخر :

- وأنت ما رأيك ؟

أجاب :

- نعاملهما بالحسنى، ونحذّرهما من العودة لمثل هذا الفعل. يكفينا ما بين عشيرتنا، وعشيرتهما من عداوة. .ثم قال له نريد أن نسمع رأيك !؟

أجاب وهو يتفرّس في وجه أحدهما تارة، وفي وجه الآخر تارة أخرى:

- عشيرتهما غارقة بالولاء للمنتصرين حتى أذنيها، وأي فعل يستفزّها، سيكون شرارة للمواجهة ما بيننا وبينها، وستستقوي بجند الدولة لدحرنا.. قاطعه الرجل الأول يسأله:

- لماذا لا نساوم عليهما ؟ وقفت أم مدلج في الباب، وقالت:

- الطعام جاهز.. ثم غادرت المكان .

يتابع الشيخ، فيسأله :

- كيف ؟ وأضاف:

- لن نعالج الخطأ بخطأ.

- نبادلهما بما تلقفته عشيرتهما من عبيد فرّوا بعد مقتل صاحب الزنج !؟

- كأنّك تنتزع من الذئب فريسته ! أجابه الشيخ، ثم قال لهما : اتبعاني..

يخرج الشيخ من الربعة، ويتبعاه. عكّازه تضرب الأرض بقوّة أمامه .

كان الكلّ في الخارج على انتظار ممضّ. .قال، لمطرود ورفيقيه:

- حلّوا وثاق جدعان. .الطعام جاهز. .ليتناول الجميع الطعام معاً..(تنفرج أسارير الجميع. ترتسم على الوجوه علائم الدهشة والاستغراب)..

بعد أن تناولوا الطعام، يذهب سيدوك، ورفاقه إلى خيمة أعدّت لهم للاستراحة والنوم. يطلب الشيخ إحضار جدعان، ورفيقيه للمثول أمامه. يوجّه السؤال لجدعان:

- من معك سواهما ؟

- شخص ثالث استطاع الفرار من مطرود. أجابه .

قال له الشيخ، وهو يحوّل نظره إلى رفيقيه:

- أعطيكم سعر صيدكم من عبيد ونساء وأطفال مضاعفاً. واستطرد يقول مهدّداً بوعيدٍ مبطّن:

- ليس من السهل أن يكون المرء كقطّاع الطرق، أو أن يتعدّى، على حرم سواه من جوار.. وكان الشيخ يختلس النظر إلى ما يرتسم من ردّ فعل على وجوههم، ثم سألهم:

- ماذا قرّرتم؟

أجابه أحدهم بعد أن نظر إلى جدعان، والآخر مستمدّاً منهما علامة الموافقة على ما سيقول.

- نحن تحت أمرك!

قال الشيخ بحدّة:

- سأطلق سراحكم الآن. ثم رفع عكّازه نحو رؤوسهم، وأضاف: هذه، ستكون الثمن لو خالفتم! وطمئنوا رفيقكم الرابع، كي يظلّ معكم..

.. انتبهوا لما سأطلبه منكم أخيراً: ليكن كلّ ذلك سرّاً. ..وعليكم أن تلحقوا برفيقكم الفارّ من ولدي مطرود قبل أن يرتكب حماقة ما، فيحدث ما لا تُحمد عقباه..

لكن هذا الفارّ ارتكب الحماقة التي لا يمكن أن يتفاداها أحد، وانتهى الأمر إلى أسوأ مصير لم يحلّ بفلول الزنج وحدهم، بل بكلّ من والاهم من العشائر البدوية، ووقف إلى جانبهم في محنتهم.

* * *

-١٠-

كانت الليالي تمرّ بطيئة على مرزوق، هذا الشبح الذي بات على كلّ شفةٍ ولسان، وكانت محاولاته الخروج إلى الضوء، تصل به إلى الطريق المسدود دائماً، بسبب جهله المستّجدات التي تحدث على الأرض. لم يكن يدري بالكارثة التي حلّت بحركة الزنج، ومقتل قائدها علي بن محمد، وشتات الناجين منهم في كلّ الأصقاع، من خوزستان، وربما أبعد، وإلى الديار الشاميّة، يحتضنهم أولئك الذين كانوا يتعاطفون مع ثورتهم، أو أولئك الذين يتلقفونهم كغنائم هبطت عليهم من السماء ؛ فيعودون بهم إلى دائرة العبودية من جديد، وذلك بالاتجار بهم، أو استعبادهم فيما يقومون به من أعمال في الأرض، أو البناء، أو المهن التي تتطلب جهوداً عضليّة للعمل بها..

كان يقود هؤلاء حدسهم الذي كم كان يخطىء، ونجوم الليل التي لا تهديهم إلاّ إلى سوء السبيل غالباً، وطبيعة الأرض التي تظلّلهم شعابها، والسراب الذي يكذب عليهم في البحث عن ماء، ويعلّلهم بأوهامورديّة، يواجهون وحوش البراري، وزواحفها القاتلة. ينتصرون عليها، ويجدون بمواجهتها مقاومتها والحيلة للتخلّص من شرّها، أو القضاء عليها، نزهة بالمقارنة مع ما مرّ عليهم من أهوال، في مواجهة الوحوش البريّة..

وصلت مجموعة منهم، بعد أن قطعت سهل حوران، بلدة كوكب[1] المحصّنة. حيث تتقاطع عندها الدروب إلى فلسطين، والديار المصرية، وإلى حرمون، والجولان، ولبنان.. وإلى الشام التي باتت على مرمى حجر منهم..

رحّب بهم خادم دير هذه البلدة، وأطعمهم، وقدّم لفتاة ترافقهم كسوة كالتي ترتديها نسوة الضواحي الغربيّة من الشام، فوطة بيضاء للرأس، ومنديلاً مزركشاً، ومشغولاً بخرزٍ ملوّن، وفستاناً مزهّراً غلب عليه اللون العنابيّ، وصندلاً شاميّ الصنعة مفضّضاً.

وما أثار استغراب الخادم، أنّ هذه الفتاة وحدها ذات بشرة بيضاء، بين الرجال الأربعة الذين ترافقهم. لم يلاحظ عليها أيّ استياء منهم. كان وجهها بشوشاً دون تكلّف، ولم تكن نظراتها لهم مغايرة لواحد دون آخر .

طلب أحدهم منه أن يهديهم إلى مكان يعملون فيه، وأن تبقى الفتاة عند بنات الدير ريثما يستقرون. قال لهم :

- هذا ما أفكّر به !.

اصطحب الفتاة، وسار بها عبر الرواق حتى غاب عن أعينهم ليعود بعد قليل إليهم، ويطمئنهم على سلامتها، ويطلب منهم المبيت حتى صبيحة اليوم التالي، كي يرسلهم مع رجال من البلدة إلى أمكنة يشتغلون فيها، ويكونون معزّزين مكرّمين..

* * *

---

(١) كوكب : موقع أثري في ريف دمشق الغربي.

ليلاً، خرج مرزوق من مخبئه السريّ في القناة، وهو يجهل المصير الذي آل إليه صاحب الزنج، والهزيمة المريعة التي تعرّض لها جيشه، وشتات الفلول التي نجت. ذلك بعد قراره الأخير بالذهاب إلى أرض السواد مهما كلفه ذلك من ثمن، بعد أن ضاقت به السبل. .ارتدى ثياب امرأة الضاحية التي اختلسها ذات يوم عن حبل الغسيل، وسار جنوباً محاذراً أماكن السكن، وكان حنّا قد عاد إلى (دير معلولا) فاقداً الأمل من اللقاء به بعد أن بحث بنفسه في العديد من الأمكنة التي خمّن أن يكون هذا الشبح الذي روّع سكان المنطقة بما داخلهم من أوهام حوله .

عند الشروق كان قد وصل إلى مرتفع صغير يقابل جبل (بدران)، ويقال إنّه كان إحدى المواقع التي قطنها (شبيب التبّعي)، الساكن في الخيال الشعبي إلى الآن، وربما إلى آخر الزمن، واختير هذا الجبل الواقع عند نهاية السهل الحوراني من الجنوب، كمرقاب، وموقع لعشيرة قوية الشكيمة، مأمونة الجانب، لحراسة وحماية أطول شطر، وأخطره، في طريق الحجّ..

كانت قد دبّت حركة أبناء العشيرة بعد النهوض الصباحي : رعاتهم مع قطعان مواشيهم، خيّالتهم، نسوتهم، النار المشتعلة هنا، وهناك أمام مضارب خيامهم. كانت الأرض مكشوفة أمام، وحول مرزوق . فكّر أين يختبئ؟ كيف يتوارى؟ خلف أيّ حجر. خلف أية شوكة. كان تنقله الحذر عبثاً، ولم يسلم من عيني فيضة، زرقاء البحر، أو (زرقاء السوح)، لقبها في تلك العشيرة، وعند العشائر المجاورة، إذ كانت ترى في البعيد الأشياء

بتفاصيلها.. أشارت لامرأة كانت معها خلف (صيرة *) الماعز، وقالت لها: انظري هناك. هناك، إلى تلك الحجارة. إن خلفها امرأة. .امرأة تطلّ برأسها، وتختفي. .أمعنت صاحبتها النظر قائلة:

- لاأرى شيئاً. أنت متوهّمة !.

- بل أنا متأكّدة.. أجابتها بثقة، ثم أمعنت النظر جيداً، وأكّدت على ما رأت..

وفيما كان مرزوق يتنقّل بخفّة، ويلوذ خلف حجر كبير، أشارت فيضة بإصبعها مستدركة:

- بل إنّه رجل!

كانت صاحبتها قد رأت شيئاً ما. قالت:

- أكاد لا أصدق أنك رأيت شيئاً!

- انظري. انظري جيداً، إنه يتحرّك.

قالت فيضة:

- هه. إنّي أرى شبح امرأة، وليس ما أراه شبحاً لرجل.. لا شكّ أنّها جنّية يا فيضة!.. أنا خائفة.

لم يكن من سبيل أمام مرزوق، لا التخفّي ولا الهرب، فالرعاة، والحطّابات، كانوا قد انتشروا في كل مكان حوله.. يقف منتصب القامة. ينفض ثوب المرأة الذي يرتديه مما علق به من شوك، وهشيم. يقطع الشكّ باليقين. يتقدّم من زرقاء السوح، وصاحبتها، وقد جمدتا في المكان خائفتين.

قالت الأخيرة: ربما كانت امرأة مصابة بمسّ يا فيضة، فلنهرب!

أجابتها فيضة بل هو رجل، وأسمر البشرة. سنقابله. إنّ لديه مشكلة ما، ربّما كان في مأزق.. وسترين أنّي على حقّ، فيما أقول..

كانت أقصى حسابات مرزوق هي العودة إلى العبودية لدى زعيم هذه العشيرة، أو الموت، ولا سبيل إلى المقاومة، مع كثرة لا يعرف عنها شيئاً. كان عدد من الشبّان والأطفال قد شاهدوه، فجاءوا إلى المكان. يتجمّعون حوله، بين خائفٍ، ومحاذر، ومستغرب. يطلب منهم أن يقودوه إلى زعيمهم؛ فاصطحبوه، وهم يتبادلون النظر فيما بينهم، ويتهامسون مشكّكين بصحّة عقله.

لم يُفاجأ شيخ العشيرة به. كان قبل نهار في زيارة صديق له في أذرعات (إزرع) وسمع حكايات كثيرة من الناس، عن هزيمة الزنج، وعن لجوء بعض الفارّين منهم إلى سهل حوران، أو عبوره إلى أماكن أخرى، ووجد به الشاهد الحيّ على ما جرى..

يقرّر شيخ العشيرة في داخله بعد تفكير عميق، وهو يتأمّله جيداً، أن يعامله برأفة، وإحسان.. يأمر المجتمعين حوله بالانصراف، ويطلب من مرزوق أن يتبعه إلى خيمته، التي هي عبارة عن صيوان كبير، بثمانية أعمدة، محاكة حديثاً بوبر الماعز. يطلب من خادمه بعد أن قدّم له الخادم الماء، أن يأتي له بجلابيّة يلبسها بدلاً من ثيابه أولاً، ثم بما يتيسّر من طعام..

ينهض الشيخ. يقول له:

- سأعود إليك فيما بعد..

بعد فترة كان مرزوق قد بدّل زيّه، وتناول الطعام الذي كان لا يتعدّى مشتقات الحليب من سمن وزبدة وجبن، والخادم قبالته. كانا يختلسان النظر أحدهما إلى الآخر، دون أن يتفوّه أحدهما بكلمة.

يدخل الشيخ. يأمر خادمه بالانصراف. يرحّب بالوافد الغريب. يسأله:

- ما اسمك ؟. .وماذا تريد أن أقدّم لك ؟

- ما أريده محال يا ابن العم ! ثم لاذ بالصمت.

يطرق الشيخ رأسه بالأرض. يتساءل في سرّه:

- ما المحال الذي يبغيه هذا الزنجي الذي يتكلم العربية بطلاقة. كما أنّه قال: (يا ابن العم).. أيضاً لم يذكر اسمه ! ثم رفع رأسه قائلا له: ــ ما قلت لي اسمك ؟!

- عبد من عبيد الله ! ثم أطرق رأسه.

- كلنا عبيد الله. قال الشيخ، وراح يسرّح لحيته الكثّة بأصابعه، وهو يحدّق به مليّاً. يتفرّس بعينيه المتوقّدتين. بأسنانه البيضاء. بزنده القويّة. بقبضته التي تستطيع طحن الحجر.. يفكّر الشيخ في داخله لو يكون حارسه الشخصيّ . لكن عليه أولاً أن يعرف من يكون. ما حكايته. ما الذي جاء به إلى مضارب عشيرته.. إذن لابدّ من أن يستدرجه بعدما لمس منه التحفّظ في الكلام، حتى يعرف منه كلّ ما يريد. يسأله :

- ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

يتريّث مرزوق هنيهة قبل أن يرفع رأسه ليجيب، محاولاً أن يقرأ ما تقوله عينا الشيخ :

- لماذا لا تدعني وشأني الآن؟ لن أنسى لك الجميل. كسوتني. أطعمتني.. يقاطعه الشيخ:

- يبدو أنّك مرهق، وبحاجة للراحة . سأدعك مع رجالي، ربما احتجت إلى شيء، يمكنك الاستعانة بهم. ثم نلتقي فيما بعد، لنكمل ما بدأنا به.. أنت الآن ضيف الرحمن. أهلا وسهلا بك..

* * *

- ١١ -

كان خادم الدير في كوكب قد أحضر بعض رجال البلدة ليرافقوا رجال الزنج الأربعة، بعد أن تدارس أمورهم معهم. رأى أن يوزّعهم ليعملوا في مزارع الريف الشامي، لدى ملاكٍ يضمن سلامتهم لديهم..

.. الأول: إلى العشيرة المقيمة في جبل بدران.

.. الثاني: إلى مزرعة إمام الضاحية.

.. الثالث: إلى مزرعة الجواهرجي ميخائيل في بلاس القدم الشريف.

.. الرابع: إلى مزرعة شاكر في حديثة الضاحية.

لكنه أوصى الرجال الذين اصطحبوهم، أن يعودوا بالثلاثة الأوائل إلى مزرعة شاكر، فيما لو تعذّر استقبالهم من قبل الملاّك، أو وكلائهم، إلى مزرعة شاكر؛ فشاكر هذا، يعرفه تمام المعرفة، والكثير من أرزاق الدير تأتيه هبة من هذا الرجل الكريم، كما ويعرف أنّه بالأصل من سواد البصرة. جدّه كان من الملاّك الكبار هناك، وله مع الزنج تجربة ليس في تشغيلهم فقط، بل يعرف طريقة عيشهم، وكيف يسوسهم. .هناك أقطعه الخليفة المعتصم بنفسه سبخات بكر، بمساحات واسعة، وبنى له قصراً يعزّ مثيله، وأمدّه بالمال، فاشترى الكثير من العبيد الأفارقة الذين شقّوا نهراً تسيل فيه مياه الفرات عذبة لريّ تلك الأراضي، بعد أن كسح هؤلاء العبيد سباخها..

زكّاه صاحب الخراج لدى الخليفة، ثم انتزع منه أحد قادة الخليفة، هو - الواثق ابن المعتصم - كلّ ما يملك عنوة، بما في ذلك عبيده.. بعد أن خسر كلّ ذلك، رحل مع أسرته إلى دمشق، فأقطعه واليها ربع مساحة أراضي حديثة الضاحية، من أجل رفد المدينة، بما تنتجه من حبوب دعماً لحاجته من التموين.

وصل الزنجي الثاني أولاً. كان شيخ الضاحية يلقي خطبة الجمعة. انتظر ومن معه خارج الجامع، ريثما ينهي الإمام خطبته، ويخرج..

كانت مفاجأة لهما أن عرّج الشيخ في خطبته على ما آل إليه زنج البصرة، بعد أن تحدّث عن التراحم، والتكافل، بين الناس.. أصغيا له جيداً.

كان العبد يصغي بكلّ جوارحه لما يسمع. بدا شارداً يتذكّر صوراً متلاحقة لبعض صور الحياة التي عاشها في الأهوار، والمستنقعات مع أقرانه العبيد، والظلم الذي كانوا يتعرّضون له، والقهر، والذلّ، والتعب في إصلاح الأراضي، وشقّ الأنهار، وبناء السدّات، والجسور. تتلاحق الصور، وتتداخل مع صور القتل في معارك كثيرة خاضها، والكرّ والفرّ، والانتصارات، والهزائم، والدماء التي تسيل، والأكواخ التي تحترق، والجسور التي تنهار، والبكاء، والأنين.. يقطع عليه هذا الشرود خروج المصلّين. يستوقف صاحبه الإمام. ينفرد به جانباً. لم يسمع ما قاله، أو ردّ الإمام عليه. كان ينظر إلى التعبير الذي يرتسم على وجهيهما. التقط منه الإيجاب، والبشاشة التي ارتسمت أخيراً وجه الإثنين.

اقتربا منه. ودّعه الرجل بعناق حميم، بينما وضع شيخ الضاحية يده على كتفه قائلا: هيّا معي..

كان العبد الثالث، والرجل الذي اصطحبه قد وصلا مزرعة شاكر في حديثة الضاحية. هناك أيضاً استقبله شاكر بنفسه، وعاد الرجل بعد أن استأمن العبد لديه. كذلك كان شأن العبد الرابع في (حوش بلاس ـ القدم الشريف) لدى مالك المزرعة ميخائيل الجوهرجي...

بعد ظهيرة ذلك اليوم وصل العبد الأول، ومصطحبه إلى جبل بدران.

شاهدا عند مشارف الجبل خيّالاً قادماً نحوهما. استوقفهما. سألهما عن بغيتهما. قال له الرجل:

- نريد لقاء شيخ العشيرة..

يرحّب الخيّال بهما دون أن يوجّه لهما أدنى سؤال. ينزل عن جواده. يتّجه بهما نحو مضارب العشيرة المنتشرة تحت السفح الجنوبي من الجبل، وأقلّ الخيام عند سفحه الشرقيّ..

يستقبلهما الشيخ ببشاشة. يرحّب بهما.. يعرفان أنّه لن يسألهما أيّ سؤال قبل ثلاثة أيام من الضيافة. (شأن الضيف عند العشائر العربيّة)، لكن ابن دير كوكب الذي اصطحب هذا العبد ليسلّمه إيّاه يداً بيد، بناء على توصية خادم الدير. بادر بقوله للشيخ:

- أنا رسول إليك من خادم دير كوكب. يبلّغك التحية مقرونة بدوام الصحة، والعافية، والعزّ، لك، ولكلّ أبناء عشيرتك، صغيرهم، و كبيرهم، وأضاف، وهو ينظر إلى العبد، ويشير إليه:

- وهذا الرجل هو...

يقاطعه الشيخ:

- فهمت. فهمت. لا تكمل.. سيكون واحداً منّا.. أما أنت، فلن تذهب قبل أن نؤدّي واجبنا تجاهك.. ثم يدنو خطوة من العبد. يربّت على كتفه مبتسماً، وهو يحدّق في عينيه المنكسرتين اللتين تخفيان عمقاً بعيد الغور . يبادله العبد الابتسامة، قائلاً في داخله متوجّساً :

- لعل ذلك يدوم..

* * *

يغادر ابن كوكب مضارب عشيرة جبل بدران. يرافقه أحد شبّانها، مع هديّة للدير. حمولة بغل من سمن، وزبدة، وجبن.

يقول الشيخ لابن كوكب :

- إنّها هديّة متواضعة للدير. تقبّلوها منّي مع التحيّة لأهل الدير، وأهل البلدة، وسلام خاص لخادم الدير..

بعد الظهيرة أعطى الشيخ أمراً لبعض شباب العشيرة بأن ينصبوا(شقيّن) ،ويفرشوهما خلف ربعته ليستقلّ مرزوق، وهذا العبد كلّ في شقّ. وما هي إلا فترة قصيرة حتى تمّ ذلك. قاد هذا الأخير بنفسه إلى الشقّ المخصّص له. يشكره على هذا الفعل. ثم يطلب العبد مرزوق، فيحضر أيضاً. يقوده بنفسه إلى الشقّ الآخر، ويسأله :

- أيعجبك هذا ؟

- كثير عليّ ..! أجابه .

يشير الشيخ إلى الشقّ الآخر قائلاً :

- إنّه أيضاً لرجل منكم. تعارفا. تسامرا. لكما الحريّة..

يغادر الشيخ إلى ربعته، ويدخل مرزوق خيمته الصغيرة. ينظر من بابها المفتوح إلى الخارج. كان أوّل ما شاهدت عيناه، المدى المترامي الذي لا يحدّه سوى خط الأفق البعيد في نهايات زرقة صافية. يقول في سرّه :

لأوّل مرة تُقدّم لي مثل هذه الهبة! .. لاأعتقد أن الشيخ سيستردّها. لأوّل مرّة يتمدّد على فراش محشوّ بصوف، وفي مكان مستقلّ، وخاصّ به. يتأمل الفانوس المعلّق فوقه. يهمس:

- يا للكرم!.

يلاحظ حركة غير عاديّة. دواب تنقل قُـرُبَ الماء، تمرّ ليست بعيدة عنه، نحو ساحة المناسبات التي تنعقد في العشيرة .

كان الشبان يمهّدونها، ويسوّون أرضيتها، والنسوة ترشقها بالماء حتى لا يثار الغبار بالمبتهجين.. بعد الغروب ساد الهدوء تماماً، سوى الثغاء الصادر من الحظائر المكشوفة، أو نباح الكلاب من أماكن قريبة، أو عواء الذئاب، وأصوات ابن آوى من البعيد..

يسمع مرزوق وقع خطوات قريبة من خيمته ليفاجأ بجاره يتمشى خارج خيمته. يدنو أحدهما من الآخر. يتبادلان التحية مسبوقة بـ (السلام عليكم) . تصافحا دون أيّ كلام، أو همس. يقوده مرزوق من عضده إلى خيمته. كان نور الفانوس في نوسانه الأخير. يرفعه ليرى زنجيّاً مثله بلحمه، ودمه. يسأله مُباغتاً به:

- منذ متى أنت هنا ؟

- منذ الصباح. .أجابه.

دعاه إلى الجلوس على حافة الفراش، وجلس قبالته على بساط من وبر الماعز..

- ما اسمك؟ وما الذي جاء بك إلى هنا؟ سأله مرزوق متعجّلا التعرفّ إليه.. أجابه مبتسماً :

- أعتقد أنّنا في الهوا سوا .! أما اسمي فهو «ودّ سالك».

- وأنا اسمي مرزوق. لكنّي حملت اسم شكاكرين فترة من الزمن، ولم تخلصني منه الأيّام بعد، كما لن أتخلّص منه، ويمحى تماماً بسهولة .

- لا بدّ من سبب قويّ إذاً!؟

- لا شكّ .

- هلاّ تحدّثني عنه يا أخ مرزوق!؟

- ليس الآن يا أخي ودّ سالك. لكن لو أعرف قصّتك مع هذا الزمن .. افتح لي قلبك. أنت أمام شخص يصغي إليك، وقصته نادرة، وطويلة. طويلة جداً..

- لن تكون أندر، وأطول من قصّتي. مع ذلك سأرويها لك..

(ولدت في زنجبار لأب أفريقيّ. مرّت بعد أن صرت يافعاً سنوات قحط، ومثل هذه السنوات تعتبر مواسم خير عند النخّاسين. باعني والدي الذي لا أعرف عنه شيئاً، وكانت أمّي قبل حين من ذلك قد ماتت بين

أيدينا، وهي تتلوّى من الألم، وقد هزلت ولا تقوى على أن تمشي على قدميها أبداً. أخوتي الصغار ماتوا أيضاً. قضت المجاعة عليهم، وعلى كثيرين سواهم يا أخي مرزوق. سأختصر لك رحلة العذاب مع هذا النخاس اللئيم، الجشع. تصوّر أنه اشتراني بثلاثة دراهم، وباعني بعشرين.. افتقدت لكلّ من معي في تلك القافلة، بعد أن كان يبيع الواحد إثر الآخر منّا حين دخلنا سواد العراق.

كنت الوحيد الذي وصل معه إلى البصرة منهم، مع طفلة صغيرة كان قد اختطفها له رجاله، من قافلة مسافرة من الشام، إلى الديار المصرية، وهي الآن قريبة من هنا في أحد الأديرة..

نعود إلى حكايتنا يا أخي.. في البصرة، سلّمني إلى عامل البصرة محمد بن رجاء الحضاري، وصرت واحداً من عبيده .

كان ذلك سنة ٢٥٤ للهجرة على ما أذكر. أيّام قليلة مرّت قضيتها في قصر هذا الرجل لا أنساها. طعام كثير. فاكهة. جوارٍ بيض كالأقمار. قلت :

الدنيا ضحكت لك يا ودّ سالك ؛ لكن ما تفعل بزمن سريع الغدر يا مرزوق!؟ البصرة كانت تغلي كما قدر على النار. والداخلون والخارجون من وإلى القصر، من عسكر، وموظفين، وزعماء، وتجّار، بالعشرات. شيء ما كان يحدث، وكنّا نجهله، وعرفناه عند الهجوم على القصر. يومها استطعت النجاة بجلدي، واختبأت في المسجد الكبير القريب من القصر.. والذي علمته فيما بعد، أن فتنةً قامت بين الفرقتين الكبيرتين البلاليّة، والسعديّة، ثم

انقسم أهل المدينة على بعضهم بعضاً، وتطوّر العداء إلى اصطدام دمويّ مسلّح داخل المدينة أدّى إلى طرد عامل البصرة، وفتح السجون، ونهب بيت المال، ودور الأغنياء، وفساد إدارة محمد بن رجاء السبب)..

كان مرزوق يصغي لـ ودّ سالك، ويفكر محلّلاً هذا الحدث. يقاطعه بسؤال:

- من برأيك المستفيد من هذه الفتنة يا ودّ ؟

-لا أحد. الفساد لا يعالج بفساد. .لكن كان هناك من يتربّص منتظراً مثل هذه الفتنة.. وسكت ودّ، وبدا شاردا ..

- مثل من؟ سأله مرزوق .

- من سيكون غير علي بن محمد صاحب الزنج ؟!

- ما الذي فعله هذا الرجل حينذاك؟

- حين تنازعت الفرقتان التركيّتان حاول أن يستميل إحداهما إليه. كان كثيرٌ من الناس قد لجأوا إلى المسجد الكبير، فادعى أنّ كلّ من فيه، من أعوانه، ويستطيع أن ينصر بهم الفرقة التي تنصره . كان ذكياً جدّاً. أعتقد يا صاحبي أنّه من هذا المسجد تحديداً بدأ دعوته، وحركته التي امتدت مع الأيام التي تلت، كما النار في الهشيم. صعد إلى المنبر -وكان خطيباً مفوّهاً- استمال كلّ من في المسجد إليه، وأنا منهم. دخل جند الخلافة الذين جاؤوا إلى قمع الفتنة، بعد وشاية به على أنّه أحد المحرّضين عليها. تمكّن من الفرار من بين أيديهم. ألقوا القبض

على الكثيرين ممّن ناصروه، وعلى زوجته، وابنه، وابنته، وجارية له، ثم سكت ودّ، وهو يفكر بتلك الأحداث التي زُجّ فيها بإرادته، منفلتاً من قيد عبد خادم، إلى قيد عبد مقاتل.

يبدو ودّ سالك شاردا، فيما هو يتذكّر تلك الأحداث. يسأله مرزوق :

- وماذا بعد ؟

يتابع ودّ سالك، ويبدو كأنما صحا من شروده :

- كنت معه في ذلك اليوم الذي ألقى القبض علينا فيه جند عامل واسط، بوشاية من أحدهم، ونحن في طريق الهرب إلى صديق له في بلدة واسط. فوق جسر على أحد الأنهار المتفرّعة عن دجلة. كانوا يقودوننا على حافة ذلك الجسر فوجئت به يلكزني في خاصرتي بقوّة، فسقطت في مياه النهر. عرفت أنها حيلة منه للهرب. ارتبك الجند من حوله، وهم يحاولون اصطيادي، أو القبض عليّ حيّاً . يستطيع عليّ أن ينتزع سلاح أحدهم. يفرّمن بين أيديهم كما الزئبق. يكمن لهم في مكان قريب منهم. يهدّدهم، حتى تواريت بعيداً، وخرجت من النهر لأجده أمامي؛ أمّا كيف استطاع النجاة منهم، فلم أعرف. أنا أيضاً لم أسأله..

بعد مضي فترة من السير ــ وكان قصده بغداد ــ طلب منّي العودة إلى البصرة، حتى ولو ألقي القبض عليّ، ودخلت السجن. هكذا قال لي، وكان قوله هذا بمثابة الأمر.

عدت إلى البصرة، وحدث ما توقّعه.. دخلت السجن فعلاً.. (وتوقف ودّ سالك فجأة عن الكلام، حين سمعا وقع خطوات قريبة من الخيمة) . قال ودّ لمرزوق هامساً :

- أتابع حكايتي فيما بعد..

مع الشروق، ينهض مرزوق من النوم. يخرج من خيمته. ينخطف بصره مع خيّال على فرس شقراء في المكان المعدّ كميدان للفروسية شرقي مضارب العشيرة..

- لا شك أنّه يتدرّب ! قال في سرّه .

بعض الألعاب التي يقوم بها فيها شيء من التعثّر. يلاحظ ذلك، ولكنه كان معجباً بخفّته، وسرعته في تأدية الكثير من فنون الفروسية. يدهشه التناغم بين الفارس، وفرسه، التي تتجاوب معه بذكاء، في كلّ حركة يقوم بها .

لم يكن هذا الفارس سوى وطفة ابنة شيخ العشيرة، التي تستعدّ للمشاركة باحتفال سيقام هذا النهار بمناسبة مهمّة لأسرتها، بعد أن ولد ذكر لأخيها الوحيد، وكانت كلّ مواليده إناثاً من قبل، وأخوها يأبى أن تكون هناك ضرّة لزوجته التي أحبّها، أو قل كان يحبّها قبل زواجه منها حتى الجنون.

أمّا العبد مرزوق، فقد ظلّ شاخصاً حتى آخر التمارين التي قام الفارس بها،منذ انطلق على فرسه الشقراء، والرمح في يده .

بدا له هذا الفارس كما السهم سرعةً، وثباتاً. كان يقذف رمحه على هدفٍ بعيد أُعدّ له من قبل، على شكل شاخصة إنسان، فأصابه، وظلّ مغادراً الميدان، حتى غاب عن ناظريه خلف الخيام، ولم يعد.

ينكفىء مرزوق عائدا إلى خيمته. يتذكّر الأيّام الخوالي، والزمن الذي يسيل هباء، وينقضي في عبوديّة لا فكاك منها، ولا تمنحه حريّة، كالحريّة التي ينعم بها هذا الفارس..

* * *

-١٢-

بعد تسلم رجل من الضاحية العبد ويلان، من ابن بلدة كوكب، المرسل من قبل خادم الدير، راح يعامله كولد من أولاده في العمل، أو في الرعاية، وكساه بالثياب التي لا تستره فحسب، بل للتباهي بها .

يجالسه على مائدة طعامه. يصطحبه لأداء الصلاة في مواعيدها .

.. بعد صلاة الفجر، يعودان معا إلى المنزل. يتناولان طعام الفطور معاً في الغرفة التي خصّصها له في منزل يسكنه مع جميع أفراد عائلته.. وكان قد خصص له غرفة في مزرعته أيضاً ليستريح فيها بعد العمل .

.. يقصدان المزرعة سيراً على الأقدام. يلاحظ الإمام - وهما في الطريق- ما لم يتوقّعه. كان ويلان يمسح خلسة دموعاً تغرورق بها عيناه. لم يشأ الإمام أن يسأله عن ذلك حتى وصلا المزرعة. جلسا تحت شجرة توت على كتفي ساقية جافة متقابلين، والإمام يفكّر طويلاً كيف يبدأ الحديث مع ويلان، الذي كان ينتزع الابتسامات بوجهه، كلما التقت عيناهما بالنظر. وضع في حسابه ألاّ يسأله عما يبكيه بشكل مباشر. قال له :

- اليوم ليس لديك أيّ عمل. اليوم استراحة .

- لكنني هنا لأعمل يا سيدي!.

- ومن يعمل عليه أن يستريح.. لقد اشتغلت طوال النهار يوم أمس، أليس كذلك؟ إذاً، هذا النهار عليك أن تستريح .

- أستريح بعد أن أعمل. هذا النهار -وكما ترى- لم أعمل شيئاً؛ ففي المزرعة أشياء كثيرة يجب إنجازها .

- معك النهار بطوله. قال له الإمام، وبدا حائراً كيف يفاتحه بالسؤال الذي يؤرّقه. سأله متردّداً:

- تحيّرني يا ويلان مسائل كثيرة تدور حول ما حدث بين الخلافة في سامراء، وبين زعيمكم عليّ بن محمد، هل تستطيع أن تجيبني عنها؟.

- أستطيع أن أجيبك عن نفسي، وعمّا حدث معي، وحولي، ليس أكثر، فما كان يحدث لا يستطيع أحد الإحاطة به .

- هات ما معك، ولكن أريد وصفاً للأماكن التي كانت ساحة لسنين من القتال أوّلاً، حتى أستطيع أن أتخيّل ما كان يحدث. لأنّنا لم نكن نسمع إلاّ أنّ كلّ ما حدث كان في أرض السواد، في البصرة لا أكثر ..

يبتسم وهو يهزّ رأسه عجباً. يجيبه :

- لأنني تنقلت فيها كلّها تقريباً على مدار سنوات بسبب طبيعة عملي أوّلاً في كسح السباخ، وثانياً كحامل شفهيّ لبريد قادة عليّ صاحبنا.. الحوادث كلها يا سيّدي كانت بين مصبّ دجلة العوراء، وبين واسط. هذه المنطقة الجنوبية من العراق

مليئة بالمستنقعات. القسم الأدنى لدجلة يتصل برافد تقع عليه البصرة بعدد كبير من القنوات، ومنها ما هو صالح لملاحة السفن الكبيرة ..

* * *

((جاء في المدوّنات : وقعت أكثر حوادث الزنج في منطقة البصرة المطلة على شط العرب، وهو ما كان يسمى بدجلة العوراء، وكانت دجلة تصب إلى دجلة البصرة التي تدعى العوراء في أنهار متشعبة ومن عمود مجراها إلى ما كان باقي مائها يجري فيه وهو كبعض تلك الأنهار .وكانت تتفرع من شط العرب قناتان كبيرتان فتكوّنان قناة واحدة تسير نحو الجنوب، ومنها تفرعت ترع كثيرة امتدت في جميع الجهات. أما القناة العليا، وهي الشمالية الشرقية فتسمى نهر معقل نسبة إلى معقل بن يسار المزني الذي يُقال إن النهر أجري على يديه في أيام ولاية يزيد بن أبيه، وسمّي نهر معقل تبركاً لأنه كان من الصحابة «ر» وهناك أنهار كثيرة غيره :الأبلة، الدير، عمرو، القندل، سيحان، المرأة، مبارك،الريان، البيان، ونهر البنات نسبة إلى بنات زياد، نهر المرغاب الذي حفره بشير المرغاب في العهد الأموي. نهر الأمير، وقد حفره المنصور، ووهبه لابنه جعفر. نهر الخصيب وينسب إلى أبي الخصيب مرزوق مولى الخليفة أبي جعفر المنصور)) .

.. أتذكّر يا سيّدي أيضاً أنهاراً غيرها، هي على ما أذكر : ابن سمعان. أبو شاكر. أبو قرة. الأمير. براطق. بردودا. جطي. جوي كور. الحاجز . دجيل. الزبنيري. سنداذان. عمود بن المنجم. الغربي. مازرون. المغيرة. المنذر. منكي. النيل. هطمة. النهروان، ومئات غيرها، بل آلاف، وهنا كان

لطبيعة الأرض، وما فيها من أنهار ومستنقعات ومسطحات مائية ونخيل وحلفاء وقصب، أن ساعدتنا كثيراً في مواجهة جيش ضخم لا يستطيع التنقل سريعاً بما معه من تجهيزات ثقيلة سلاحاً وعدّة وعتاداً. كان سهلاً علينا نصب الكمائن بأعداد قليلة، ومباغتتهم، وإلحاق الخسائر الكبيرة بهم. كانت خبرتنا أكبر بكثير من خبرتهم بحرب الماء. كم كنا نستولي على سفنهم حين يشتدّ عصف الريح .كانوا يلقون أنفسهم بالماء عندما ننقضّ على سفينة ما، ونتبعهم قتلا، وأسراً، وإغراقاً. كنا كما الأشباح نظهر لهم في الأدغال صعبة المسالك، والموحشة.. قاطعه الإمام قائلا:

- مع كل هذا خسرتم هذه الحرب !؟

- نعم خسرناها ويجب أن نخسرها.!.؟

- لا بدّ من سبب يا ويلان ؟!

- السبب واضح يا سيّدي . لقد كنّا وقوداً لها كيما لا نظلّ عبيداً، لكن ذلك لم يحدث. خدعتنا الراية التي انضوينا تحتها. خدعنا ذلك الرجل الذي كانت نهايته بين عبيد، وإماء، وجوارٍ، وليست بيننا في مواضع القتال. الأربعة عشر عاماً التي انقضت في مواجهة جيوش الخليفة بصدورنا العارية، أضافت لقهرنا وذلنا كعبيد، القتل، واستباحة الدماء في حرب لم تكن لنا. شئناها مع من قادنا إليها، ولكنّها كانت وبالاً علينا ..

حاول الإمام أن يقاطعه :

- يكفي إلى هنا. عليك أن تستريح.. (طلب من ويلان ذلك بعد أن رآه

حزيناً فيما هو يتكلم، وشحنة من غضب مكبوت راحت ترتسم على وجهه، وارتعاشة بيمناه التي تساعده على توضيح ما يعبر عنه بإشارة، أو ما شابه ..

أجاب ويلان:

- لكنها استراحة مهزوم يا فضيلة الشيخ !

- على كل حال عليك اليوم أن تستريح. سأدعك وحدك في المزرعة، وسأعود إلى المنزل أنا الآخر يجب أن أستريح ..

* * *

- ١٣ -

كان الاحتفال قد بدأ في جبل بدران. وعرف مرزوق أن الفارس الذي شاهده باكراً، هو وطفة ابنة الشيخ أبي ثامر. ذلك حين قدمت إلى الميدان على فرسها، معصوبة الرأس بمنديل أرجواني، ووشاح معقود في العنق، ملثمة لم تبن سوى عينيها، ثم نازلت اثنين من فرسان العشيرة الشباب، وكانت لها الغلبة، بعد مبارزة حامية أذهلت وطفة فيها الجميع في كرّها وفرّها، وبالطعنات الافتراضية التي كانت تسدّدها لهما، ولعبها بالسيف على نحو لم يسبق له مثيل، وردّ الضربات بترسها.أسقطتهما عن جواديهما تباعاً في أكثر من جولة..

وقفت وطفة في الميدان تراقص فرسها التي كان يملأ صهيلها فضاء المكان، وهي تشير طالبةً أن ينازلها سواهما، بتحدٍ واضح لكلّ الحضور، حتى للضيوف المدعوين، فأثارت بذلك استنكار والدها الشيخ أبي ثامر الذي رغب في سرّه أن يكسر غرورها، بعد أن تجاوزت حدّها. نظر حوله مستعرضاً فرسان عشيرته كأنما يستحثهم على منازلة ابنته، فلم يستجب أحد. يتوقّف عند مرزوق. كان ينظر إليه هو الآخر. لم يصدّق مثل هذا الطلب منه، وهو العبد الذي لم ير نفسه يوماً إلاّ في آخر الدرك الاجتّماعي، بل ولا اعتبار له البتّة في منازل البشر، والأهمّ من ذلك يخشى من عيون الحاكم التي تترصّده، ولا يدري أن عهداً جديداً آلت إليه الشام بعد

اندحار حاكمها ماجور على يد ابن طولون في تلك الأيام القليلة التي انقضت عليه هارباً من خيمة السلطان، ومتوارياً عن الأنظار، ليصبح ذلك الشبح الذي لا يزال حضوره يتوهّج في خيال العامة، وهو يستولد له صوراً كما الأساطير .

ينهض مرزوق من مكانه، ولم يخذل نظرات أبي ثامر الحانية، والمستجدية بآن. يشهر سيفه، ويخرج إلى الميدان. يقف قبالة وطفة بكلّ التي سحرت، وأذلّت، وأدهشت بحضورها الفروسيّ الطاغي. يعيد سيفه إلى غمده لينازلها دون سلاح. تأبى وطفة أن تنازله كأعزل. يبدو أمامها كرمح متحدّياً.

يستثيرها. تلكز الفرس. تكرّ بعيداً. ثم تعود إليه بسرعة البرق، وتنقضّ عليه بضربة من سيفها. يثب في الهواء نحوها منتزعاً السيف من يدها.

تستوقف فرسها ذاهلة مما حدث. بينما الحضور جميعاً يصفقون لمشهد لم يألفوه من قبل. لم يرق لبعضهم حين ألقى إليها السيف بصلف وكبرياء. تلقّته منطوية على تعاليها المهان. يعود إلى مكانه، والأنظار شاخصة إليه. تقابلها الأنظار المتعاطفة وتشيعّها، وهي تنسحب من الميدان خائبة. لم يتحقّق لها ما كانت تصبو إليه .كانت تضمر في داخلها رفض ما يضمره والدها الشيخ في تزويجها، لشاب محدّد من أبناء عمومتها، كان يطريه دائماً بحضورها، أو يلمّح له أكثر من مرة بحضورها معجباً به، وخيّبت أمله حين استفزّت هذا الشاب، الذي خرج من ساحة الميدان مهزوماً مع آخر، أيضاً كان الاحتياطيّ الذي يضمره الشيخ حين سيخيّرها بينهما. حلمها أن

يأتي فارس الحلم على حصان أبيض، وينتشلها من دوّامة تعذّبها، ويذهب بها بعيداً عن هذا الوالد، الذي لا يرى إلاّ برابطة الدم والقربى، دعامة لديمومة مكانته بين العشائر .

خرجت وطفة من الميدان، وهي تندب حظّها في خسارتها لأقوى ورقة كانت تراهن عليها، وجاء هذا العبد الغريب، ليغيّر وجهة الريح..

كانت قد سمعت من بعض النسوة وصفاً لبنيته القويّة، ورأت ما يعزّز هذا الوصف بما حدث معها. استطاع من هذا الباب الموارب أن يستأثر بخيالها إلى حين، بعد أن استوقف جموحها نحوه أنّه عبد، كما أنّه ليس فتى الحلم بسواد بشرته، أما مرزوق - رغم إعجابه بها - فقد ظلّ متمرساً عند حدود عبوديتّه، ولم يشتطّ بخياله أكثر من أنّه استجاب لرغبة أبيها في كسر شوكتها، وردّ جموحها إلى الدائرة التي يشاء الشيخ لابنته عدم الخروج منها..

كان الشابان اللذان خسرا الجولة مع وطفة، قد انسحبا من الميدان، ولم يعودا لمتابعة الاحتفال، والمشاركة فيه. كلّ ما سيتّم به سيكون باهتاً بعد هزيمتهما المرّة، وستكون الأنظار الشامتة موجّهة.نحوهما ينظر أحدهما إلى الآخر بابتسامة صفراء حين مغادرتهما، فيبادله الابتسامة ذاتها، كأنّما يقول له:

- تعادلنا مرتين : الأولى على يد ابنة العم وطفة، والثانية بيد العبد الغريب مرزوق.

.. لم يكن الشيخ آسفاً على هذه النتيجة، بل على العكس، لقد رأى بها النتيجة، التي ستعزّز ما نوى لما سيرمي إليه في القادم من الأيام، أن يكون مرزوق حجر الرحى بالنسبة إليه.

لم يعد الاحتفال يعني لوطفة بشيء. ربطت فرسها في مربطها المعتاد. سارت حائرة بين خيام العائلة. لم يتسع هذا الفضاء المكانيّ لحيرتها. صخب المحتفلين يزيد من توتّرها، وكأنّها يناصب كيانها العداء. تبلبلت أفكارها على غير مستقر. تفتح باباً لفكرة ما، فيقودها التشوّش إلى طريق مسدود، ليس في نهايته سوى العبد مرزوق : سمرة داكنة. عينان متوقدتان بالكبرياء. أعزل إلاّ من قبضة فولاذية، لكنه يجرّ قيداً خفياً لعبوديّة سمعت الكثير عن حكايات إذلال عبيدها، وقتلهم، أو تعذيبهم، أو الرهان عليهم في انتصارات يجني غلالها الأوغاد.

عازف المزمار، وقارع الطبل يتنقلان، في غمرة الابتهاج من راقص إلى آخر، في حلقة الدبكة التي تتّسع باستقطابها المشاركين من مضيفين، وضيوف. تنسلّ أم ثامر قلقة على ابنتها، لتجدها مستندة إلى زاوية خيمة تصغي إلى لا شيء في هذا الكون، بل لما يدوّي في رأسها من حزن مشوب بالغضب ..

راحت الأم تعنّفها على عدم مشاركتها بالاحتفال، على الأقلّ أنّ هذا الفرح يخصّها، باعتباره أعزّ مناسبة عند أخيها ووالدها. تظلّ وطفة على صمتها. ترى الأم أنّ ملامحها لم تتبدّل. تسترضيها مواسية . تنتقي من الكلمات ما لا ينفرها، أو يجرحها. تيأس منها. تخاطبها بقسوة :

- أفرطنا في دلالك، فأفرطت في عنفوانك. سأطلب من والدك أن يؤدّبك. كنت أراك نجمة في السماء. الآن أنت في نظري مثل عبد!! .

بعد العبارة الأخيرة (عبد) تنتفض كطائر ذبح للتوّ، قائلة لها:

- ليتني كذلك يا أمّاه، لما كنت رأيتني على هذه الحال. .ألم تكوني حاضرة حين أذلّنا العبد ؟!

(لم تنتبه لفيضة (زرقاء السوح)، وهي قادمة من خلف الخيمة.)

.. فوجئتا بها . دنت منهما قائلة :

- كيف تتركان الناس، والفرح لكما ؟!

تستطيع فيضة أن تستدرجهما، وتعرف سرّ انزوائهما. تطلب منهما الموافقة على إبداء رأيها بهذه المسألة المحيّرة. تلمس منهما الإيجاب. تقول :

- الأمر يعنينا جميعاً يا أم ثامر. ثم راحت تخاطب وطفة :

- تعرضت العشيرة لغزوات كثيرة في الماضي، وذاقت الكثير من الويلات، وكانت تخسر من شبابها، ومن حلالها(مواشيها) الكثير. كان يصبر والدك على الضيم. كان مكرهاً في السنوات الأخيرة على المهادنة، ريثما يشتدّ عضد العشيرة، وجاء تكليفها من قبل الحاكم بحماية حجّاج بيت الله الحرام، في الوقت المناسب ..

تتابع :

.. أما بيت القصيد يا وطفة، وأظن أمّك توافقني على ما سأقول : كلنا رأينا كيف لم تنهزمي، أمام أقوى فارسين في العشيرة.. لكن، حتى لا يقال يا وطفة هذه العشيرة، سيّدة فرسانها فتاة، وتُؤخذ في وقت ما، وتُغزى، وتخسر، فتُخزى، وتصير مضرب عصا في العشائر، فتكليف الحاكم لن يدوم حتماً. بعض الحكام يغويهم الضعيف لاستغلاله بقوّة يستمدّها من

مهمته، ويستقوي بسيف السلطان الذي يحميه عند الخطر. .لكلّ ذلك يا وطفة، يرى والدك بهذا العبد سنداً له، وربما سيجمع حوله الكثير من العبيد، كي تصبح العشيرة مهابة من الطامحين لإذلالها..

تلاحظ فيضة بريق السرور يلمع في عيني وطفة، وهي تشيح اللثام عن وجهها. تطوّق بذراعها خصر وطفة قائلة:

- هيّا إلى الاحتفال. .وإن استطعت أن تجرّي ذاك العبد جرّاً كي تراقصيه في حلقة الرقص، فلا تتواني ..

تنصاع وطفة لها جسداً، وصوت روحها يقول :

- محال أن أفعل ذلك. لن أذلّ أمامه مرّة أخرى. حتى ولو أطعتها، وفعلت ؛ ربما يفكّر أنّني أميل إليه بعواطفي. قد يصدّق لو أخطأ حدسه ذلك، فأكون قيداً آخر لهذا المغلول المحروم من متع الحياة، والنساء بخاصة .

تعلو وجهها ابتسامة باهتة. تتساءل في سرها :

- لماذا أحمّل الأمور أكثر مما تستحق ؟ هل أفتح قلبي لفيضة، وأناقشها بما أفكر فيه ؟ ربما تقول فيضة لي : صرت تتكلمين مثل الكبار، أو تسخر منّي، أو ربما ستعنّفني ؛ فما في رأسها حول العشيرة، تماماً كما في رأس والدي . تفكّر مثله، ومثل رجالها الكبار في شؤونها ..

تعود فيضة مصطحبة وطفة إلى ساحة الاحتفال. تتبعهما أم ثامر فرحة باقتناع ابنتها من فيضة، ومعالجة أمرها قبل أن يعرف أبو ثامر، لكن وطفة اندسّت بين المتفرّجين. لم تشارك بحلقة الدبكة التي انعقدت للتوّ. بدأ

عازف المزمار يبعث براقصيها، وراقصاتها الحماس، وهو يتنقّل أمامهم بحركات بهلوانية. تختلس وطفة النظر من مرزوق، وهو يقف مع المتفرّجين، في الجهة المقابلة بين السرادق، الذي يضمّ وجهاء عشائر أخرى، وبين منصة تتوسط خيمة صغيرة مكشوفة نصبت خصيصاً للشيخ أبي ثامر. مرزوق أيضاً كانت عيناه تتابعان وطفة، وعبثاً يخمّن أحدهما ما يدور في رأس الآخر...

يصدق حدس فيضة بشأن العبيد، الذين هيّأ أبو ثامر لهم أسباب الحضور، والفرجة، والمشاركة في الفرح.

يهمس أبو ثامر بأذن خادمه أن يذهب إليهم، ويستحثهم فرداً فرداً على الرقص الخاص بهم، بعد أن شعروا بالأمان، وألفة الناس لهم.

كان أول من قصده الخادم منهم العبد مرزوق، الذي استجاب لهذا الطلب، ولم يتردّد ؛ فهو ينتظر ذلك على أحرّ من الجمر.

يدخل مرزوق الساحة التي راحت تخلو له. يتبعه العبيد الآخرون. مع أول زغرودة، وأول صوت مزمار، وإيقاع على الطبل في صباح الاحتفال. كل شيء فيهم يتحرّر شيئاً فشيئاً بانتظار هذه اللحظة..

العبد، والزنجي العبد بخاصة، يحرّره الإيقاع من ربقة العبودية، ولو إلى حين. الزنجي العبد يأخذه الإيقاع، حتى وإن كانت الأغلال في عنقه، وقدميه، ويديه إلى عوالم من البهجة، ومسرات تنعشه من الداخل لا حدود لها.. يحرّر روحه من ربقة عبوديته التي يرزح فيها منذ قرون. الإيقاع وحده يكسر ما في داخله من جوع، وحرمان، وقهر، ويأس، وأسى.. الإيقاع

وحده يمنح جسده أن يتشكل على غرار قارته السمراء، التي تشتعل تحت شمس استوائية، فيهمهم مع وحوش غاباتها، ويتنفّس مع عشبها، وفيلتها، حيث الآلام بكل أشكالها تتراكم، وتتكوّم، في صدور أبنائها، وفي أجساد ضامرة هزلها الجوع. تواطأت فيها الطبيعة، مع اللصوص الأغراب، لتغزو الهموم بكل ألوانها عقولهم، وتصبح الحياة بكلّ تجلياتها، لا معنى لها، وتذوب عند خواء البطون، لتصبح راية الموت،هي الأعلى فوق الشروخ، فتخضع عندها كلّ قوانين الأرض، والسماء، لقانون الجوع، وتغدو وجبة من اللحم البشري، معادلا سماوياً، لمائدة السيد المسيح، أو لمائدة آلهة الأولمب، أو لملوك الزمن القديم..

كانت رائحة اللحم الذي ينضج في أواني الطبخ النحاسية الكبيرة، على نار هادئة، تعبق مرسلة مع هواء الصيف الساخن، إلى المحتفلين، منبئة بأن جاهزيّة الطعام قد قاربت. الدخان المنعقد، والمتصاعد فوقها يُرى من مسافات بعيدة. اعتاد أبو ثامر ألاّ يقدّم طعاماً لضيوفه، قبل أن ترصد زرقاء السوح حرم العشيرة، وإلى آخر ما تراه عيناها الحادتان.. يجب ألاّ يمرّ أيّ عابر سبيل، دون أن يأكل من زاده، حتى ولو كان عدواً.. تصعد الزرقاء فيضة مكاناً مرتفعاً، وتعود مسرعة، لتبلغه ما رأت في البعيد البعيد. قالت لأبي ثامر:

- أرى أربعة قادمين من جهة الجنوب. أظنّهم قاصدين، إمّا حرمون، أو فلسطين، أو الشام ؛ وأظنّهم عبيداً يا شيخ. صدور بعضهم، تلمع تحت الشمس على سواد، ورؤوسهم بشعر خفيف..

- أدام الله لعينيك هذا النظر، وبصيرتك يا فيضة. .قولي لأيّ خيالٍ أن يحضرهم إلى هنا ، فالزاد صار جاهزاً ..

كانت وفود العشائر، قد غادرت جبل بدران بمن تصطحب من مرافقين، وعبيد، ووُدّعت بمثل ما استُقبلت به من حفاوة، وتكريم .

يطلب أبو ثامر هؤلاء العابرين الأربعة إلى ربعته، وكان قد طلب مرزوق، وودّ سالك أن يلحقا به إلى الربعة. يقدّم لهم الماء. يرحّب بهم مجدّداً. يتعرّف إليهم فرداً فرداً، وكلّ منهم يعرّف عن نفسه:

- أنا عبدك سيدوك. قال الأول.

وتباعاً قال الآخرون:

- وأنا عبدك صفوان.

- وأنا عبدك عاصم.

- وأنا عبدك سيّار.

قال لهم:

- كلنا عبيد الله. أنتم ضيوفي الليلة، والصباح رباح.. ثم أمر خادمه :

- فليجهّزوا لهم الماء للاغتسال، وقل لأم ثامر أن تجهز لهم ثياباً، وأحذية. (يغادر الخادم المكان).. يتابع مشيراً لهم، ولمرزوق، وودّ سالك:

- يمكنكم بعد أن تغتسلوا، وتستريحوا معاً، وتتعارفوا، أن تناموا في خيمة واحدة، عندما يحين موعد النوم..

يقضي أبو ثامر ردحاً من الليل، وهو يفكّر إلى أين سيرسل هؤلاء

العبيد، وتغالبه فكرة استبقائهم لديه، وضمّهم إلى عشيرته. يفكّر بحجم المسؤولية، التي لا طاقة له عليها، في الوقت الذي لا يعرف عنهم شيئاً، كما أنّه رحب بهم كضيوف، ولا يجوز استجوابهم .

تلاحظ أم ثامر قلقه. تعرف أنّ ما يقلقه يتعلّق بهؤلاء الأغراب. تتجاهل ما حدست به. تسأله : لماذا لم تنم حتى الآن ؟!

- إنّي قلق، ولا أعرف ما سأفعل بشأن ضيوفي!

- أرى أن توزّعهم ليساعدوا رعاة العشيرة في سهل حوران، أو ترسلهم إلى أخوالك في بوادي الشمال. هناك لا ضير عليهم ..

- ما رأيك لو أرسلهم إلى الحاكمية في الشام، وهناك يتدبّرون أمرهم؟!

- ربما ألحقوا بهم الأذى، وتكون أنت السبب!.

- اطمئني. سيتلقفونهم كما تتلقّى الأرض العطشى المطر. .تأكّدي أن ابن طولون، سيضمّهم إلى جيشه؛ فنكون بذلك قد ضربنا عصفورين بحجر واحد!..

- لماذا لا تضمّهم للعشيرة، وتعزّزها بهم. أرسلهم إلى المراعي، ثم استعد منهم من تطمئن إليه لخدمتك..

يبتسم لهذا الرأي: على بركة الله..

صباحاً، كان سيدوك، وسيّار، بعهدة أحد خيّالة العشيرة في الطريق إلى الشمال؛ وصفوان، وعاصم مع خيّال آخر في الطريق إلى سهل حوران، للانضمام إلى رعاة العشيرة.

* * *

-١٤-

يصل ابن بلدة كوكب المرسل من قبل خادم الدير إلى مزرعة ميخائيل الجواهرجي في بلاس القدم الشريف، مصطحباً العبد (ودّ القوع) ليسلمه له .

يستقبلهما في المزرعة وكيله. يسلّم ودّ القوع، ويغادر ابن كوكب المكان عائداً إلى بلدته. لم يسأل وكيل المزرعة العبد شيئاً. إنّما اصطحبه إلى غرفة مبنيّة من الطوب. مسقوفة بأخشاب حور. مغطاة بورق شجر، تعلوها طبقة من الطين الجافّ. بابها خشبيّ عتيق كله شقوق. نافذة واحدة لها مفتوحة ليس لها درفات تمنع دخول الغبار، أو الحشرات. اكتفى بأن قال له:

- هذه غرفتك. غداً يحضر السيد ميخائيل، لأعرف ماذا سأفعل بشأنك !.

ظلّ ودّ القوع ساكتاً، بينما غادر الوكيل المكان، بعد أن تملاّه من فروة رأسه، وحتى كعبيّ قدميه، بنظرة لا تخلو من الإعجاب. يشيّعه العبد بنظرة طويلة هو الآخر، لا تخلو من الإضمار بشيء، تفصح عنه هزّات رأسه المنطوية على وعيدٍ ما !.

كان ابن بلدة كوكب الأخير، المرسل من قبل خادم الدير، قد وصل مصطحباً العبد قشلق إلى حديثة الضاحية، والتقيا عندما أقبلا عليها عند الطرف الفاصل بين الأراضي السقي، والأراضي البعليّة، بمزارع يحرث حقله

البور. سأله ابن كوكب عن مزرعة ابن شاكر، فأشار له بيده إلى جهة الشمال الشرقي قائلاً:

- انظر إلى شجرة الكينا التي يبدأ منها صفّ شجر السرو. ذلك القصر الذي يظهر من خلفها، هو قصره.

.. في المزرعة؛ يسلم قشلق، لوكيلها، ثم يعود أدراجه إلى بلدته كوكب..

ليلاً، يعود وكيل مزرعة الجواهرجي في بلاس، ويرافقه تاجر حلبيّ. الوكيل يمتطي بغلة قبرصيّة، كان قد ذهب عليها إلى الشام، لشراء بعض الحاجيات للمزرعة، والتاجر يمتطي جواداً أصيلاً راح يشقّ الليل بصهيله.

يتوقّفان عند غرفة ودّ القوع داخل المزرعة. يخرج ودّ من الغرفة مذعوراً مستغرباً حضورهما في هذا الوقت من الليل..

كان البدر متألقاً في كبد السماء، يبثّ نوره في فضاءٍ صافٍ، وينير الكون، مما أتاح للتاجر أن يدقّق بالتفاصيل التي يتحلّى بها جسم ودّ القوع، والوكيل يرقبه مقدّراً مدى إعجاب التاجر به، ليصطاده بثمن مرتفع، والتاجر هو الآخر يتظاهر بحنكة خفيّة أنّه غير مبالٍ بهذه الصفقة:

- إيه.كم تريد ثمن هذه (الكركوبة) قال التاجر للوكيل أبي دجا، وهو يشير للعبد ودّ بقرف..

لم يفاجئ هذا الوصف أبا دجا، من تاجر عريق، فأجابه بخبث:

- أرضى أن أبادله بهذا (الكديش)! قال له أبو دجا ذلك، وهو يشير إلى حصان التاجر..

قال التاجر في سرّه متسائلا بينه وبين نفسه، حين تأكّد من حدسه الذي يرى فيه، أن هذا الوكيل سيبيع العبد احتيالا، وبعيداً عن عين صديقه ميخائيل الجواهرجي. قال له :

- أعتقد (أنا وأنت) لن نتفق. الأفضّل أن أشتريه من صاحبه غداً، وأتملّكه منه، بقلم، وورقة، حتى لا أتعرض للمساءلة من أحد !

- أقدّمه لك مجاناً، ولا أدعك تذهب فارغ الكفّ يا رجل ! قال الوكيل .

- إذن ؛ كلمة وردُّ غطائها. .سأعطيك خمسة دراهم. قال التاجر .

- يستحق مائة درهم يا رجل. إنّك لم تدفع ثمن ثيابه! أجابه أبو دجا.

- صدّقني، لقد اشتريت مائة عبد بمائة درهم ذات يوم. قال التاجر .

- ذلك الوقت قد ولّى.. أكثرهم صار سماداً للأرض هذه الأيام . قال أبو دجا.

قال التاجر، وهو يخرج كيس نقوده من عبّه :

- بعشرة لا فوقها ولا تحتها. هي كلمة أخيرة. ماذا قلت ؟

- ها تها، ورزقي على الله. خذ بضاعتك مبروكة عليك .

كان البدر يؤذن بالمغيب.. وما أن وصل التاجر إلى الخان حتى غاب تماماً، ولم تعد في الفضاء نقطة ضوء، عدا الضوء الذي تعد الشمس به هذا الكون بشروقها الخجول، في فجر سيأتي بعد ليل طويل..

* * *

يستلم شاكر العبد قشلق من ابن كوكب الأخير، بعد ظهيرة النهار، ثم يعود من حديثة الضاحية مباشرة إلى خادم الدير، حاملاً له تحيّة إبن شاكر، وتحية الراهب نايا، الذي كان يتجوّل بين الحقول مع صديق له. يخبره عن المهمّة التي كلفه بها خادم دير كوكب، وعن استقبال ابن شاكر لقشلق الذي اصطحبه ليكون واحداً من عمال مزرعته، وكيف على الفور وبحضوره، خصّص له غرفة لا ينقصها شيء. كلّ شيء فيها جديد: البساط. الفراش. الأغطية. غرفة مأمونة من دخول الحشرات، أو الزواحف إليها. بابها من خشب قويّ. لها نافذتان واسعتان؛ وبمثل هذا التفصيل المملّ، راح يصف له ما رأى في طريق الذهاب والإياب. يقول الراهب، وهو يشير له أن يتوقف عن الكلام:

- المهم أنّ شاكر استلم هذا العبد. يكفي إلى هنا، ثم سأله إن كانت حصّة بلدة كوكب من مياه نهر الأعوج، تكفي حقول المزارعين، أو أنّ هناك من يعتدي عليها من ملاّك المناطق الغربية، التي يمرّ منها النهر.

يجيب ابن كوكب:

- ثمة مالك واحد يكسر النهر عند مزرعته، ولم يستطع السيطرة على الفتحة الكبيرة، التي أحدثها هذا الكسر. عاقبه الربّ، وخرّب له مساحة واسعة، كانت مزروعة قمحاً سنابله في أول النضج... وراح يحدّثه عن تعدّيات مماثلة، حدثت في بلدة كوكب ذاتها قبل عامين، وكيف كان الربّ سريع العقاب.!!!

يقول له الراهب محاولا التملّص من فضوله:

- أعرف كلّ ذلك. عليك أن تصل قبل حلول الظلام إلى بيتك، حتى لا تضيّع الطريق، أو تظهر لك الأشباح!.

سأله الرجل:

- متى تظهر هذه الأشباح عادة ؟

أجابه الراهب:

- أنا لم أرها، ولكن الجميع هنا يقولون :

- إنّها تظهر لهم دائماً في غسق الليل!

يغادر الرجل المكان، وقد بدا الخوف، والتوجّس على وجهه، رغم محاولته المكابرة على إخفائهما..

كان شبح شكاكرين (مرزوق) لا يزال حيّاً في خيال الناس. يتكاثر بأشكال شتى. يستمدّ الهيئات التي يتجسّد فيها، ممّا تختزنه ذاكرة الناس من حكايات...

الراهب نايا، وحده بين كلّ أهل المنطقة، يشكّك بوجود هذه الأشباح، ولكنه لا يستطيع أن يفصح عمّا في داخله لأحد. كان يتوقف معهم عند هذه القناعة الجديدة التي دخلت عقولهم، تحت اعتبارات شتّى، أولّها الخوف المترسّب في أعماقه ؛ وعلى هذا الأساس يلوذ بالصمت، أو يساير، ثم ينكفئ على نفسه، ويلوك ما كان قد سمعه، ولا يستطيع أن يهضمه.. قال صاحبه بعد أن ودّعهما ابن بلدة كوكب، محاولا تأكيد ما يقول:

- أنا بعينيّ هاتين رأيت الشبح!

- هل تصف لي ما رأيت ؟ سأله الراهب:

- رأيت شكلاً على هيئة الوطواط، ليست له يدان كأيدي البشر، إنّما جناحان قصيران يساعدانه على السير على الأرض، بخطوات واسعة، وسريعة، لتراه كما لو انّه يطير!.

كان الراهب يتابع حركات يديه التعبيرية باستغراب. يجيبه مشكّكاً :

- لكنني سمعت غير هذا الوصف له! ؟.

- هذا يعني أنّك لم تره. .قال الرجل.

- ولا أريد أن أراه ! أجابه الراهب.

- فعلا إنّه مخيف!!.

- ليس لهذا السبب، لا أريد رؤيته يا صاحبي. .قال الراهب.

- لماذا إذاً ؟ سأله الرجل .

- حتى لا يقال أيّ شيء عن لساني ؛ فقد يكون وهماً، ويصدّقه الناس. تعوّدت ألاّ أرى الأشياء، إلاّ على حقيقتها، بل إدراكها بكلّ حواسي.. أجابه الراهب.. أجابه، وتساؤلات كثيرة تدور في خلده، حول مثل هذه القناعات التي تتغذّى على أوهام باطلة، تزيد في بلبلة العقول، وتأخذ الناس في طريق الجهل، ونكران حقائق تنقذهم من الشرور .

* * *

- ١٥ -

كان مرزوق، هذا الذي جعل منه خيال الناس شبحاً، وألصقت به تجارة الرقيق اسم شكاكرين بدلاً من اسمه الحقيقي، قد دخل إلى خيمته مساءً مع رفيقه ودّ سالك، بعد انفراد الشيخ أبي ثامر بهما، وإصراره على تناولهما العشاء معه، واستدراج الشيخ لهما لمعرفة الحقيقة كاملة عنهما، ولكنهما لم يبوحا له إلا بشذرات، ممّا جرى معهما، أو تعرّضا له من أحداث..

أشعل مرزوق فانوس الخيمة، وتمدّد الاثنان على البساط في أرضيّتها، وجهاهما متقابلان. يحدّق أحدهما إلى الآخر معجباً بما كان قد اجتزأه من حياته للشيخ. .يسأله مرزوق:

- ما الذي أخفيته عن الشيخ يا ودّ سالك ؟ أعتقد أنك أخفيت الكثير الكثير، فهل تعتقد بأنه كان مقتنعاً بما قلت ؟

- طبعاً. أنت لم تنتبه له، فحين كان الكلام لك بدا شارداً تماماً، كأنّما لا يعنيه ما تقوله بشيء، أما حين بدأ دوري بالكلام ؛ ألم تلاحظ أنّه عدّل من جلسته، وصار كلّه آذان صاغية لي، وسبحته بين أصابعه تتتالى حبّاتها، مع كلّ كلمة أقولها، كما لو كانت عدّاداً لهذه الكلمات، مما أوحى لي بأنّه يضمر ما صعب عليّ التكهّن به في تلك اللحظات. حتى

الآن لم أستطع تفسير ذلك، ولهذا لجأت إلى اختصار الحديث، والأفكار، وانتقاء الكلمات التي لا تشي بارتباكي في حضرته، فأبدو غير صادق بنظره ..

بدا مرزوق مذهولاً، ومشوّشاً مما يسمعه من ودّ سالك. يستعيد تلك الجلسة الطويلة بدقائقها. يفكّر بكلّ مجرياتها. يفكّر بما كان يدور برأس أبي ثامر. يتذكّر أنه قاطع ودّ سالك ، وهو يسرد حديثه بالسؤال التالي :

- أيّ طريق تتوقّع أن يكون الفارّون من العبيد قد سلكوها، بأعداد أوفر من سواها !؟

يتوقّف مرزوق عند هذا السؤال. يسأل ودّ سالك، عمّا يكون قد رمى له الشيخ به، حتى سأله مثل هذا السؤال، فأجابه بحسن نيّة :

- ربما ليكون عوناً لهم!

لم يجبه مرزوق، لكنّه في سرّه، فسّر الأمر على عدّة وجوه :

- الأول، هو دعم عشيرته، برجال يواجه بهم عشائر له معها ثارات قديمة ؛ فطبع العشائر، ألاّ تنام على ثأر لم يتحقق، وعلى ضيم لم يُرّد !.

- الثاني، هو جمع هؤلاء العبيد، وبيعهم للتجّار .

- الثالث، هو تعزيز طريق الحج، لأطول مسافة ممكنة في الأرض الشامية، التي باتت تحت حكم ابن طولون، الممتنع عن الانصياع للخلافة العباسيّة، فيكون هؤلاء العبيد شوكة في خاصرتها الشاميّة، كما هم شوكة في خاصرتها البصراويّة، فيعزّز بذلك صولته العشائريّة،

وتكون له اليد الطولى، في المراعي، وفي المياه، بالإضافة لبسط يده على الضعيفة من العشائر..

البدويّ لا ينظر بمرآة. البدوي مرآته الصحراء، وما فيها من كلأ، ومياه، ووحوش، وغزلان، وطيور .

- الرابع، هو الالتفاف حول هؤلاء العبيد، والمساومة عليهم، بتسليمهم إلى مركز الخلافة، أو بيعهم إلى الملاّك الجدد في سواد البصرة، عن طريق العشائر الموالية للخليفة، وهذا الاحتمال يستبعده تماماً ؛ فالشيخ أبو ثامر كأيّ زعيم عشيرة لا يرى أبعد من الأفق الذي ينبسط أمام عينيه، وأمام أناه التي لا يكسرها غير السراب، الذي لا يبادله ثقة، أو طمأنينة، ولم يقدّم لأبناء الصحراء، غير الكذب، والخداع ..

لم يتوصّل مرزوق إلى احتمال، أو إجابة على تساؤلاته المتلاحقة..

يسأل ودّ سالك، لعلّه يصل إلى إجابة حاسمة:

- ما الذي لم تقله للشيخ يا ودّ، ولماذا ؟

- ما لمسته من صاحب الزنج عليّ بن محمد، وهذا ما لم أقله لك بعد!؟

- مثل ؟ يسأله مرزوق..

- كان على هذا الرجل أن يستمر بثورته مثلما بدأ..

يقاطعه مرزوق:

- كيف بدأ، وكيف استمر، هذا ما لم أفهمه ؟!

- خرج للناس كما لو كان نبيّاً، ونحن العبيد بقينا عبيداً في نظره، ولم

يعاملنا إلاّ كعبيد ؛ فالخلافة من قبله، جعلت منّا رأس حربة في الحرب عليه، وهو جعل منّا رأس حربة عليهم. لم نكن بين نارين فحسب، بل كنّا النار التي تأكل نفسها ؛ بالنسبة لي يا مرزوق لم يكن لي أيّ أمل بالنصر بعد كل ما كنت أشاهده، إذ لا يمكن للعبيد الذين يحاربون كعبيد أن ينتصروا **!.**

يقاطعه مرزوق ليكفّ عن الكلام :

- أراك متعباً يا ودّ. عليك أن تستريح الآن، وتنام إن شئت.

- أستريح ؟ أجل سأستريح، لكن استراحة مهزوم. أنت بإمكانك أن تستريح ..

- أو تظنّ أنّ المنتصر يستريح يا ودّ ؟ لا أعتقد ذلك .

- لم أقل ذلك يا مرزوق. لقد كان البلاء الأعظم يحلّ علينا، بعد أن كنّا ننتصر في أيّة معركة نخوضها، سواء حين كنّا نقاتل إلى جانب العباسيين، أم حين انضوينا تحت راية صاحبنا، الذي غدا ــ باسمنا، وعلى دمَائنا- مهديّاً ؛ لا بل مهديّ المسلمين بكلّ أطيافهم...

يقاطعه مرزوق مستغرباً، ومشكّكاً:

- أمعقول هذا ؟ أعتقد أنك تبالغ بما تقول**!!**

يغضب ودّ سالك، ويجيبه منفعلا:

- بيديّ هاتين نقلت له النقود، التي سكّها باسمه في هذا المنحى، وكادت تصبح قيد التداول، ليفرضها في التعامل، ضمن حدود مملكته، وخارجها، لولا أن أطيح به، وبنا أيضاً.. ليتك رأيت هذه النقود. لقد نقش عليها:

«المهديّ علي بن محمد»..

الأيّام ستجعلك تصدّق ما أقول، حين ترى أحدنا محتفظاً بقطعة منها.. المهمّ يا مرزوق، أننّا بعد كلّ معركة ننتصر بها، كان قائدها يجمع المنتصرين الناجين، لا لكي يستريحوا، بل ليُسخّروا في بناء قصور القادة، أوفي كسح السباخ، أو للعمل لدى التمّارين، والدبّاسين، أو بشقّ الترع لريّ أراضي الملاّكين، ذوي المكانة عند علي بن محمد..

اسمع يا مرزوق ؛ بالنسبة لي أنا بالذات، هذا العبد الذي أمامك، بيديّ هاتين شاركت في بناء قصر ابنه أنكلاي في (المختارة) العاصمة التي اختار لها المكان المحصّن بالأنهار، وأطلق عليها هذا الإسم ؛ مع العشرات من أمثالي، وقبل بناء هذا القصر، بنينا له قصراً، بعد انتصارات متتالية، على جيوش العباسيين.. كما بنينا قصوراً، ودوراً لقوّاده في هذه المدينة : قصراً ل(بهبوذ بن عبد الوهاب)، يتكوّن من عدة دور، وأبنيه إضافيّة، وقصراً ل (الكرنبائي)، مقابل قصر زعيمنا عليّ، يعزّ على الوصف، لما يتميزّ به من فخامة، وتحصين، ورواشين، ونوافذ تطلّ على الخارج، من جميع الجهات. يتوسّطه فناء واسع على طراز البيوت الشرقية، ومدخله الرئيسي يطلّ على ميدان فسيح...

لا تتثاءب يا مرزوق، لمّا أنتهِ من كلامي بعد..

بنينا دوراً ل (المهلّبي)، و(مصلح)، و (أبي عيسى) و (الجبائي)..

أما أجمل ما بنته أيدينا يا مرزوق من قصور، بل وأشدّها تحصيناً، هو قصر زعيمنا الذي كان دار أمارة في الوقت نفسه، يطلّ على نهري شطّ

العرب، وأبي الخصيب معاً، حتى أن بابه نقلناه، من حصن أروخ في البصرة، كما بنينا له مرسى لرسوّ السفن، وحصّناه بسور عال يحميه من الهجمات، ونصبنا فوقه المجانيق، والمقاليع، والعرّادات، وجعلنا له ستارات حصينة تظلل أبوابه، وحفرنا خندقاً حوله، وسوّرناه بسورين فيهما طلاقات، لرماة النشّاب، والقسّي.. بنينا أيضاً سوراً حصيناً لعاصمته المختارة، وسوراً آخر داخله من جميع الجهات، حتى من الجهة المطلة على شطّ العرب.

أضف لهذا، القنطرة التي بنيناها من خشب الساج، على نهر أبي الخصيب، وأقمنا في وجهها سدّاً في الماء، لمنع مرور سفن العباسيّين، أما كيف استطاع جيش الموفق اختراق كلّ هذه التحصينات، وهدم كل هذه القصور، وسقوط هذه المدينة كمعقل أخير؛ فالحديث يطول.

فاتني يا مرزوق أن أذكر لك ما أشدناه، من جوامع، ودواوين، وسجون، وما شققنا من شوارع، وساحات.

انتبه لي يا مرزوق ؛ سأحدّثك عن الوجه الآخر لجانب من حياتنا : عن صور الدمار، والقتل، والنهب، مما فعلناه نحن، ومّما فعلوه بنا. صور لا تبارح مخيّلتي. السؤال الذي تختلط الإجابة عليه في رأسي : لماذا كنّا ننتصر في كلّ معاركنا حين بدأنا، ثم لماذا نخسر في معركتنا الأخيرة، ويُقضى علينا؟ .. لا أعتقد أنّ وعود زعيمنا لنا بالحريّة، وبحبوحة العيش كانت هاجساً لديه، أو لدى قوّاده يا مرزوق ؛ فحين أستعيد ما كان يحدث أصاب بخيبة أمل، لقد عشنا أجمل أيّامنا على حلم كان وهماً، وكان سراباً ..

كانت عيون مرزوق، ووّد سالك، مع نور الفانوس، وهو يتراقص على سطح الخيمة من الداخل، وكأنّ الليل الطويل يراهن على من تغمض عيناه منهما أوّلا، ويغطّ بالنوم : ودّ سالك، الذي شارك، وشهد انتصارات الزنج على مدى أربعة عشر عاماً، والآن يجترّ مرارة الانكسار..

أما مرزوق، الذي لم يخض أية معركة منها، ولم يحقق إلاّ الانتصارات الفردية كعبد لم يستسلم لمصيره، ولم يهزم بها أبدا..

أسئلة كثيرة تدور في رأس ودّ سالك. يفتح عليه وجود مرزوق جراح الماضي، فراحت تنزّ .تسلّمه للقلق، والتوتّر. بدا مرهقاً، مشوّشاً . يجافيه النوم، بعد أن امتثل الماضي كله دفعة واحدة في كيانه ..

يتساءل في سره:

- لماذا خلد قادة الزنج إلى الكسل !؟

- هل كانوا يظنّون أن المعركة انتهت؟

- لماذا كانوا قصيري النظر ؟

- لماذا اعتقدوا أنّ الخلافة، وأن إمبراطورية وصلت فتوحاتها حدود الخافقين.. ولا يزال أيّ خليفة يعتلي عرش أمجاد لا تموت، مهما كان ضعيفاً؟..

- لماذا قاده الحلم الذي صدّقه كلّ من في عنقه قيد، حتى ولو كان خارج حدود سواد العراق الضيّقة، بدّلوا جلود القتال في غابات النخيل، والأهوار، والعراء، بالقصور؟.. وبدّلوا الجوع الضاري، وآلام الفقراء، بالترف والنعمة ؟!!.

- لماذا طغت أنانيّتهم على أحلامنا؟ آخ. آخ..!

بدا مرزوق مغمض العينين، ولكنّه لم يستطع النوم. تساؤلاته هو الآخر، أو تحليلاته، كانت تصل به إلى طرق مسدودة، ثمة أمور كثيرة ناقصة تركت الكثير من الفراغ في المشهد الذي يتخيّله، فما عرفه من ودّ سالك، أو ما مرّ به من أحداث، كان جزءاً يسيراً من الحكاية. لا تزال في داخله قوة كامنة متوثبة لأيّما فعل يحقّق وجوده، وينتزع به حريّته من أيّ قيد. ماذا لو يبوح لودّ سالك بكل ما بداخله؟.. لكن كل شيء لا يزال في دائرة من غموض. كلّ شيء ملتبس؛ فقصة ودّ، واحدة من آلاف يمكن أن تُروى، وقد لا تكون كلها صادقة، أو تُروى وفق أهواء لا يوحّدها هدف.. وستروى من مهزومين مشتّتين في النهاية. ماذا لو استسلم هو الآخر، ورهن نفسه لأبي ثامر الذي يحتضنه الآن؟.. لكن هذا الرجل لا يصبو من الدنيا، سوى ما يراه منها، وما تراه عيناه من أفق يحيط به، وفي دائرته من عشائر: شيوخها. ثاراتها. حسابات غزوها فيما بينها. لا يرى ما يربطه بالقريب البعيد أخوة في البوادي الأخرى. الواحات. الأهوار. أخوة في الدين الذي جمع بين أبيض، وأسود. بين عرب، وعجم؛ فأيّ أمل سوف يرجوه منه، إذا ما قال له:

- إنّي عبدك المطيع.

سيضحك في داخله، ويقول:

- لقد جاءني من غامض علمه، سيف لعشيرتي، فهل أرفضه ؟.

- هذا ما لمسته منذ لحظة وقوفي بين يديه !.

.. طلع الفجر، ومرزوق لم ينم..

.. أبو ثامر ــ تلك الليلة ــ لم ينم أيضاً. استعاد حساباته كلها من جديد، وأعاد تكرارها مرّات، ومرّات. كانت أبرز خلاصة فيها، توقّفه عند أضيق حلقاتها، إذ كان يسأل نفسه كلّ مرة :

- ماذا لو أزوّج وطفة لمرزوق ؟!

.. عند حسابات الربح والخسارة تعادلت لديه الكفّتان، ولا بدّ من ترجيح إحداهما :

- مرزوق عصفور في اليد الآن، ووطفة أقودها إليه مكمّمة لو حاولت أن ترفض! .

طلب أبو ثامر من زوجته اللحاق به إلى الربعة. تأخرت. كانت تؤنّب وطفة التي لم تنم هي الأخرى، وقد نهضت من فراشها مراراً بحجّة الظمأ. كانت في غمرة كلامها الجارح لوطفة، التي ظلت على صمتها، حين ناداها الخادم للذهاب إلى الربعة..

- تأخرتِ ! قال لها أبو ثامر..

أجابته، وآثار الغضب من ابنتها لا تزال منها مسحة على وجهها:

- كنت بحجّة نفسي!

(السرّ بين الأمّ، وابنتها يُطمر في بئر عميقة)..

- أجلسي يا أم ثامر. في رأسي أمر يؤرّقني، ولا بد من مشورتك! .

- خير يا رجل !؟

- وطفة ! ثم سكت.

- ما بها؟ سألته.

- افردي وجهك، واصغي إليّ. .قال .

- فهمت عليك. وعرفت ما ستقول ..

- ماذا فهمتِ؟ (كان يخاطبها محاذراً!)

- بشأن زواجها!؟. .إن أولاد عمومتك ينتظرون إشارة منك!

(اكفهرّ وجهه، فلاحظت ذلك)

..كأنّ الكلام لم يعجبكَ ! ما الذي تريد أن تقوله؟

- وطفة لن تكون لهم يا أم ثامر!

- كيف؟! إنهم ينتظرون جوابا منك!.. أو انّك تفكر بهذه المصيبة التي حلت علينا؟.. تضيف: أتفكر بهذا الكالح مرزوق؟.

- أهو مصيبة برأيك؟ فإذا كنت ترينه مصيبة فأنت مخطئة.. ثم كلامك هذا لا يسرّ. لا أريد أن أسمع منك ما تقولين: كالح؟! .. (كلنا خلق الله) .

تستدرك مخاطبة نفسها، كأنها تذكّرت شيئاً ما :

- أقول.. (وسكتت) ثم تتابع قائلة في داخلها : ها. ها. لماذا لم تنم وطفة طوال ليلة أمس!؟ ثم قالت له محاولة حسم الموضوع :

- أعدل عن هذه الأفكار.. وطفة لم أربّها له.. وطفة لأولاد العشيرة، لا للأغراب.. أو إلى أبناء أخوالها، إذا شتّ بك الأمر .

- أنت كالنعجة لا ترين ألاّ أمامك !. .قال لها بسخرية .

- هذا ما أنا به بنظرك.. أما بما يخصّ وطفة ؛ فأنا لبوة !.

- أتنفرين بوجهي يا أم ثامر؟! وقد بدا الغضب يتصاعد في نظراته، وحركات يديه .

- أنا ما تعوّدت أنفر. .لكن وطفة يا....

قاطعها قائلا لها بعصبيّة:

- مرزوق يساوي كلّ شباب العشيرة برجولته. سيكون سندي القويّ. سيعزّز مكانتي بين الشيوخ، وبه لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه في وجهي، أو يغمز عليّ!...

أجابته هازئة:

- هذا العبد الذي لا نعرف فصله، وأصله. .أبمثله تعزّز مكانتك ؟

أجابها هو الأخر بما هو أشدّ هزءاً، وهو يغلي غيظاً:

- لا. لا يا أم ثامر. بل بثامر الذي أنجبته لي من أصلك، وفصلك!

- أتعيّرني بأهلي يا زوجي ؟ أنت زرعت، وأنت !!..

قاطعها حاسماً هذا النقاش، وهو يشير إلى باب الربعة بيد ترتجف :

- أخرجي من هنا.. ذاك الباب ..

فيما هي خارجة :

- افعل ما تريد. اعمل ما يحلو لك.. لكنك ستندم!

(غادرت وهي تحدث نفسها):

- لا يدري أنّه سيخسر كلّ شباب العشيرة، إذا طارت وطفة من أيديهم. أحدهم للآخر لا يتنازل عنها، فكيف يريدها لرجل غريب، وعبد أيضاً! سواده يخيف حتّى الوحوش في عتمة الليل. حتى رأي البنت لا يعنيه!.

* * *

- ١٦ -

خرج ويلان صباحاً من غرفته في مزرعة شيخ الضاحية، وهو يصغي إلى جلبة في مزرعة الهولي المجاورة. ولّما كان السياج الكثيف يمنعه من رؤية ما يحدث، تسلّق إلى سطح الغرفة. رأى المرابع (طويرش) يكدن العبد (مهزال) إلى المحراث بدلاً من دابّة، ولّما يمر على تواجده سوى يومين في المزرعة، بعد أن التجأ إلى الهولي. جعله منذ اللحظة الأولى تحت تصرّف وكيله، وبعهدته، وهو يوصيه أن يكون خشناً معه، وأن يعامله بقسوة، ويذلّه حتى لا يتمرّد عليه، ويعصى أوامره !.

كان مهزال صاغراً لما يفعل طويرش به، ليكون مستعداً للحراثة .

كما الدابّة تماماً. كانت الكدّانة قد طوّقت عنقه، واستندت إلى كتفيه العريضين اللامعين تحت الشمس، والرسن المزدوج مربوطاً إلى رأسه. يتباعد الوكيل عنهما. يتوقف ليشاهد عملية الحراثة على رجل مزهوّاً بتنفيذ أمر سيّده. لم ينتبه لمهزال الذي ينظر لنفسه مستنكراً ما يفعلون به بابتسامة ساخرة.

يتناول طويرش سوطاً مجدولاً من قصب القنب متدلياً على كتفيه. يضربه بالسوط. للبدء بشقّ ثلم في الأرض. ينيخ تحت ضربة السوط مع زفرة: آخ... يسوطه ثانية، وثالثة. يلتفت نحوه إلى الخلف، ويضحك

هذه المرة ملء شدقيه. يستحثه بتلويح السوط ، ليسرع في شقّ ثلم آخر عند الإياب..

ذراعا مهزال تطوقان خشبتيّ المحراث من الجانبين. بدأ العرق يتصبّب من جسده، ويبرق أكثر تحت ضياء الشمس. عند لسعة السوط يقهقه منفجراً بضحك هستيريّ. عيناه مستغرقتان في أثلام يشقّها. صدره يفيض عما يمتلئ به من قهر، فيعاود الضحك !..

يقفز ويلان عن سطح الغرفة ممتعضاً، وغاضباً. يتمشّى أمامها جيئة، وذهاباً، بعصبيّة، من هول ما رأى، لفترة من الوقت.

يشاهد الشيخ من خلال الشقوق الواسعة في باب المزرعة الخارجي قادماً يجرّ حماره خلفه، والزوّادة اليومية التي يحملها إليه كالمعتاد في يمينه. يستقبله ويلان. ينتبه الإمام إلى ما يرتسم على وجهه من غضب مكتوم. يسأله متوجساً :

- ما بك يا ويلان؟ أراك متوتّراً.. ما الأمر؟

لم يستطع ويلان السكوت على ما رآه في مزرعة الهولي. تحدّث واصفاً له مشهد الحراثة، وعن استيائه من معاملة وكيل الهولي لمهزال كما لو كان دابّة.. حتى ولو كانت الحراثة على دابّة، لكان بها أرحم ..

- أحقاً ما تقول يا ويلان؟ سأله الإمام. وكأنما يشكّ بأن إنساناً يعامل على هذا النحو .

- أنا لا أكذب يا سيدي. اصغ قليلا لتسمع بأذنك. وإذا لم تصدّق ؛ فبإمكانك أن تصعد إلى سطح الغرفة، وتشاهد بعينيك. أتوسّل إليك.

اصعد كي تشاهد. أنا لا أكذب .

- كيف سأصعد، ولا سلم أصعد عليه ؟

سارع ويلان إلى جانب جدار الغرفة، وانحنى :

- تعال يا سيدي. اصعد على ظهري، ثم أنهض بك، وأرفعك إلى السطح.

- لا يا ويلان. جرّ الحمار إلى هنا، وأنا سأصعد من على ظهره إلى السطح ..

يراهما الإمام. يلوذ الوكيل في ظلّ شجرة حين لمحه .

يصرخ الإمام بطويرش على الفور:

- هيه. يا جار. يا جار!

لم ينتبه الاثنان له، إذ كان طويرش يضربه بالسوط، ومهزال يحاول الإسراع . يلحق ويلان بالإمام، ويتسلق الجدار، ويصعد السطح هو الآخر. قال لويلان :

- اصرخ به . إنّه لم يسمعني.

يصرخ ويلان بصوت مجلجل :

- هيه يا طوير .....ش!

يسمع الاثنان الصوت. يلتفتان إلى مصدر الصوت معاً. الإمام وويلان على السطح. تجمد قبضة طويرش على مقبض المحراث. يتوقف عن الحركة.

راح مهزال يمسح عرقه بباطن كفّه، وهو يلهث، مرهقاً.

يصرخ الإمام:

- ياجا........ر(لم يسمع) يا جا ر ر ر! ؟

يلتفت طويرش إلى مصدر الصوت. يرى الإمام، وويلان على سطح غرفة ويلان في المزرعة .تجوس عيناه المكان بحثاً عن وكيله. يقول في سرّه مرتبكاً، ومستغرباً اختفاءه:

- الآن كان هنا ! ثم يلتفت نحو الإمام،ويجيبه بصوت عال:

- نعم يا حضرة الإمام.. ثم يتوقّف عن عملية الحراثة مذهولا .

- فكّه. أقلّة دواب حتى تفلح على إنسان مثلك ؟!

- لا أستطيع يا سيّدي أن أفكّه !..(يتنفّس مهزال الصعداء، ثم راح يمسح عرقه

- أهو دابّة لتفلح عليه !؟ (قال له الإمام بعصبيّة، ثم كرّر الطلب بلهجة الأمر) :

- أقول لك : فكّه ! (قالها الإمام هذه المرّة، بصوت أعلى غاضباً)..

- أتريدني أن أحلّ مكانه يا حضرة الإمام!؟

- أنا سأفكّه. (وأومأ لويلان أن يساعده على النزول)..

دار الإمام حول السياج المفضي إلى باب المزرعة الرئيسي، وسارع إليهما يرافقه ويلان، وهو على أخر نفس، وانتزع الرسن، والسوط من طويرش..

- ابتعد عنه . قال الإمام لطويرش .

ثم أمر ويلان:

- فكّه ! (وراح يحدث نفسه على سمعهم).

- أيّ عمل مشين هذا!

ثم قال متوعّداً :

إذا كان وكيلك يا الهولي يقوم بمثل هذا الفعل بمعرفتك، سأعرف كيف!؟ سأعرف! ... (وصمت)

* * *

ليلاَ، وبعد أن هدأت الحركة في مزارع الضاحية، وفي الدروب إليها، يقصد مهزال ويلان في مزرعة شيخ الضاحية ليسهرا معاً، بعدما أنس له في حادث النهار، عند تحرير الإمام له من المحراث . يسمع زمزمة غريبة بين الأشجار، والسياج الكثيف، يُصاب بالذعر. يحاول الإسراع بالسير. يتعثر بأيّ شيء أمام خطاه، حتى ولو كان هذا الشيء نبتة صغيرة. جعله الخوف يرى حتى الشجيرات الصغيرات كائنات تتربّص به، أو أشباحاً تطارده .

يخرج ويلان من غرفته على صوت مهزال المتلعثم يناديه من بعيد. يعرف أنّه هو بالذات. يسارع الخطو إليه.يقتاده إلى غرفته مستغربا ما آلت إليه حال مهزال. يهدّىء ويلان من روعه. يسأله عن سبب ذلك. يؤكّد مهزال له رؤيته لأشباح، وسماعه أصواتهم ..

يبتسم ويلان:

- الأشباح في كلّ مكان يا مهزال، لكنّها لا تظهر لإنسان إلاّ حين يستبدّ به الخوف ..

يقاطعه مهزال :

- لم أكن خائفاً يا ويلان. تعرّضت لمواقف كثيرة كانت تستدعي الإغماء خوفاً، ولم أشاهد ما شاهدته الليلة. لا شكّ أنّ مزرعة الهولي مسكونة بالجنّ !.

(يقول ويلان في سرّه، وهو يفكر بالأمر):

- لاشيء من لا شيء. .أيكونون الأشباح الذين يكثر الحديث حولهم في هذه المنطقة؟! تريبه هذه الفكرة :

- لكنني لم أشاهد شيئاً من هذا القبيل حتى الآن. في الليل، والنهار، لم أبرح المكان. يتساءل، وهو يحلّل الحادثة:

- لماذا يحدث ذلك بعد الفلاحة على مهزال بالضبط؟! يتوصّل إلى أنّ ذلك هو السبب؛ ولكن لماذا اللجوء لمثل هذا الفعل ؟ هي لا شكّ رسالة. يتساءل في سرّه :

- ولكن لمن ؟... أهي لمهزال حتى لا يغادر المكان ؟ أم للإمام حتى لا يتدخّل بشؤون الهولي ؟ أم إليّ حتى أظل بعيداً عن مهزالهم هذا !؟.

لم يستطع ويلان الوصول إلى إجابة حاسمة لهذه التساؤلات. قال لمهزال محاولا تبديد شكوكه حول مسألة الجن:

- كلّ ما لا تراه عينك يا مهزال، هو وهم أنت تصنعه في خيالك ليتبدّى

لك جنّاً، أو سواه. دعك من هذه الوساوس، وحدّثني عمّا حدا بك لتكون في هذه البقعة من الأرض ؟!.

.. أجابه:

- قصّتي طويلة يا ويلان..

- لن تكون أطول من قصّتي. هات ما عندك ؟!.

راح مهزال يسرد قصّته لويلان:

«جئت متخفياً كعبد من عبيد الوالي الذين أرسل في طلبهم إلى الشام بعد أن استقر له حكم البلاد الشامية. الهولي الذي أخدمه الآن أعرفه مذ كنت صغيراً، وهو كان كذلك، إذ جاء هو الآخر من قبل سرّاً مع آخرين، ليتسقّطوا أخبار واليها ماجور بعد أن أخلى الساحة لابن طولون مدحوراً.. أبو الهولي كان نخّاساً كبيراً، ولا يزال، وله في البلاد الإفريقية أذرع طويلة تساعده على تأمين طلباته من هذه التجارة. والدي كان من خاصّة عبيده، وكبرت في كنف أمّي التي تخدم نساءه، فخصاني لأظلّ معها في خدمتهم.. أنا مخصيّ يا ويلان!.. مات أبي ثم لحقت به أمي. ربما ضاق ذرعاً بي، مع انّه لم يكن يعاملني بقسوة، كما يعاملني هذا الشيطان ابنه الآن. أراد التخلص منّي بعد أن جلب سواهما، وسواي من عبيد آسيويين بيض لخدمته، وهو على حافة قبره. لقد غدا رجلاَ هرماً.. ابنه الهولي كما كانت تصلنا الأخبار، التفّ على الوالي ماجور، فوثق به. أطلق الوالي يده في أكثر من التجارة. صار ثريّاً. علمنا فيما بعد أنّه اشترى هذه المزرعة. قلت: ليس لي سواه أكمل حياتي عنده، فجئت. ليتها كانت ساعة نحس عندما فكّرت بذلك.. ليتني بقيت في

الفسطاط ؛ فالسوط الذي تعرفه خير من السوط الذي لا تعرفه، ولم تذق طعمه بعد!».

- السوط هو السوط يا مهزال ! عليك ألاّ تيأس. لطالما الشمس تشرق، وتغيب، فلا بد من فرج.. (وبسبابته راح يقرع رأس مهزال مؤنّبا) :

- لكن هذه البطيخة القرعاء ليس فيها أكثر من عقل فراشة!

نظر إليه مهزال مستغرباً ما قال:

- أعبدٌ في الدنيا يُتاح له أن تُطلق يداه يسلّمهما لقيد؟!.

يشير ليديّ مهزال :

- هاتان أجنحتك. كان عليك أن تطير بهما إلى أيّ مكان، لا أن تلتحق بابن سائم أبيك، وأمّك ليسومك!).

يجيبه مهزال:

- إلى أين سأفرّ، فلن أجد من سيعيد القيد ليديّ، والرسن إلى هذه الرقبة. هناك ليس أكثر من الأشقياء، الذين يمكنهم اصطيادي، كما لو كنت فرخاً!.

- لو كنت مكانك يا مهزال لعملت مثلهم، وعن قصد جعلت من نفسي شقيّاً لأصطادهم.. أمجنون أنت!؟.

كان مهزال يفكّر ساهماً بما يسمع، اتّسعت حدقتا عينيه، وكأنّما صحا من غفوة طويلة، وأجابه ساخراً من نفسه :

- فعلاً، هذا ما لم يخطر ببالي، والذي قلته لك غيض من فيض يا ويلان. لقد جعلتني أتذكّر أموراً كثيرة تتزاحم الآن في رأسي ..

يقاطعه ويلان. يسأله باقتضاب :

- مثل ؟!

- أتيح لي ذات يوم أن أنتقم بعد حادثة تعرّض لها أبو الهولي، فتصنّعت الجنون حتى نجوت، ويومها حملت هذا الاسم الذي تخاطبني به الآن. اسمي الحقيقيّ هو (سالو). يومها راح الأولاد ينادونني (مهزال. مهزال)، والتصق بي هذا الاسم..

- إلى هذا الحدّ، كانت الحادثة لتقودك إلى أن تتصنّع الجنون ؟

- لكنّني بذلك أنقذت سيّدي أبا الهولي !. أجابه مهزال .

قال ويلان مغتاظاً :

- فليذهب إلى الجحيم ! . والحادثة.. ما هي هذه الحادثة العظيمة التي تستحقّ أن تجنّ من أجلها !؟

- أووه.. اسمع إذن : تعرّضت إحدى الكنائس للسطو، ووقعت التهمة على أبي الهولي، ولم يجد سبيلاً، إلاّ أن يلصق الجريمة بي.. الجنون أنقذني من موت محقق!..

يقاطعه ويلان :

- بل أنقذت سيّدك ..! إيه يا مهزال.. كيف صرت مهزالاً ؟ ما الذي جرى؟.

- حين حامت الشبهة على أبي الهولي علّق في عنقي صليباً ذهبيّاً صغيراً. ألبسني ثياباً مهلهلة. علق عليها تنكاً. صنع من خرقة بالية ذيلاً.

طلب منّي أن أخرج إلى الطرقات متصنّعاً الجنون. لوّح بخنجره في وجهي مهدداً بذبحي إن لم أفعل، ففعلت .وكان ما كان. صرت ذلك المجنون الذي يلاحقه الأولاد من مكان إلى مكان، ويهزأ منه الكبار، ولمّا كنت مجنوناً أليفاً، صرت تسلية للناس في الأحياء بين ليلة وضحاها. .

فوجئت بعد يومين برجال الوالي يلقون القبض عليّ. لم أكن خائفاً منهم، بل كان فرحي كبيراً حين رأيت نفسي وجهاً لوجه أمام ابن طولون في قصره، ورأيت ما هو فيه من أبّهة: حرس، وخدم. كان في حضرته القاضي، وقسّيس، وصاحب الشرطة، وأبو الهولي، الذي حدق إليّ بنظرة وعيد، ذكّرتني بالخنجر الذي شهره بوجهي من قبل !.

اعتراني الخوف فجأة، وتسلل إلى أطرافي التي راحت ترتعد تحسباً لموت ينتظرني .علمت فيما بعد أن القضية وصلت إلى الوالي، بعد عجز القاضي عن معرفة الحق، والباطل فيها. قال لي الوالي :

- لا تخف يا بني .قل لي ما الذي سرقته من الكنيسة ؛ فأعفو عنك!؟

حوّلت نظري إلى أبي الهولي. كان ينتظر منّي ذلك، فأشار خلسة إلى عنقه. فسّرتُ إشارته بأن أقول للوالي :

- اذبحني..

.. فألقيت بنفسي عند قدمي الوالي طائعاً !.

- اذبحني يا مولاي. اذبحني .

أمرني الوالي أن أنهض، وأقف أمامه وقفة متزنة، ثم سألني :

- ما الأشياء التي سرقتها، وكيف، ومن كان معك ؟

تخيّلت كيف سيتمّ قطع عنقي. دفعني الخوف لأن أرفع يدي نحوها، فلمست أصابعي الصليب. ظنّ أنّي أشير له كاعتراف منّي بأنّه أحد المسروقات. قال :

- لا تخف. تابع، وماذا سواه !؟

قبل أن أجيب بأية كلمة أدافع بها عن نفسي، تدخّل أبو الهولي قائلاً للوالي:

- هناك مكان يأوي إليه (سالو) لمّا يفتش بعد يا مولاي. أرجو مولاي أن يرسل أحداً إليه ؛ فربما كانت المسروقات فيه. مرّت فترة من الزمن ذهب فيها صاحب الشرطة، وعاد ومعه صندوق خشبي أسود مصدّف، ومفضّض، أحسست بكل لحظة منها تمرّ كزمن. تعرّقت خوفاً. بلت في سروالي دون أن أشعر إلاّ بشيء ساخن يسيل على فخذي. اقتادني جنديان بإشارة من الوالي، وأنا مغمى عليّ لأصحو على لسع السوط الذي ينهال على ظهري، ويهرأ جلدي. بقيت بعدها عدّة أيام، وأنا لا أستطيع الحركة. ثم سارت الأمور كما كانت، وكأن شيئا لم يكن.

علمت فيما بعد أن تسوية هذه القضية تمّت على حسابي، وكان جنوني، والسياط التي تلقيتها فدية لها..

- وأنت على هذه الحال يا سالو، ستظلّ تقدّم مثل هذه الفدية !

- أنا مهزال يا ويلان، وسالو نسيته. نسيت ذلك الاسم الذي حمّلني الكثير من المآسي..

قال له ويلان بأسى :

- وتحت اسم مهزال جعلوا منك دابّة، وفلحوا عليك. أنت سالو!!! . إنسَ كلّ تلك الحكايات، وابدأ من جديد. أنت هنا في مكان غير ذلك المكان. الهولي سيظل الهولي. الأفعى، ولو بدلت ثوبها ستظلّ أفعى! .

- ماذا تريدني أن أفعل ؟ سأله سالو.

- هل سألت نفسك ماذا ستفعل ؟ أجابه ويلان .

- ربما أذهب إلى الوالي ليستبقيني في خدمته. أعرف أنّه لو رآني سيعطف عليّ. إنّه الآن في الشام. ما رأيك يا ويلان ؟

- قد تكون هناك قضيّة ما، وتكون أنت فديتها أيضاً ! أجابه.

- إذن. ماذا سأتصرف؟ سأله سالو ..

أجابه ويلان :

- لو فكّرت بأنّك لن تخسر شيئاً ؛ فلن يصعب عليك شيء، وإن لم؛ فسيأتيك وكيل الهولي صباحاً. تأكّد أنّه لن يخبرك بما في نيّته أن يفعل بك، أو ما يبيّته لإذلالك !..

بدا سالو شارداً يفكّر. علامات الخوف ذاتها ظلت محفورة على جبينه، وعيناه في انكسارهما المزمن. ينظر إلى ويلان حائراً، ويسأله :

- ألن يأتي الإمام صباحاً ؟! .

- صباحاً سيكون يوم الجمعة. هذا اليوم للراحة، والعبادة، ولا أعتقد أنّه سيأتي(وهو يشير إلى رأس سالو) لا خير في هذه الرأس يا صاحبي.. ستدوسك الأقدام أينما كنت..!.

بعد هنيهة راح سالو يتثاءب، ثم استسلم للنوم. ينهض ويلان، ويخرج من الغرفة، ليعود بتنكة في يد، وحجر في يد. يقف فوق رأسه. يطرق على التنكة بعنف. يجفل سالو. يهبّ مذعوراً..

يقول ويلان له بهدوء:

- لا تخف. .فعلت ذلك ممازحاً .

* * *

شيخ الضاحية، وهو يتلو خطبة الجمعة ـ وعن قصد ـ رأى أن تكون فحواها كسابقتها: العطف على العبيد، والخدم من رجال ونساء، وعلى الزوجة والولد، والإشفاق عليهم. (كان ينظر بين الحين، والآخر، نحو الهولي. عينا الهولي كانتا تتأمّلان الإمام، وفيهما يستطير الشرر. متيقّن ـ في قرارة نفسه ـ أنّه المستهدف بما يقول الإمام جرّاء ما حدث مع «مهزال» (سالو)..

* * *

مع الشروق في صبيحة اليوم التالي، كان أحد المزارعين قاصداً حقله في الجهة الجنوبيّة من قناة (أبو لويز). (جفلت دابّته به، فكاد يسقط عنها). يتطلّع حوله. يرى مشهداً، تقطّعت له نياط قلبه. رجل أسود البشرة يتدلّى من شجرة التوت، التي كان يستظلّ بها مرزوق أيّام فراره من حاكميّة

الشام، وغدا الشبح المجهول، الذي لا يزال يحسب المارّة من هذا المكان له ألف حساب. لم يكن الرجل المشنوق، أو الذي شنق نفسه حسب الروايات الكثيرة التي نسجت عنه سوى **(مهزال)..**

عاد المزارع على أعقابه يتملكّه الخوف من هذا المشهد. ينشر الخبر في البلدة. سرعان ما يصبح هذا الخبر على كلّ شفة، ولسان، لتستقرّ كلّ التأويلات في دائرة ضيّقة واحدة لدى العامّة صغيرهم وكبيرهم، أنّ الشبح، أو الأشباح المزعومة التي يرونها، هي التي شنقت هذا المسكين، أمّا الحقيقة، فلم يقاربها سوى الإمام، وطويرش المزارع لدى الهولي، ولو أنّها ليست الحقيقة المؤكّدة، بعد تشعّب قضيّة هذه الجريمة، التي طالت الكثيرين، حتى الإمام ذاته لدى القاضي، ولم يصل إلى إدانة أحد بعينه ؛ ولمّا لم يكن بمستطاعه أن يقيّدها ضدّ مجهول، فكّر بأن يحوّلها إلى الوالي، بعد أن حامت الشبهات حول الهولي. كانت كل خيوط الجريمة تتوقف عنده.

كان الوالي قد عاد إلى الديار المصريّة، وظلّت القضيّة في الأدراج.. العامّة وحدهم قيّدوها بذمّة أشباح الغسق، الذين ازدادت سطوتهم في النفوس بعدها.

* * *

- ١٧ -

«الحب تفّاحة في أعلى الشجرة، ينساها القطّافون، أو لا يستطيعون بلوغها».

تقول الأسطورة..

الحبّ، يتعتّق كما الخمر. .وإذا ما انكشف يفسد. .وكالقمر مأساته النقصان إذا ما اكتمل، أو المحاق. .من شرارة يشتعل. قد تكون التفاتة، أو ابتسامة، أو كلمة، أو همسة.. فماذا لو لم يشتعل من كلّ هذا، وكان كحبّ المكان الذي يبلغ بالمرء الارتواء، ماءً، وهواءً، وغذاءً، وألفة مع أهل، وصحب، أو الزمان المتحقّق فيه الكرامة، والحريّة، والحبّ، والخلود ...

مرزوق، غدا بالنسبة لوطفة، مثل جبل بدران. تراه شاهقاً. ترى بسواد بشرته الليل ونجومه. بصوته، أنغام الطبيعة. بظلّه، بمضارب العشيرة، بدءاً من ربعة شيخها إلى آخر راع للقطيع فيها. .

لا تعرف وطفة كيف، ولماذا تعلقت بهذا الغريب، ولماذا تزداد تعلقاً به يوماً بعد يوم، وصار هاجسها الدائم حتى، وهي تأكل وتشرب، ولماذا تقضي آناء الليل ساهرة، لا يشغلها سوى طيفه، الذي لا يغيب عنها. ما سواه يهدهدها لتغفو، أو ينقر بسبابته على نافذة روحها لتصحو، أو يمسح دموعها حين يراودها بكاء. حبّه المستبدّ يسطو على كيانها كله، على الرغم

أنّه لم يلمّح لها بشيء، ظلّت على عنفوانها. شرف البدويّة في الحبّ أن لا تصرّح، أو تلمّح لأن ذلك بالمقابل يكلّفها دمها، أو انطفاء حلمها بأن تكون حليلة لمن تهوى، وتحبّ. إنّها أقانيم الحبّ في البوادي. أمام هذه الأقانيم كان يزداد حب وطفة لمرزوق أواراً. كانت تطوي هذا الحبّ تحت جناحها، فيغدو فروسيّة. تماهيه بعشقها لفرسها التي لا تخذلها في الميدان. مثالها الأعلى في الصبر أمّها. في الشمم والدها شيخ العشيرة. في رؤية البعيد، والحكمة، زرقاء السوح، فيضة.

مرزوق، لا وقت لديه للحبّ. بقي على الضفة الأخرى منه. ترك مسافة دونها، لا يهبّ فيها الهواء الذي يخلط أوراقه، أو يعبث بها. كتم نداءات قلبه بكلّ ما فيه من قوة حتى لا تصلها. وضع نصب عينيه إحياء آخر الجمرات، التي تبصّ تحت رماد الثورة التي انطفأت، ولا يزال ينقّب عن أسباب انطفائها، وكان العبيد من الزنج، والأعراب المستعبدين وقودها. تلعب الريح بهذا الرماد. تشتّته، وتشتّت ما فيه من جمر. تذروه في أماكن لا يفكّر إلاّ بالوصول إليها. روحه لم تهدأ عن الطيران إليها، قلبه معها في عذاباتها الجديدة. مع أحلامها التي تكسّرت. مع الأجساد التي صارت سماداً زكيّاً للأرض، والدماء ملحاً حارقاً في الأهوار، والعظام قصباً جريحاً على فم الريح ..

لا أحد يعرف ما يدور بخلد مرزوق .

أبو ثامر يطوّقه بعطفه ليضيف سيفاً قويّاً يسند سيوف عشيرته.

وطفة تحاصره بسحرها ليكون لها وحدها شعلة الحبّ الأبديّة .

أمّ ثامر تريد لهذا الجنيّ، الذي ظهر في جبل بدران، أن يعود إلى قمقمه، ويختفي .

زرقاء السوح لم تجاهر بما رأته بصيرتها، إلاّ لأبي ثامر حين سألها:

- ماذا ترين من أمر هذا الأسمر الغريب يا فضّة ؟

(الاسم المحبّب الذي تُنادى به بدلاً من فيضة)

- لا تعوّل عليه أن يبقى هنا ليس مرزوق أكثر من عابر سبيل، ومع هذا فلن ينقذك سواه .

- لكنّي أرى أنّه كمن يريد أن يستقر هنا ؛ فهو لا ينقطع، أو يتأخّر حين أطلبه. لم يخرج عن عاداتنا، أو تقاليدنا بشيء. لم يمسّ حتّى الآن أحداً بسوء، أو أذى، ويبدو ودوداً مع الجميع !

- هذا ظاهره لا باطنه يا شيخ. ألم تلاحظ ما في عينيه من قلق ؟

- لا. لم ألاحظ ذلك يا فضّة .

- ذلك لأنّك تنظر إليه بعين الرضا وحدها. أنا لا أعرف ما الذي تفكّر فيه . أنت تريده صهراً للعشيرة، بل صهراً لك أنت، وهذا ما لن يكون، لأنّك لو أقدمت على ذلك، أو لو عرفت العشيرة -مجرد معرفة - ما تنوي، فإنّك ستفتح بذلك باباً للشرّ، وستقضي عليها. سيفرح المناوئون لك. فهناك من يسعى منهم لأن يكون تحت جناح الوالي في حماية طريق الحج..

أرى أن تظل الأمور على عواهنها، ولا تلقي بالاً لمرزوق، سواء رغب الاستقرار بيننا، أم لم يرغب..

* * *

كان مرزوق في تلك الفترة الزمنية، التي التقى بها الشيخ بزرقاء السوح فضّة، يصرّح لودّ سالك بأنّه سيغادر جبل بدران، ويزور الأمكنة التي حطّت بها فلول الفارّين من أنصار صاحب الزنج إلى الأرض الشاميّة.

يوافقه ودّ سالك ضمناً على ذلك ؛ وفي الوقت ذاته، يحاول ثنيه عن المغادرة خوفاً عليه:

- إنها مغامرة غير محسوبة النتائج يا مرزوق، عدا عن أنّك ستهجر أناساً أحبّوك، ويداً بيضاء امتدّت إليك، كما أنّك لم تقل لي ما الذي تريده من مهزومين بائسين، لا يزال طعم الهزيمة، والقهر تحت جلودهم ؟!

- ستعرف فيما بعد يا ودّ سالك !

- لماذا لا تقول لي الآن، فأنا قلق عليك !؟

- قلت لك ستعرف فيما بعد!

- لماذا لم تطرح عليّ فكرة أن نغادر معاً يا مرزوق ؟

- أنت الآن في مكانك أقوى!

- أفسّر ذلك أنّك ستعود إلى هنا ؟!

- ربما !

... بعد يومين كان مرزوق بين يديّ الشيخ في الرّبعة؛ فبوح فضّة للشيخ حول مرزوق شوّش أفكاره، أراد أن يسمع بأذنه ما يدور في رأس هذا النوبي، كما أنّ مرزوقاً وجدها فرصة مناسبة، ليصارحه بأمر المغادرة ..

الاثنان في حالة ترقب. كلّ ينتظر الآخر أن يبدأ الحديث. الاثنان تغلي في صدريهما نار الكلام. كلّ ما خبره الشيخ من الصبر، أو ما خبره مرزوق من التكتّم، ستؤتى ثماره في هذه اللحظات. كلاهما كمن يعضّ على إصبع الآخر. من سيقول آخ أولاً سيخسر الجولة. الشيخ علمته البادية: طبيعتها القاسية. عشرة أناسها. النظر إليهم من علٍ، وهو يسوس قيادهم، أن لا يسوقهم بعصا واحدة، فكابر في الصبر على مرزوق، لعلّه يبدأ الحديث أوّلاً.

مرزوق أيضاً علّمته العبوديّة أقصى الصبر. كان يخرج من الامتحانات التي يمرّ بها منتصراً، حتى حينما تكون القيود في يديه، وقدميه.

يعاود النظر إلى الشيخ. كان الشيخ يطيل الإطراق بالأرض .يبلّل شفتيه بريقه، الذي يجفّ بين حين وآخر. يتساءل في سرّه، عمّا إذا كان يفعل الصواب بسلوكه هذا حيال الشيخ أبي ثامر، الذي أكرمه منذ اللحظة الأولى، التي رأى نفسه بها، في حياض عشيرته، ولا يزال يعامله معاملة سيّد لا عبد، ومعاملة ضيف لا أجير، عدا عن أنّه رأس العشيرة، وسيّدها الذي يأمر فيُطاع .

يرفع الشيخ رأسه، فيرى مرزوق بعينيه بريقاً يوحي بأنه سيبدأ الكلام. يبادره مرزوق سارقاً منه هذه اللحظة الحاسمة، لا ذلاًّ، ولا انكساراً، بل احتراماً، وعرفاناً بالجميل. قال مرزوق للشيخ:

- ما الذي تريد أن تقوله لي يا شيخ ؟

تنحنح الشيخ. عدّل من جلوسه. رفع ذيل عباءتـه المتدلـّي. ألقـاه إلى محزمه. نظر نحو مرزوق يتأملّه بإعجاب :

- أمور كثيرة يا بنيّ أريد أن أقولها، لكن أريد أن أسألك أوّلاً :

- هل شعرت أن أحداً هنا قد كدّرك بشيء ؟

- معاذ الله يا شيخ.. (ثم راح يستحثّه على المتابعة، ويطمئنه على نقاء سريرته):

- قل ما تشاء، فأنا أصغي إليك. احسبني كوالدك . تأكّد أنّ كلامك لن يكون بذاراً على صخر .

- كلّ كلمة تقولها سيكون لها مكان هنا، أو هنا. (وأشار بيده إلى الرأس، وجهة القلب) .

سأله الشيخ :

- هل أعرف منك ما الذي تفكّر فيه الآن ؟.

- أمور كثيرة، لكن يستحسن أن تسألني، وأنا أجيبك .

- هل تفكر بالبقاء هنا ؟.

- بالطبع لا.. (يلاحظ الخيبة التي ارتسمت على وجه الشيخ) يقول :

- لكن قد أعود! .

فوجئ الشيخ بهذا الوضوح، الذي أبداه مرزوق. سأله:

- أليس من الأفضل لك ولنا الاستقرار في عشيرتنا؟.

- لن أكون بعيداً عنها بأيّة حال .

تساءل الشيخ في سرّه:

- إلى أين سيذهب إذاً لطالما سيظل قريباً منا، ثم التفّ عليه بسؤاله:

- أأستطيع أن أساعدك بشيء ؟

- إذا احتجت إلى أيّ شيء، فلن أجد غضاضة بأن أطلبه دون مواربة.

- هذا ما أتمنّاه منك .

(في اللحظة ذاتها وسوس له الشيطان، أن يلجأ مرزوق إلى العمل على قاعدة : (بوق «أسرق» ولا تشحذ) ! فيضيف لأعدائه عدوّاً..

كرّر استعداده لتقديم أيّة مساعدة لمرزوق، حتى يقطع عليه طريق الغدر ؛ فيما إذا كان يفكر بذلك. ألحّ عليه:

- أطلب الآن أيّ شيء، وسيكون بين يديك !

- قد أطلب، لكن ليس الآن. أرجو ألاّ تسألني ما قد سأطلب فيما بعد.

انتهت الجلسة ما بينهما عند هذا الحدّ. شغلت أفكار الشيخ تساؤلات كثيرة، عما يمكن أن يطلبه مرزوق منه. لم يستطع أن يتكهّن بشيء. كان مطمئناً تماماً لمرزوق. كانت كلماته الأخيرة له :

- في أيّ وقت يمكنك أن تغادر، وفي أيّ وقت يمكنك أن تعود..(أضاف بعد لحظات من الصمت): دون إذنٍ منّي، يمكنك أن تأخذ ما تشاء من العشيرة، وسأوصي الجميع بألاّ يقف بوجهك أحد لو فعلت ذلك ..

عند منتصف الليل خرج مرزوق من خيمته الصغيرة. اتّجه نحو خيمة ودّ سالك، وهو يمشي الهوينى. كان ودّ في عز نومه. تردّد مرزوق بين أن يوقظه لوداعه، أو أن يقبّله على جبينه دون أن يشعر به ويمضي. اكتفى بأن ألقى عليه نظرة طويلة .تراجع إلى الخلف ونظره معلّق به، ثم أدار ظهره ومضى. كان نهاراً، قد رسم طريق الخروج من بين مضارب العشيرة، ورصد المكان الذي يقبع به حارسها تلك الليلة، والمكان الذي آوت إليه كلابها. تسلّل مغادراً جبل بدران، ونصب عينيه الجهة التي قدم منها، وشاء القدر لأن يقضي فترة من الزمن فيه، كانت أيامها بساعاتها، ودقائقها، أجمل أيام عمره .

عند عتمة آخر الليل، رأى من بعيد أنواراً شحيحة تبصّ من جهة الشرق. يدرك أنّها منبعثة من بلدة كوكب. يغذّ السير شمالاً، واضعاً نصب عينيه جبل قاسيون، حتى لا تضيع منه الجهات..

ما إن بدأت خيوط الفجر ترتسم في الأفق، حتى وصل مرزوق نبع شوّاقة، الذي يروي حديثة الضاحية. لم يحاذر هذه المرّة في سيره تجنّب الآخرين، وقد اعتادوا رؤية ذوي البشرة السمراء، وخبروا قصّة شتاتهم في الأرض. كان يرى المزارعين في طريقه، أو حقولهم. سار محاذياً ساقية شوّاقة، التي تدير مياهها رحى طاحون صحنايا أيضاً . لم يشاهد سوى دابّتين مربوطتين في الجهة الجنوبية منها. يتابع سيره. يدخل حقول حديثة الضاحية. تتّضح له مشاهد كان قد رآها من قبل : تلة المصطبة. قصر شاكر . الخان . بيوت المزارعين. شجر الكينا، والسرو المعمّر. صفوف شجر الحور الباسق .

كان وكيل مزرعة شاكر يجرّ خلفه جواداً. يخرج من القصر بعد هنيهة

شاب أسمر. يجري مسرعاً نحو الوكيل. يستوقفه الوكيل. يدور بينهما حديث ما. ينتبه الشاب لمرزوق. يشير للوكيل بيده نحوه. يدور بينهما حديث قصير آخر. يدرك مرزوق أنّه المعنيّ به. ما هي إلاّ لحظات، حتى امتطى الوكيل جواده، ومضى به نحو الشرق، يقدّر مرزوق أنّه يقصد المدينة..

يلتقي مرزوق بالشاب (قشلق) في مزرعة ابن شاكر وجهاً لوجه. دون مقدّمات قال قشلق لمرزوق :

- أوصاني الوكيل قبل أن يغادر أسألك عمّا تريد، وقال : لا مانع لديه أن تشتغل معي في المزرعة، إذا كنت ترغب بذلك! .

يجيبه مرزوق وهو يتأمّله، ليتأكد من هذه البراءة، التي لمسها في كلامه . في نظراته. في وقفته أمامه. في حركاته:

- أريدك أنت! .

صعقه الطلب لأوّل وهلة، فأجابه:

- تريدني أنا ؟ ما الذي تريده منّي ؟.

- أريد أن أراك دائماً !.

- لماذا ؟ أجابه مستغرباً .

عرف مرزوق أن اسم هذا الشاب هو قشلق، وتعرّف إلى طبيعة عمله. .أمّا مرزوق، فلم يقل له عن اسمه الآخر، الذي حمله في عهد عبوديّته لدى الخليفة، ولدى حاكميّة دمشق السابقة لابن طولون (شكاكرين) استأذنه مغادرة المكان على أمل اللقاء به. ألحّ قشلق عليه لمعرفة المكان الذي سيذهب إليه. قال له :

- لن أكون بعيداً عنك .ألحّ عليه لمعرفة المكان تماماً، والعمل الذي سيقوم به، أجابه مرزوق بأنّه لن يعمل لدى أحد، ولن يسلم رقبته لأحد، وسيأوي إلى أيّ مكان يجد فيه ملاذاً من الأشرار، والوحوش، وأخبره أنّه يعرف المنطقة، وكيف كان يبيت في أنفاق أنهارها، ويتغذّى من صيد، وفاكهة، ليظلّ يحسّ بطعم الحريّة ..

- أخبره قشلق بأن المنطقة لم تعد آمنة بعد ظهور الأشباح فيها :عند أنهارها، وسواقيها، وأنفاقها. لم يتوجّس مرزوق من قصة هذه الأشباح. يسأله عن أشكالها، وعن فترات ظهورها، وعن مدى أذاها، دون أن يظهر له شكّه بوجودها، ويخبره بأنّه أقام منذ مدّة ليست ببعيدة في أشدّ الأنفاق وحشة، ولكنّه لم يشاهدها .

- قال له قشلق في معرض حديثه عنها، وعمّا يرويه الناس حولها، بأنّ شبحاً مسالماً أنقذ ذات يوم صبيّة حاولت الانتحار غرقاً في قناة (أبو لويز)، وأنّ الأشباح بدأت بالظهور منذ تلك الحادثة ولم تزل، وكلّ يوم تروى أكثر من حكاية عنها. أدرك مرزوق أنّه المعنيّ بحادثة تلك الصبيّة، وبأنّ الخوف المعشّش في رؤوس الناس، هو السبب بانتشار الحكايات. همّ بالانصراف ثانية، فألحّ عليه قشلق كي يبقى ذاك النهار معه، ويبيت لديه، وأتّضح له أن الوكيل لن يحضر ثانية، بسبب انشغاله في المدينة. وافقه على البقاء لعله يعرف من قشلق عن أمكنة تواجد العبيد شيئاً، وفرح قشلق بموافقة مرزوق على البقاء ليسلّيه، ويؤنسه، ويساعده على أعمال كثيرة يجب عليه إنجازها في ذلك النهار..

* * *

- ١٨ -

... قضت وطفة الليلة التي غادر فيها مرزوق جبل بدران قلقة. كأنّ هاتفاً من المجهول أنبأها بأن شيئاً ما يخصها وحدها قد حصل. لم تكن تعلم بقرار مرزوق، لكنها كانت دائمة الخوف من أن تنهض ذات صباح، فلا تجده في عشيرتها، ويختفي بطريقة ما قبل أن يعرف ما يجيش بصدرها نحوه .

صباحاً ارتدت ثيابها على عجل. خرجت من خِدرها قاصدة ربعة أبيها. رأت أباها واقفاً خارج الديوان، وودّ سالك مقبلا نحوه. بلغ توجّسها أقصى مداه، حين لم تبصر مرزوقاً، وأباها كعادتها في الجلسات الصباحية التي انقضت. انكفأت تتمشّى خلف خيمة قريبة ليتاح لها مشاهدة الربعة عن كثب. كأنّها في قدميها رصاص، أو كأنّها تريد للأرض أن تنشقّ لتبتلعها، أو أن تمرّ عاصفة فتنتزعها من هذا المكان، أو تتحوّل إلى غيمة، فتحملها رياح شديدة لتمطر في بلاد لا تعرف المطر، أو إلى رعدٍ يهزّ الكون، فيدمّر هذا السكون الذي خيّم فوق جبل بدران، أو إلى برقٍ يحرق كل ما حولها من خيام ..

قطع عليها هذا الشرود صهيل جوادها في مربطه الذي ليس ببعيد. تتذكّر لحظة انكسارها في الميدان، وتلك الذراع السوداء التي التمعت كسيف أمام عينيها، وتلك القبضة الحديديّة التي اختطفت سلاحها من يدها.

لمحتها أمّها القادمة إلى الربعة، فأقبلت نحوها. لم تنتبه وطفة لها.

كانت وطفة قد غالبت موجة من الأسى، لاستحالة التشفّي في اللحظة ذاتها، فبكت.. ربّتت الأمّ على كتفها، فالتفتت نحوها، وهي تمسح دموعها بذيل شالها : وطفة عاشقة !..

لا أحد كالأمّ تتجلّى له الأسرار الجوّانية، الحبيسة في صدر ولدها، البنت بخاصة. .في سرّها لعنت الساعة، التي جاء بها هذا العبد، فأشعل النار، ومضى. .قالت لوطفة متوعّدة :

- سأزفّك للشيطان إذا رأيتك على هذه الحال بعد اليوم !

(الحبّ يعمي ويصمّ). تلقّت وطفة ما قالته الأمّ دون مبالاة. كانت تصغي لنداءات قلبها. صوت الحب وحده يدوّي فيه: ..الحب أعمى ..!!.

* * *

مرزوق يصغي لقشلق وهو يروي له ملحمة عاشها بتفاصيلها. ملحمة تتكرّر مثل حكايات الأساطير في الزمن. تتشابه فيما يُقطع فيها من رؤوس، وتعلّق في رؤوس حراب المنتصرين، أو على أشجار الدروب، وواجهات القصور، وفيما يبقر فيها من بطون، ويُسال فيها من دماء، وما ينبعث فيها من صراخ وأنين، وما يصلصل فيها من أغلال، وما يُعانى فيها من عذاب..

تتشابه برموزها. بأدواتها. بفجائع نهاياتها. بوقودها. بما يشتعل وينطفئ فيها من أحلام.. تنتهي إلى بطون الكتب، وإلى مقابر التاريخ كمومياوات، أو إلى طيور محنّطة للزينة في بيوت السادة، أو ثعالب الوقت، أو حتى أولئك الذين يرون القمر في سماوات جوعهم، كرغيف مقمّر..

قشلق لا يعرف عن سرديات العبوديّة إلاّ ما رآه منذ شبّ عن الطوق بين يدي أمّ لم ترضعه حليب حرّة، قدِمت، وهو في حضنها، مع مائة امرأة من قومها، كجزء من الجزيّة، التي يؤدّيها قومها لوالي مصر . تربّى بين القيود. أُعطيت أمّه كهبة لأحد صنّاع القيود. باعها هذا الحدّاد لأحد تجّار العبيد مع ولدها، وادّعى أنّها غرقت في إحدى الترع.

يكبر قشلق بين نخيل البصرة، في منزل أحد موظفي الخراج. يعلّمه القراءة، والكتابة والحساب. يصير مساعده في الجباية. يتعرّف إلى الناس .

كان يرى أفواج العبيد، التي تُساق إلى كسح السباخ، وشقّ الترع. يرى كيف يعذّبون. كيف يموتون جوعاً، أو مرضاً ..

يعرف ما رآه، ولكنّه لا يعرف ما قالت المدوّنات، وما سطّره المؤرّخون للمنتصرين عن الرقّ، وتجارة النّخاسة، وعن مبرّرات الشرائع، والأنظمة، وحتى فلاسفة العهود القديمة، للاسترقاق، وتنظيم تجارته كأداة للثروة، والغنى، وكيف كانت تزدهر في الحروب، وفق ما تنتجه هذه الحروب من أسرى، وكيف تبدأ القرصنة حين تتوقّف الحرب، ويسهل صيد العبيد من الأماكن السهلة. من الأقوام المستضعفة، التي لا أنظمة قويّة تحميها. كان شرقي إفريقيا هدفاً. وبحر إيجة. وحوض البحر الأبيض المتوسط الشرقيّ أيضاً..كان التصدير إلى الرّيف الإيطالي. إلى صقليّة. إلى ريفها. كم أُغرق هذا الريف بآلاف العبيد، وبأقسى أشكال الاضطهاد .

* * *

(يقول التاريخ:

« .. يغلي بركان العبودية، وينفجر عام ١٣٥ ق.م. ويثور العبيد بزعامة عبد سوري هو «يونوس»، وعبد آخر يدعى «كليون»..

ستون ألفاً من العبيد ينتصر بهم «يونوس» ويشكل دولة، ويُلقّب بـ «أنطوخيوس»، ويصدر نقوداً، ويكوّن مجلساً لتصريف أمور دولته. يستولون على أكثر من صقلية. يهزمون عدة حملات رومانية على مدى ثلاث سنوات.

يقمع القنصل «روبيليوس» هذه الثورة، ولكنها كانت دافعاً لإلغاء الرق عام ١٠٤ق.م، ولما كان هذا القرار يتعارض مع الإقطاعيين، فلم يحرّروا عبيدهم..

ينفجر البركان مرة أخرى. تثور جموع العبيد في مزارع صقلية عام ١٠٣ق.م. يقودهم هذه المرة أثينيون، وسلافيون. تنصاع الدولة للمتنفّذين، وتسحق هذه الثورة..

ثم تشبّ نار هذا البركان عام ٧٣ ق.م ليشهد المجتمع الروماني أعنف ثورة ضد العبودية حين تصدى لزعامة العبيد رجل تراقيّ الأصل يدعى سبارتاكوس. وكم تعرض سبارتاكوس، كسواه من العبيد للاضطهاد والتعذيب في مستعمرات العبيد المصارعين، فالرومان كانوا يدرّبون العبيد، ويستخدمونهم في مصارعة الوحوش الضارية، ليتسّلوا بمناظر الدماء تسيل في ملاعب روما. يجمع سبارتاكوس تحت قيادته أفراد أربع وسبعين مستعمرة من مستعمرات العبيد وينسحب بهم إلى قمة بركان فيزوف.

ينضم إلى سبارتاكوس، العبيد الزراعيون، والآبقون من تراقيين وغاليين وجرمان، وتفشل جميع محاولات الحكومة الرومانية في هزيمتهم، حتى أصبح هؤلاء سادة القسم الجنوبي من إيطاليا بأجمعه، غير أن كراسوس يستطيع سنة ٧١ ق.م أن يحاصر الثائرين، ويمنع عنهم المؤن، ويشتّت شملهم بعد حصار دام ستة أشهر، وقد برهن سبارتاكوس وصحبه على بسالة نادرة، وخرّوا صرعى في «أبوليا» وأنهى كراسوس الحرب بمجزرة وحشية لا تغتفر، فقد شنق ستة آلاف من العبيد؛ وهم كلّ ما تبقى من جيش العبيد الضخم على طول الطريق من كابوا إلى روما)..».

... قشلق، يفتح ذاكرته على اتساعها لمرزوق، الذي يصغي له بكلّ جوارحه.

قشلق، يفرغ ما في داخله من غيظ، وسخط في صدر مرزوق. يقول:

أمّي، لم ترتكب خطأً بأنّها ولدتني. من حقها أن يعانقها رجل. أن تنام معه. أن تستمتع. الحيوانات تفعل ذلك. .لكن ليس من حقّ والدي أن يزرق ما بظهره فيها، لينجب أولاداً في المكان غير المناسب. في مكان، لا حريّة له فيه، ويعامل فيه كدابّة، أو كمتاع..

كنّا نجبي الخراج، ولكن لم يصل منه إلى بيت مال المسلمين إلاّ اليسير. .كنّا لا نستطيع الوقوف في أبواب ذوي اليسار، لنحصل على ما يترتّب عليهم. كان أحدهم بهديّة يشطب اسمه من قائمة التحصيل. المساكين وحدهم من كان عليهم أن يقدّموا ما يطلب منهم، حتى لو باعوا ولدهم لهذه الغاية.

كان يرافقني في الجباية عبد بيده سوط، ومكلف آخر من موظفي عامل الولاية. .كم كانت كلمة السوط هي الأسبق.. تعاطفت ذات يوم مع رجل كسيح، فعوقبت بعشرين جلدة، لأعمل في الجباية أيضاً لدى (أصغجون) والي الأهواز. جعلني هذا الوالي بعهدة (شاهين بن بسطام) أحد كبار موظفيه. كان الاثنان يتقاسمان الخراج علانية. أخطأت في الحساب ذات مرّة، فعوقبت بقطع مرتبي لعام كامل، ثم تمّ نقلي إلى ولاية عبدان، فسلّمني واليها (سعيد بن يكسين) إلى صاحب الخراج (فضل بن المدبّر) لم يكونا أفضل من سابقيهما إلاّ بشدّة الولاء للخليفة، إذ كنت بيديّ هاتين أحمل له، ولوزيره، وحاجبه، ونسائه. حتى لجواريه الهدايا من مجوهرات، وثياب .

كنت ألاقي في قصر الخلافة أجلّ التكريم، والاستضافة أحياناً لأيّام . كنت أشاهد كلّ ما كان يجري في القصر بأمّ العين : تملّق قادة جيشه. نفاقهم. الإعراب عن استعدادهم للتضحية، والموت في سبيل الخليفة، والإسلام، والمسلمين! ..

في آخر زيارة لي إلى قصر الخليفة بإمرة صاحب الخراج، ومعنا هدايا تخلب الألباب، ليس من الوالي وموظفيه فحسب، بل من سادة عبدان : التجار. ملاك الأراضي، والعقارات، ومالكي السفن، وزوارق الصيد.. انفردت بي الجارية مريام، ثم انضمّت إلينا الجارية ضحى، والجارية توبة. بدأت الحديث الجارية ضحى. قالت، وعلامات الخوف على وجهها:

- نريد منك خدمة، ونرجو ألاّ تخذلنا .

سألتها:

- وما تكون ؟

قالت :

- أمامنا رحلة قد تطول.. (ثم سكتت، وهي تنظر إلى رفيقاتها كأنّما تسألها ؛ أتتابع ما بدأت به، أم تظلّ على صمتها؟. استشفّت منها حثّها على المتابعة)، أضافت :

- قد تطول رحلتنا. سنستودعك أمانات نرجو الاحتفاظ بها ريثما نعود .

تستطرد مريام بعدها بالكلام:

- قد تطول رحلتنا، أو قد لا نعود ؛ فإذا عدنا نرجوك إعادتها كما هي، ولك منّا الامتنان، ومكافأة ترضيك. .أردفت توبة قائلة:

- وإذا لم نعد، فهي حلال لك .

يُذكر اسم ضحى،...

فيضرب الزلزال ذلك النوبيّ الآبق من زمنه. من قدره. بوشمه. بما تركته القيود فيه من ندوب، وهو يبحث عن الحرية، في أماكن تعجّ بالصيادين، مليئة بأسواق النخاسة، والمال. يحوّل فيها الخوف الآبقين إلى أشباح. يزرعهم أجنّة في وضح النهار. يتكاثرون في الغسق ..

ضحى ؛ كانت الزلزال الذي حدث دون إنذار.

الزلازل لا تنبئنا بقدومها.

لا تخبرنا بما ستمحو من دروب.

وما تخلّف من صدوع.

تنقلنا إلى مكان جديد في قلب الزمن.

تستشري فيه وحوش لا تستطيع أن تردّها عنك.

إلاّ بيدك أنت.

لا بعصا نبيّ،

ولا بعصا ساحر .

أشار مرزوق لقشلق أن يتوقف عند هذا الحدّ، وسأله عن الجواري:

- أين يمكن أن يكنّ الآن برأيك ؟

- أعتقد أنهنّ في هذه الديرة. علمت بعد غيابهن أنّهنّ ذهبن برفقة الخليفة المتوكّل، حين كان قاصداً الشام. عاد الخليفة فيها بعد دونهن .

- هكذا إذاً !

ثم طلب من قشلق أن يتابع الحديث من حيث توقف..

بدا قشلق، وكأنما يتذكّر أين انقطع حديثه، ثم تابع:

- فجأة؛ ظهر من يزيد الطين بلّة على العباسيين. ظهر (الخبيث) كما كانوا يطلقون على صاحب الزنج. ظنّوا أوّل الأمر أنّه سينطفئ كفقاعة صابون، لكنّه كان يظهر، ويختفي كالأشباح. يقال لهم أنّه في البصرة، فيظهر في الأهواز. يقال إنّه في الأهواز، فيظهر في عبدان. يقال إنّه في عبدان، فيظهر في البحرين. يحمدون الله أنّه ابتعد، فيفاجأون بعودته معزّزاً بأنصار جدد. صرنا نسمع عنه حكايات

أغرب من الخيال. كان يدرجها صاحب الشرطة، وقادة الجيش في خانة الإشاعات. كان الخليفة المهتدي بالله محمد بن الواثق على خلاف مع قوّاده الأغراب منهم، ثم تحوّل إلى صراع رهيب معهم، منذ اغتيالهم المتوكل قبل ثلاث سنين، من ظهور صاحب الزنج المسلحّ، بعد أن أصبح هؤلاء القوّاد، القوّة الموجّهة لسياسة الدولة. كان على رأس هؤلاء، موسى بن بغا، وصالح بن وصيف وبايكباك.. (تصوّر يا مرزوق أنهم عذّبوا المتوكّل أمام أعيننا، وأذلّوه إذلال االـ ....!!ثم قتلوه)...

هنا يظهر عليّ بن محمد، صاحب الزنج، على حقيقته .

يخرج من موضع يدعى قصر القرشي في (برنخل)، وكان أوّل ما فعله أنّه قبض على خمسين عبداً لرجل يقال له العطار، كانوا في طريقهم إلى عملهم في كسح السباخ، ثم اتجه إلى موضع آخر فأخذ منه خمسمائة غلام ؛ وهكذا طفق يتجوّل في المنطقة المجاورة يتصيّد العبيد ..

كان مرزوق مستغرقاً في الإصغاء لقشلق. فجأة بدا على وجهه الامتعاض. لاحظ قشلق ذلك:

- كأنك لم تصدق ما أقول !؟.

- أكانوا مثل العصافير أمامه كي يتصيدهم !؟.

- الغريق يتعلق بقشة ! لقد كانوا في غاية التعب والإرهاق. .والجوع. . طعامهم لم يكن سوى شيء من السويق، والتمر ..

يقاطعه مرزوق:

- كلّ ذلك ليس مبرراً لأن يسوقهم أمامه بسهولة!.

- لا أختلف معك بهذا، فعليّ ابن محمد، أذكى من أن يضع ذلك فقط في حسابه. لقد كانت عينه على الراعي قبل القطيع!.

كانت لديه معلومات وافية عن وجهاء الزنج، فألقى يومها القبض على طريف، وصبيح الأعسر، وراشد المغربي، وراشد القرماطي، الذين وقفوا في صفّه على الفور، حين أبلغهم أن لا هدف له سوى إنقاذهم، ممّا هم فيه من بؤس، وشقاء.

في تلك اللحظات كنت قد وصلت إلى ذلك المكان، وأنا في طريقي إلى قرية الجعفريّة. زوجتي كانت في زيارة لأهلها بتلك القرية. توقفّت على جسر الترعة المقابلة لهم. شاهدت القرماطي آتٍ بجماعته إلى نقطة تجمّع يقف فيها عليّ، وأمامه المئات، وخلفه رجال بذات لون بشرته الحنطيّة، عرفت منهم عليّ ابن أبان. شاهدت وكلاء مالكي هؤلاء الزنج يتقدّمون نحو عليّ في مركز التجمّع. أحد رجاله راح يشير لآخر نحوي. أدركت أنّني قد وقعت في الفخّ. انطلق في طلبي خمسة من جنده يلوّحون بعصيهم. أحدهم صرخ بي من بعيد ألاّ أتحرّك. ساقوني أمامهم....أخرج اثنان من الوكلاء محفظتين جلديتين من ثيابهما في محاولة لإغراء عليّ بالمال لعله يطلق سراح العبيد، فأمر رجاله ببطح الوكلاء أرضاً، ودعا غلمانهم إلى ضربهم بالعصيّ. كانت تلك الواقعة أوّل عملية انتقام للعبيد من سادتهم، وبداية العداء ما بين علي بن محمد، وبين الملاّكين، ونوّابهم..

بعد فترة قصيرة طلب عليّ من الجميع الهدوء، والصمت، وألقى

خطبة قال فيها أنّه مرسل من الله رحمة بالعبيد، وسيضرب أعناق أسيادهم الذين استضعفوهم، وقهروهم، وفعلوا بهم ما حرّم الله عليهم أن يفعلوه بهم، وجعلوا عليهم ما لا يطيقون .

دبّ الحماس بالعبيد، فهاجوا تأييداً له، وفي الحال عقدوا حلقة من الرقص، وراحوا يرقصون بفرح. تلك كانت فرصة لي أن أتقدّم نحو عليّ، وأقول له: - إنّي فداك! .

أخذ بيدي، ونحّاني جانباً، وسألني من أكون، فصدقته القول. ربت على كتفي بيده. بارك اندفاعي مبتسماً لي. غمرني فرح عارم. شعرت بأنّني قشلق آخر يولد من جديد..

* * *

- ١٩ -

لم يكن في حساب قشلق أنّ وكيل المزرعة سيعود. لمحه قادماً على دابّته من بعيد. أشار لمرزوق أن يغادر المكان. ما هي إلاّ لحظات حتّى اختفى مرزوق بين الأشجار .

يصل الوكيل، وهو يجول ببصره المكان مستغرباً. قال بين الشكّ، واليقين يسأل قشلق :

- أأنت وحدك هنا !؟

دون أن تظهر عليه علامات الارتباك أجابه:

- أجل أنا وحدي هنا!

قال له الوكيل:

- كأنّي رأيت أحداً يتسلّل مسرعاً بين الأشجار، ويقفز من فوق السور الشرقي، ثم سكت متسائلاً في سرّه:

- لطالما يقول قشلق أنه لم يكن أحد سواه هنا، أيكون الشبح الذي يتحدثون عنه!!؟ (أضاف):

بعينيّ رأيته يقفز من فوق السور! (كأنما فطن لشيء ما):.. أووه .. أيكون العبد الذي رأيته صباحاً هنا !؟.

يسأل قشلق، ليقطع الشك باليقين. ينكر قشلق أنّ العبد مرزوق بقي عنده هذه الفترة.

ظلّ وسواسه حول الشبح هو الأقوى. الكذب دائماً أسرع، وأيسر بالتفريخ من الصدق، وحاضنته أكثر دفئاً، وقابلة ولادته أشدّ شغفاً به، وهي تقطع سرّته، وتضعه بين يدي أمه. .الحياة !

* * *

يتّجه مرزوق شرقاً. يسلك الطريق المحاذي لقناة(البويضة) يتملّى جبل قاسيون، وتلك السلسلة الجبليّة التي تنتهي عند قمّة حرمون. يتساءل في سرّه ؛ أيقصد الشام الرابضة مثل لبوة في حضن أشجار غوطتها، ولا يرى منها سوى بعض المآذن ؟.. أم يأوي إلى نفق القناة، فيستريح، وتكون لديه فرصة للتفكير بخيارات أخرى، بعد أن أطلق العنان لنفسه، دون أن يتوقف عند مفترق دروب، لأيّ منها نهاية، وهو الكاره للنهايات التي تقوده دائماً إلى استعباده من جديد!؟.

كان قد قطع المنطقة المكشوفة من القناة، ولم يكن يسيراً عليه ولوج النفق المغطى، بسبب النباتات الشوكيّة المتشابكة مع قصب النهر، وتدفّق الماء غزيراً في ذاك الموضع، وتحسّبه لأفعى قد تظهر فجأة، فلا يستطيع ردّها عنه، أو وحشاً ضارياً يأوي إلى هذا النفق نهاراً، ولا يكون بمقدوره الدفاع عن نفسه بسبب ضيق المكان، وشوكيّات الخارج، وعتمة الداخل .

من بعيد كانت امرأتان تستقلان دابتيهما، قادمتان من الحقول إلى مزرعة الحديثة لمحته إحداهما، فلاحظ أنها تشير إلى رفيقتها نحوه.

يقفز مجازفاً بنفسه إلى الماء. يتخفّى داخل النفق، متجاوزاً كلّ محاذير ولوجه فيه .

*   *   *

ألسنة النساء كانت الأشدّ براعة في تجسيد صورة الشبح، وتجديدها على نحو يقينيّ.

*   *   *

بات الذهاب إلى الحقول، والسير في الطرقات جماعيّاً. هو ما يتيسّر نهاراً. أمّا حين يأتي الليل، فتوصد الأبواب، ليبالغ هذا النسّاج البارع بحياكة ستار عازل كتيم، مما يُلفّق من أكاذيب وأوهام، يتوالد خلفه الزيف، ويكبر أولاد الحكايات، والأخيلة بكلّ تجلياتها، وصورها .

*   *   *

.. يخرج مرزوق بعد حين من قناة البويضة، التي كانت موحلة في ذاك النهار . يتابع السير متمهّلا، وحذراً، خوفاً من مفاجأة. يصل أطراف المدينة التي تتعافى في ظلّ حاكمها الجديد. يشاهد عبيداً يجرّون العربات المحمّلة بالحبوب، والخضار، نحو معدة المدينة الضامرة من الجوع، أو عبيداً يرافقون أسيادهم كالطواويس في عرباتٍ يجرّها هؤلاء العبيد بالتناوب، أو تجرّها الخيول. .يتذكّر الليلة التي يدخل فيها الشام للمرّة الأولى، والقيد في عنقه بسلسلته المنتهية في قبضة نخّاس، وكيف يُقدم لحاكمها. .تعصف به التداعيات . تعيده شوطاً، إلى سحابة عابرة، في حديث قشلق له عن ضحى، وأشواطاً إلى ضحى ذاتها، الجارية التي لا تزال نسائم الذكرى

تحمل طيفها كعصفورة جريحة، وتلقيه في قلب الهبوب، فيعلق في سياج كثيف الشوك، والظلّ، ويصحو من شروده بها، على تلاشي طيفها من جديد ..!.

يتذكّر وطفة، التي شغف بتحدّيها له. يتذكّر الوجوه التي ألفها في جبل بدران. يستعرض ما كان يبتسم له منها، وما كان يضمر له ما لم يستطع تفسيره. يخزه ذلك العهد السرّي لأبي ثامر، أن يظلّ وفيّاً لخبزه، وملحه، وألاّ يخذله إذا ما دعت الحاجة إليه، ليكون سيفاً تحت الطلب..

يدخل عباب المدينة. يهيم على وجهه فيها. لا يعرف تماماً ما الذي ساقه إليها سوى بارق من حدس أن تكون ضحى في أحد قصورها. كان مشوشاً ..!.

خريطة طريقه يعميها غبار أيّام، شموسها تشرق، وتغيب على قلق وخواء. دروبها كثيرة ومتشعّبة. كلها تقطّعت تحت قدميه..

انقطعت به عند أمّه.

.. وفي سامراء.

.. وفي وداع ضحى.

.. وفي الموصل كعبد.

.. وفي بساتينها كشبح.

.. وفي جبل بدران كلاجئ..

يتساءل حائراً؛ أيّ الخيوط يصل منها ما انقطع ليبدأ من جديد، أم

يسلك دروباً في هذا المجهول من التيه، أم يشقّ دروباً جديدة، ويسحق صخرة العبوديّة الجاثمة في عقله، وعقل أمثاله !؟.

كان كلّ ما يخشاه أن يكون شبح العبوديّة كامناً له عند مفترق ما، أو منعطف ما، أو ينقضّ عليه من عالم الغيب، في هيئة حمامة.. أو نسر، أو صاعقةٍ من سماء. .يسقط في جبّ الأسئلة. .في قاع ليس له قرار .. أيعيش حرّاً على هذا النحو ؟ وأيّ معنى لهذا الانفلات ؟ يتساءل. .أيعود إلى الأرض التي ولد فيها، وهناك لا يعرف ما ينتظره، أم يعود إلى سامراء، أم يظلّ في البلاد الشاميّة، ويلجأ إلى إحدى مزارعها، ليعمل في الحقول، أم يذهب إلى حاكميّة المدينة، ويقدّم نفسه لواليها كجنديّ، أو كعبد لا فرق!؟ يقف عند مفترق دروب كثيرة. تنعطف قدماه نحو المجهول. يجد نفسه أمام جامع المدينة الكبير، والمصلون يخرجون بعد أدائهم صلاة العصر . يلمح وجهاً رآه من قبل. وجه شابّ يرتدي جلباباً أبيض .يعتمر طاقية بيضاء، توحي أنّه من الشباب المتديّنين حديثاً، والمولعين بالدين. يلحق به خلسة. يلاحظ الشابّ ذلك، وتُثار شكوكه. يتيقن مرزوق أنّه الشاب، الذي كان على النطع ذات يوم، ولولاه لكان الآن في عداد الموتى. .توقف الشابّ أمامه. سأله مشكّكاً :

- أراك تتبعني. أتريد مني شيئاً ؟

- أنا عرفتك، فهلاّ عرفتني ؟

راح الشاب يتأمّله محاولا تذكّره ، فلم يفلح. قال له مرزوق مؤكداً:

- أنا السيّاف الذي أنقذتك من الموت ذات يوم. اكفهرّت سحنة

الشابّ، كأنّما تذكّر ذلك اليوم. أجابه خائفاً من أن هذا العبد يضمر إلقاء القبض عليه من جديد:

- لكنّني تبرّأت من هذه العقوبة فيما بعد! .

- كيف ؟

- برّأني حاكم المدينة الجديد.. ولا أزال أحفظ لك ذلك الجميل. يستدرك قائلاً له:

- حديثنا سيطول. ستذهب معي إلى المنزل . إنّك الآن ضيفي. لا تحاول أن تعتذر عن تلبية دعوتي لك..

عرف كلّ منهما اسم صاحبه، وهما في طريقهما إلى منزل عبد الله، الذي حمل اسم حنّا في بلدة معلولا، وتشرّب فيها الكثير من تعاليم السيد المسيح، وتعلم اللغة، التي يتحدّث بها أهل البلدة في شؤونهم اليومية.

احتفى عبد الله بمرزوق في منزله الذي لا يختلف بمكوناته من الداخل عن أيّ منزل شاميّ عريق مغلق على بحيرة تتوسّط باحته، وجدرانه المكلسة البيضاء، والنقوش الشرقيّة التي تزيّنها، وأبوابه التي من خشب الزان، ومقرنصاته، وسقف (المنزول) ، الذي استضيف به مرزوق، وما فيه من تحف.. و.

كلّ ذلك لم يدهش هذا العبد. كانت الأبّهة بالنسبة إليه، ليست أكثر من فضاء ضيّق يعتاده المرء، كما تعتاد الطيور أقفاصها. قدّم له عبد الله، ممّا لذّ وطاب من طعام، وحلويات، وفواكه، وشراب.

يسترسل عبد الله بحديثه لمرزوق، بقصد تسليته. لم يبالغ بما حدث معه، بدءاً من لحظة فراره من النطع، حتى اللحظة التي التقيا بها ذاك اليوم. لم يثر مرزوق ممّا سمع سوى تنقله بين معتقد ديني، وآخر بهذه البساطة، فروحه القلقة كانت تحلّق به في فضاءات أخرى، وأمكنة أخرى، معتبراً لقاءه بعبد الله ليس أكثر من مصادفة، كأيّة مصادفة يرتّبها القدر، لئلاّ ينقطع خيط التواصل بين البشر، وليظلّ التواصل فيما بينهم ممكناً .

يلاحظ عبد الله لامبالاة مرزوق، الذي بدا شارداً، فسأله:

- ألم يعجبك ما أقول ؟

- بلى.. أعجبني منه حسن تصرّفك، وما قد يعتبره سواي التواء، أو رياء..

- عليك أن تصدّق بأن لا فرق عندي بعد الذي جرى معي سواء أصليت في جامع، أو كنيسة، لكن ستفعل، وأنت محكوم بمعتقد المكان، الذي رضعت فيه حليب الأم. كلنا خلق الله. كلنا أبناء آدم وحواء أهل معلولا، تركوني على سجيّتي، وهواي. (يبتسم).. أليس من الجيّد أنّني الآن اثنان بواحد !؟

هنا وهناك يختلفون حتى بسوق أبنائهم ترغيباً، وترهيباً، ليسيروا على طريق إيمانهم. الكلّ يبحث عن الله. هناك رأيت الله مثلما أراه هنا..

يسأله مرزوق عن أكثر ما أثار فضوله في معلولا، قال:

- تلك المغاور، والكهوف التي سكنها الإنسان الأوّل، وذلك المكان الذي لجأت إليه القدّيسة تقلا، وغدا مكاناً مقدّساً، ومحجّاً للناس،

بجميع أطيافهم، ومذاهبهم، ويلجأ إليه الزاهدون بالدنيا. حدّثه كيف لجأت إليه، وهي صبيّة، ودخلت في سلك الراهبات بعد محاولتها الانتحار غرقاً ذات يوم، وأرسل الربّ لها ملاكاً من عنده، ورأت كما لو أن نوراً بهيئة إنسان بدا لها كقطعةٍ من ليل تختطفها من يد الموت، وتنتشلها من قلب الماء، وتختفي، وكأنّ شيئاً لم يكن. صحت على أنّها كانت سترتكب إثماً، فوجدت بانسحابها من دنيويّة الحياة غفارة لها. إنّها أوليا، التي انتشرت حكايتها بين الجميع..

لم يقل له مرزوق أنّه الذي أنقذ أوليا، لكن أن يكون المنقذ ملاكاً، أو أن يغدو ملاكاً لمجرد قيامه بمثل هذا الفعل، الذي قد يقوم به أيّ امرئ حيال امرأة تقتل نفسها، فهذا هراء!

لم يرق له أن يكون ملاكاً، حتى لا يدخل دائرة لا يستطيع الخروج منها، حين اعتبر هذا الأمر ليس أكثر من أنشوطة في عنقه، قد تخنقه عند خطيئة ما، لم تكن في حسبانه.

حدّثه عبد الله عن صولات أبيه في عالم التجارة، والأرباح الخيالية التي كان يجنيها، وشطارته في حسابات العرض والطلب، وما كان لتقواه من دور، في استئمان الناس البسطاء له، بإيداع ما لديهم من ذهب، وفضة، ولقيّات، وأموال، واستثمار منها لمن يرغب بشيء معلوم، له، ولهم..

حدّثه عبد الله عن العبيد الأُبّاق الذين كان يرأف أبوه بهم، ويحميهم، إلى أن يجد حلولاً لمشاكلهم مع أسيادهم. عن جوار ينقذن من مصائر مروّعة يتعرّضن لها.

قاربت زيارة مرزوق النهاية، عندما حدّثه عبد الله عن جارية اشتراها والده، بقصد تقديمها كهديّة للقاضي، عرفاناً له بالجميل لتبرئته، وراح يصفها له:

«رأيتها من خلف ستارة عليّتي تساعد أمّي على سقاية الورود في جنبات صحن الدار، فشبّ قلبي معها، وهي تتنقل بين حوض، وحوض، وأصيص، وأصيص. كانت مثل قمر تتنقل، وترشّ الماء على الورد» !.

سمعت أمّي تسألها معجبة:

- من أين لك كلّ هذا الجمال يا ضحى ؟ توقف قلبي عن الخفقان حين التفتت نحو أمّي، ورفعت رأسها إلى السماء، وهي تشير، لأرى ذلك الوجه الصبوح الملائكيّ. .أجابت، وهي تشير بسبابتها إلى الأعالي:

- من عند ربّي!

... يتوقف أيضاً قلب مرزوق، حين سمع اسم ضحى. تساءل في سرّه أتكون ضحى التي لا أعرفها ؟!

مع مغالبة الدهشة لمرزوق، يسارع إلى سؤال عبد الله عن أوصافها. يتطابق الوصف تماماً مع ضحى التي يعرفها. لون البشرة. العينان. القامة..

قال عبد الله مستدركاً:

- لكن سفر القاضي، مع ابن طولون إلى مصر جعله يستأمنها لدى أحد أعيان المدينة، ريثما يعود القاضي من الديار المصرية.

راح مرزوق يداوره بأسئلة تفضي تعالقات الإجابات عنها، إلى معرفة المكان، الذي قد تكون فيه ضحى.. وممّا قالته الأم لابنها عبد الله:

- لدى صاحب القصر المؤتمنة لديه ضحى، لا يمكن أن تكون في قصره. الأرجح أنها في إحدى مزارعه الكائنة عند طرف المدينة الشرقيّ.

سأله مرزوق إن كان يعرف شيئا عن هذه المزارع. أجاب :

- لا أعرفها تماما، ولا أعرف أيّها له، وأيّها لسواه..

* * *

- ٢٠ -

.... وتجري الرياح بما لا تشتهي سفن مرزوق . يقصد طرف المدينة الشرقي. يسلك طريقاً تحفّ به أسوار المزارع، والأشجار الظليلة بجانبيه. غابتان من شجر عن يمينه، وشماله. سواق تقرقر مياهها عن قرب، وعن بعد. طيور تغرّد في جوقات لا يشاهد منها إلاّ قريبها إن تنقّل، أو طار من شجرة لأخرى، أو كان يحلق في فضائه. سحره المنظر، وهو يتبدّل مع متابعته السير.

ينكسر المشهد عند زنجيّ نائم تحت شجرة جوز لا يحدّها سور. يتملّى مرزوق سمرته الداكنة. شعره المجعد آثار وشم على كتفه الأيمن .

يحسّ الزنجي بوجود مرزوق. يحدّق به. يؤنسه حضوره المفاجئ. ينهض، ويجلس. يجلس مرزوق قبالته بعد إلقاء التحيّة. يقول معرّفاً بنفسه : أنا مرزوق.

- وأنا ممهي..

دون مقدمات يشرح له ممهي قصّة طرده من مزرعة أبي محمود..

يسأله مرزوق عن مزرعة القاضي. عن ضحى. كلّ أسئلته كانت تصطدم بجدار: لا!

يطغى على لاءات ممهي رجاؤه لمرزوق، كي يتوسّط لإعادته إلى

مزرعة أبي محمود. أكّد له أن طرده كان دونما سبب، لكنّ مرزوقاً لم يصدّق. مع ذلك وعده بأن يقابل أبا محمود، ويتوسّط له كي يعيده. ألحّ عليه ممهي أن يذهب على الفور، وقبل أن يغادر أبو محمود المزرعة . إذ سيظلّ شريداً لو أقفل بابها، وغاب.. (وأيّ أمل بتوسّط عبد لعبد. ذلك كحلم إبليس بالجنّة) ذلك ما جال برأس مرزوق في لحظة خاطفة!

يعده مرزوق أن يعود في اليوم التالي، معللا ذلك بـ(ربّما كان طرده، بسبب أمر عظيم. حينها سينال حصّة من غضب سيّده، أو تسير الأمور إلى ما لا تحمد عقباه، من ردود أفعال هو بغنىً عنه.

* * *

يعود مرزوق في اليوم التالي إلى المكان ذاته، على أمل أن يكون أبو محمود في مزرعته كي يتوسط لممهي. يجد ممهي نائماً تحت الشجرة ذاتها. يوقظه. يحاول أن يصطحبه إلى المزرعة، فأبى. .يتركه. يقصدها وحده. يلتقي بأبي محمود. يطلب منه أن يستعيد عبده. يرفض. يلحّ عليه بالطلب . يصرّ على موقفه، وقد بدا حانقاً. متوتّراً. يظهر الغضب عليه جليّا، وهو يشرح له سبب رفضه. قال لمرزوق :

- (أعتقد أنّني الوحيد الذي لم يعامل عبداً مثلما أعامل ممهي. .لم أعامله كعبد، بل كحرّ. المشكلة فيه. حرّرته من قيود يديه. قدميه. عنقه. أدخلته داري. اصطحبته لصلاتي. ألبسته ثيابي. جمعته بأصدقائي. أعطيته الحريّة بأن يزرع ما يشاء، وأن يربّي من الحيوانات والطيور ما يشاء. .ما الذي كان يحدث؟ أحمل زوّادة إلى المزرعة. أفردها لنأكل

معاً. ينتظر لأقول له : كُلْ. أقول له : كُلْ . ينتظر لأناوله رغيف الخبز. أعطيه الرغيف. ينتظر لأضع له الأدام. يحمل طعامه، ويجلس بعيداً عني. حتى طريقة جلوسه ظلّت أقرب إلى الإقعاء. مع كلّ لقمة يقضمها ينظر إليّ كمن يستأذنني مضغها وابتلاعها. من كلّ حيوانات المزرعة وطيورها . لم تستهوه سوى الأتان، وطائر الكوكو الذي جلبته في قفص خلال إحدى أسفاري. أعطيته نقوداً ليذهب إلى السوق، ويشتري ما يشاء من لباس أو سواه، فاشترى سعداناً صغيراً من قرداتيّ مصريّ. كان السعدان مريضاً. لم أعترض على تلك الشروة. بعد أيام مات هذا الحيوان، وهات يا بكاء.. جعل ممهي للسعدان قبراً قبالة غرفته.. وغير هذه المناكفات الكثير. كل ذلك لم يكن له عندي أيّة أهميّة.

كنت ألوذ بالصبر، وأعلل نفسي بالأمل، أنّ ممهي لابدّ أن يتغيّر مع الزمن، وفعلاً تغيّر ؛ إنّما لما هو أسوأ. صار يغافلني، أو يستغفلني، ويفعل ما أنا أريد أن أفعله، أو يخمّن أنّني أنوي فعله. صار يتقرّب من الأولاد، لا لشيء ؛ إلاّ ليتصدّقوا له ممّا في يدهم من كعك، أو حلوى، وأنا لا أبخل عليه بشيء من هذا. ضبطته أكثر من مرّة يتلصّص على البنات . بناتي، لا لشيء، إلاّ ليحاول أخذ دوري، ودور أمهنّ في تربيتهنّ. كلّ ذلك يهون أمام أمر كان من الصعب السكوت عليه : زوجتي!.. صار ينتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر، وذلك ما تيقّن لي، وما كان يوحي لي شعوري، وإحساسي به. أحجم عن الذهاب معي إلى صلاة الجمعة، وراح

يقنعني بإمكانيّة الصلاة، والعبادة في أيّ مكان، ذلك ليظل قريباً من زوجتي التي تتنزّه مع الأولاد في المزرعة كلّ يوم جمعة، لأنّ أعمالي تفرض عليّ، أن تكون عطلتي الأسبوعية في مثل هذا النهار... وهذا قد يهون أيضاً، لكن أن يشتطّ أكثر من ذلك ؛ فمسألة صعبة، لا يمكن بأيّة حال أن تحتمل. صار يغار عليها أكثر منّي. يغار عليها حتى من كلب المزرعة، وهي تداعبه، أو تطعمه. ضبطته حين عدت من الصلاة ذات مرة يجلس على كتف ساقية قبالتها، وهو ينظر نحوها مشدوهاً. خاطبته باسمه مرّات عدّة حتى انتبه لي.. قلت له بعد تلك المفاجأة، التي لم تكن تخطر على بال:

- ما رأيك أن أزوّجك يا ممهي ؟

قال بحدّة:

- لا. لا!..

قلت له:

- سأطردك من المزرعة، إذا لم توافق على الزواج !؟

أجابني غاضباً، وعروقه تكاد تنفر من رقبته :

- لا. لا..!

شعرت في تلك اللحظة أنّ ممهي كان في داخله يتهيّأ له، أن زوجتي هي زوجته، وهو زوجها الأصيل، وأنا طارئ أعتدي عليها..

قال لمرزوق أخيراً:

- لينصرف ممهي من هذه المنطقة نهائيّاً، وإلاّ سلّطت عليه كلابي، فلديّ من الزعران من يأتي لي به مشوّياً. أفهمت !؟.

* * *

آلم مرزوق ما صار يسمعه عن أحوال العبيد من رجال، ونسوة، وغلمان، وأطفال، وما آلت إليه حياتهم بعد أن كانوا يعوّلون الكثير من الآمال، والأحلام الوردية، على ثورتهم، التي لم يبق منها سوى قلّة ألقتها الهزيمة إلى الشتات في الأرض. راح يتعرّف إلى من يشاهده منهم عن كثب، ليعرف حقيقة ما جرى، ويعرف عن أحوالهم شيئاً، لعله يفعل شيئاً ما. كان كل شيء غائماً. غامضاً. ملتبساً بالنسبة إليه، ولا يريد أن يسمع ما تنقله ، أو تروّجه ألسنة المنتصرين من حقائق .

مرزوق يطوف المدينة..

مرزوق لا يعرف النهاية الوخيمة التي حلت بممهي. .الضربات التي تلقّاها ممهي على رأسه، لم تترك فيه ذرّة من عقل.. (المجنون ممهي) هو ما تركته الأيّام لذاكرة المدينة .

* * *

- ٢١ -

العبيد : (مكرود ـ زنزار ـ لاشياما)...

...على اتّساعها، كانت المدينة تضيق بمرزوق كلما شاهد عبداً ينتظر المجهول، عند قارعة طريق، أو نائماً في فيء شجرة، أو في ظلّ جدار. متاعه من الدنيا يدان فارغتان، أو صرّة ليس فيها أكثر من كسر خبز يابس، وحبّات زيتون، أو قطعة من قمر الدين حوّلتها حرارة الشمس، إلى عجينة تداخل فيها الزيتون بالخبز، أو بقطعة جبن رائحتها المتعفنّة لا تطاق.. يؤثر مرزوق الخروج من المدينة، والالتحاق بأيّة قافلة تجاريّة في طريقها إلى الديار المصرية. لم يكن له ما أراد. كانت إحدى هذه القوافل تتأهّب للمسير، بعد أن تجمّعت أمام خان باب الجابية الكبير.

يرفض وكيل القافلة اصطحابه، كما ويرفض اصطحاب ثلاثة سواه، كانوا يلحوّن عليه، ليكونوا عبيداً له، يخدمونه، ويحرسون القافلة.

يعرفهم مرزوق فيما بعد:

.. الأول: (مكرود)، قال اسمه بعربية مكسّرة، أي «مقرود».

.. الثاني: (زنزار)، أي «جنزار»

.. الثالث: لاشياما..

يصعقه الندم على تسرّعه باتّخاذ مثل هذا القرار.. فهو أين سيذهب، أو سيرتحل، سيدخل الفضاء - الذي تنزع إليه، أو تتطلّبه روحه- من عنق زجاجة، وهو لا يرى منه إلاّ كمائن النخاسة المزروعة، في كلّ مكان، بعد أن غدت تجارة الرقّ، أكثر سيلاناً للعاب الوالغين، بعشق المال لدرجة الجنون، والموت في سبيله ..

يعلم مرزوق أنّ سواحل قارّته السوداء، هي الأكثر إغراءً لذلك النهم الوحشي، لكنّه لا يعلم أنّ التجّار اليهود، صارت يدهم هي الأطول، بهذه التجارة، وأنّ التجّار الأوربيّين، صارت لهم مواضع أقدام على طول تلك السواحل..

الشيء الذي لا يعرفه مرزوق هو أنّ ابن طولون، لم يستطع أن يحمي الديار المصرية، من أن تكون ممرّاً لقوافل العبيد المتّجهة، إلى ريف إيطاليا الجنوبي، أو إلى سواد العراق، أو إلى أن تكون وقوداً للحروب على الأرض، في أيّ مكان تشبّ فيه نارها..

قال مقرود لمرزوق: خذنا معك!

جنزار، ولاشياما، يحدّقان بمرزوق بتوسّل، أن يفعل ذلك، بعد أن ضاقت بهما سبل العيش الحرّ، في الوقت الذي لو شاء مقرود أن يبيعهما، أو يرهنهما لفعل ذلك ، مع انّه عبد مثلهما، لكن تواجده في المدينة من قبل، شكّل لديه خبرة أكثر، وصار أدرى بتفاصيل الحياة فيها، وفشل مراراً في سعيه ليجد عملاً كحرّ..

قال مرزوق في سرّه:

- لابدّ من جبل بدران إذاً ؛ ثم أزمع أن يقول لهم واثقاً:

- هيا..!؟

* * *

كانت قافلة الحج إلى بيت الله الحرام، قد انطلقت صباح ذلك اليوم من المدينة، ولم يصل الأربعة إلى طرفها الجنوبي، حتى كان طريق الحجّ، والدروب المتشعّبة منه، وإليه، يعجّ بجند الحراسة المأمورين من قبل الحاكميّة بقطعها، ومنع حتى المزارعين من الوصول إلى بساتينهم، وحقولهم لهذا الغرض .

استطاع الأربعة التسلل عبر البساتين، حتى وصلوا إلى قناة (بولويز)التي يعرفها مرزوق تماماً، وتخفّوا في نفقها الغربي، حتى حلول المساء. .خرجوا ليلاً من القناة، وخرجت معهم قصّة الأشباح من جديد، حين كانت آخر مفارز الجند عائدة من مهمّتها، بعد تسليم صاحب الشرطة هذه المهمة، لزعيم عشيرة مكلفة رسميّاً، بحراسة طريق الحجّ، على طول الطريق عبر الديار الشاميّة، بدءاً من نهاية الغوطة الغربيّة، وانتهاءً بأطراف بادية الشام..

.. الذعر الذي أصاب المفرزة، جعل حكايات أفرادها الذين شتّتهم الخوف، والتي نسجها خيالهم المشوّش، حكايات أقرب إلى الحقيقة، وسرعان ما انتشرت بين صفوف الحامية، وفي المدينة، وضواحيها، يضيف إليها الخيال الشعبيّ، صوراً ممعنة في شطط البعد عمّا في الواقع من صور، كأن يكون الشبح بارتفاع مئذنة، أو أن تكون له عين واحدة، في منتصف

جبينه، أو انّه يقذف النار من فمه، في وجه عدوّه. كان كلّ ذلك يهيّئ للحرّاس الليليين في المدينة نوماً هانئاً، لا باب فيها يُفتح. لا أحد يسير في شوارعها ليلا، سوى المجنون «ممهي» الذي كانت صورته - ربما - واحدة من هذه الصور. أحدهم قال لهم عن هذه الأشباح:

- لا أشباح في هذا الكون. الأشباح في رؤوسنا فقط. انزعوها من رؤوسكم. المستفيد منها ليس إلاّ من يصنع الأبواب، والتوابيت. أيضاً صاحب السوط. أيضاً من يولّي فاسداً، فيصوّره للناس شبحاً، كي يفعل ما يشاء!!

* * *

... كان ثلاثة فرسان من عشيرة حراسة طريق الحجّ، يجوبون السهل الممتدّ حتى طريق حوران، بينما كان مرزوق، ومن معه في الجهة الغربية منه .

ينفرد أحد الفرسان. يطلق العنان لجواده نحوهم. يمتثلون صاغرين أمامه، بينما جواده يشقّ فضاء السهل بصهيله:

- ماذا تفعلون هنا ؟ سألهم.

- لا نفعل شيئاً، بل قصدُنا جبل بدران. أجابه مرزوق.

- هَهْ، جبل بدران ! وماذا تريدون من جبل بدران ؟

- الشيخ أبو ثامر..

- علّم يا عبد!

- الرجل كريم!

- لا يكفي! ؟

- خيوله أصيلة!

- لا يكفي! ؟

- فارسة الفرسان، وطفة!

فكّر الفارس قليلا. شدّ العنان . لوى رأس جواده:

- على رسلكم.. (وانطلق الفارس عائداً. كان الفارسان بانتظاره بعيداً. قطع العبيد شوطاً آخر من السهل، وهم في صمت مطبق).

تعتلج في صدر مرزوق هواجس مبهمة .يسأل نفسه :

- ماذا لو سألني الشيخ، أو غير الشيخ عن صحبي هؤلاء ؛.. أأجيب : لا أعرف عنهم شيئاً! ؟ (قال لهم):

- لا تزال أمامنا مسافة طويلة حتى نصل جبل بدران. هناك سُأسأل عنكم ؛ فالبدو محاذرون، ولا يسكتون عن جهلهم بالغرباء. يجب أن أسمع منكم كلّ شيء. التفت إلى مقرود:

- هات ما عندك !؟

- من أين أبدأ لكم حكايتي ؟ سأله.

- من أوّلها..! أجابه.

« أجدادي الأوائل من رأس النيل الأعلى. أحدهم تزوّج من غير قبيلتنا. طُرد. يقال أنّه تزوّج من امرأة كينيّة، وعاش عند ذويها، وصار له نسل بالمئات. الثاني لا يزال نسله في النيل الأعلى. الثالث، جدّي لأبي.

استرقه مصريّ، ثمّ فرّ منه، والتحق بقافلة للمسلمين قاصدة فرات البصرة. كان ذلك أيّام مصعب ابن الزبير. الأعمال الشاقّة، والمذلة، والجوع . كلّ ذلك جعل من العبيد الزنج، وسواهم، هناك، يأتلفون ويثورون في وجه الملاّك. احتلوا المزارع، وطردوا أصحابها. تزوّجوا وأنجبوا . تكاثروا حتى ضاقت المزارع بهم. تمدّدوا نحو البصرة، ومنهم من صار يزعج أهلها ؛ فأرسلوا وفداً إلى الوالي خالد بن عبد الله القسريّ، وكان سريع الاستجابة لمطالب الوفد. أرسل جيشاً فرّقهم، وقتل من قتل منهم. بعد حوالي خمسين عاماً جُلبت إلى هذه المنطقة أعداد كبيرة من الزنج للعمل في الزراعة، واستصلاح الأراضي، وشقّ أقنية الريّ، وبناء السدود، والجسور »..

رفع مرزوق يده في وجه مقرود، كي يتوقّف عن الكلام، وسأله ممازحاً:

- وهل كنت معهم !؟

- نعم كنت نطفة في ظهر أب لم يولد بعد. الزنجيّ قد يتناسى لسع السياط، والألم، ولكنه لا ينسى حامل السوط.. ما أقوله تحفظه حتى حبّات التراب في فرات البصرة عن ظهر قلب.

- أنا لا أريدك أن تسكت يا رجل. تابع..

لم نخلق زنوجاً لنكون عبيداً.! .

أجابه مقرود، وغيمة حزن شوّشت عليه مسار حديثه:

سأختصر لكم الحكاية.. أتدري من كان من جدودي يا مرزوق ؟ إنّه رباح، أسد الزنج، (شير زنجي) بلغتنا، وكنت أحمل اسمه حتى كبرت .

كم تلقّيت من الركل على قفاي من السيّد الذي ساقني للوالي، لأكون جنديّاً في جيش العباسيّين، لا بسبب هذا الاسم، بل بسبب اللقب. لم يقل لي مرة يا رباح. .بل يا شير كإهانة. لم أتصوّر أحداً أذلّ عبده كما أذلّني. تخلصت من اسم جدّي في الجيش. قلت لهم :

- اسمي مقرود، وانتهى الأمر..

.. أعود للحكاية:

«في عام ٧٥هـ كانت الأحوال في العراق لا تسرّ أحداً.استغلّ الزنج الوضع، ونصّبوا جدّي رباح زعيماً، ولقّبوه أسد الزنج، لكن في السنة ذاتها. .مالت كفّة العباسيّين على الأمويّين، فراحوا يضمّون الزنج لجيشهم بالآلاف. قويت شوكة الزنج في الجيش العباسيّ. (ولما وليّ يحي بن محمد الموصل، كانت معه جماعة كبيرة منهم.. ؛ فلما فعل ما فعل من الإسراف في قتل الرجال والنساء والأولاد قبّح الزنج في اغتصاب النساء، فاعترضت يحي امرأة، وعيّرته بتسليم النساء إلى الزنج، فأثّر فيه كلامها، وجمعهم للعطاء فلما اجتمعوا أمر بقتلهم عن آخرهم نجا واحد منهم).. لولاه لما كنت بينكم الآن، ذلك الجدّ فرّ إلى العراق الأدنى. تزوج عبدة مثله، ومن سلالتهما أنا. أمّا حكايتي، فتحتاج لأيّام كي أرويها لكم بتمامها دون نقصان. اسمعوا حكاية هذا المقرود:

كانت أمي تقول دائماً:

«حرام على العبدة أن تفتح رجليها لرجل!

يوم فعلت ذلك واستسلمت لوالد شير فتحت عليّ أبواب جهنم.

الكارثة في بطن تنتفخ على جوع.

قطعت سرّة شير بين تلال الملح.

لم يشأ «ابن بردودا» أن تساعدني عبدة عند المخاض.

ولد شير في يوم أسود. في يوم لم يقدّم لنا به أيّ طعام.

طيلة ذلك النهار كنّا نأكل الهواء، وأرضع شير حليبي المرّ ممزوجاً بعرق التعب.

كلّ نهار تحمله نخلة،

والهواء يهز له هذا السرير، أو الشمس..

كان في رأسي عقل دودة، يوم زحفت إلى رجل،

وعقل كلبة يوم فتحت رجليّ لرجل..

لتمت العبدة التي تلد، وتربي عبداً لأوباش هذه الدنيا»..

كانت ولادتي سنة ٢٣٠هـ. سنة عواصف، وجوع..

كبرت فوق سباخ العباسيين، وبين حرابهم، وقاتلت إخواني الزنج بسيفهم. كانت دماء الزنج تسيل على جبهتي القتال في أي معركة كان يشنّها قادة صاحب الزنج علي ابن محمد، أو قادة جيش الخليفة أبي أحمد الموفق. بقيت تحت إمرة ابنه هارون حتى انقلب السحر على الساحر، وانتصر جيش الخليفة في كل معاركه حتى سنوات الحصار الأخيرة على ما تبقى من جيش الزنج ما بين ٢٦٧ و ٢٧٠هـ إذ شارك الخليفة بنفسه في

القتال، بعد أن غادر بغداد لنجدة ابنه، فجاء جيش ضخم، وأسطول كبير من الشذا، والسيمريات، والمعابر..

كنت حينها قد التحقت بكتيبة الفرسان التي كانت تحرس هذا الأسطول من البرّ. التحاقي هذا لم يكن منّة. قبل تلك الأيام بفترة، كنت في المشاة، وهزمنا قوات صاحب الزنج، في موقعة جرت بين قرية الرمل والرصافة. انسحبت هذه القوات إلى «طهيشا» التي وُلدت عندها. كنّا نشنّ عليهم الغارات، وكانوا أبرع منا في غاراتهم علينا. .كانوا يظهرون لنا من بين النخيل، أو من الأنهار مموّهين بالبردي، وبالحلفاء كالأشباح. كانوا يشقون الأرض، ويطلعون في وجوهنا كما الجنّ. قتلوا الكثير منا، وقتلنا الكثير منهم. .

تجمّع الزنج من جديد في (طهيشا، وسوق الخميس والصينية) (١)، فلاحقناهم. استطاع الجيش أن يستولي على (الصينيّة)، وأخفق بالاستيلاء على ما عداها. جعل الجيش هدفه احتلال مدينة «المنيعة»، التي بناها القائد الزنجي سليمان بن موسى الشعراني كعاصمة للزنوج في سوق الخميس في نواحي واسط، وفشل في احتلالها..

جاءتنا الأوامر لتطويق فرقة زنجيّة في «عبدسي» يقودها (ثابت بن أبي دلف) ، و(لؤلؤ). تمّ أسر ثابت، وقتل لؤلؤ، وقتل وأسر الزنج الكثير من جندهما، ومن كان معهم من الأعراب. استولينا على الكثير من الغنائم. كان من نصيبي فرس دهماء قتلت فارسها.

---

(١) طهيشا ـ سوق الخميس ـ الصينيّة ـ المنيعة : (أسماء أماكن).

كنت أحد أفراد المجموعة التي ألقت القبض على ثابت، وقيّدته. لم يكن من السهل علينا ذلك. قتل سبعة منّا، ولم يلق سلاحه ويستسلم. سار أمامنا مقيّداً لنسلمه لهارون. ما الذي حدث ؟ كان مع كل كلمة ننهره بها ليسارع الخطو، يلتفت ويبصق علينا..

فيما كان مقرود مسترسلاً بحديثه، كان مرزوق شارداً يفكّر بتلك الأحداث، التي يرويها زنجيّ يقاتل عبيداً مثله، ودون أن يرفّ له جفن. أغضبه ذلك. لم يستطع أن يبتلع قصة رجل ينحرف مساره من الجدّة إلى اللامبالاة. راح يكوّر بصقة في فمه. لاحظ مقرود ذلك، فغالبه الضحك. أشاح مرزوق بوجهه جانباً، وتفّ ما في فمه .

قال في داخله مبرراً لمقرود لامبالاته، وبالتالي ضحكه:

- ربما لم يكن أمامه من سبيل ليفعل غير ما فعل!

قال لمرزوق مبرراً لنفسه ما كان يفعل :(من يأكل من خبز السلطان يضرب بسيفه)! .

.. قال هذا المثل، وانتظر رد فعل مرزوق.

سأله مرزوق مستغرباً ضربه لهذا المثل:

- ومن يأكله السلطان ماذا عليه أن يفعل. .!؟

- أنت ماذا كنت ستتصرّف لو كنت مكاني ؟

- لو انّك تعرف قصّتي، لطمرت نفسك بالتراب خجلا، وتكفيراً عما ارتكبت من ذنوب.

- أي ذنبٍ ارتكبته ؟ لم يكن باستطاعتي حينذاك أن أفعل شيئاً. قال مقرود.

- خنت أمّك ! أجابه مرزوق .

- يبدو أنّك لا تريد أن تسمع بقية الحكاية .قال مقرود.

- لا أريد أن أسمع مثل هذا الهراء. التفت مرزوق إلى جنزار قائلا له:

- وأنت ؟. .هات أسمعنا. لكن إذا كان ما ستقوله تباهياً ببطولاتك، يُستحسن أن تظلّ على صمتك .

بلع جنزار ريقه، وخفض رأسه:

- لم أكن بطلا لم أقتل أحداً وجهاً لوجه. كنت حرّاقاً في سفن النار . كان كلّ ما أقوم به، هو إشعال النار في الحرّاقة، ورؤية ما يشتعل .

- إخرس! أجابه مرزوق على الفور،وأضاف : وكنت تشتعل فرحاً حين ترتفع ألسنة اللهب في الجانب الآخر، أليس كذلك ؟ أليس هذا ما كان يحدث ؟!

لاذ جنزار بالصمت..

راح لاشياما يروي قصّته بعد إلحاح مرزوق عليه :

«حاولت مراراً أن أعرف نسبي. سألت. .بحثت، عييت. لم أصل إلى الحقيقة. كلّ ما عرفته أنّني من أمّ غانيّة. ربّما!

أمي لا أعرفها. كنت في المهد حين غرقت في النهر، أو أغرقت نفسها، أو أغرقها أحد، وفي أيّ نهر، لا أحد يدري..».

* * *

«السيّد الذي كان يحكمنا،

لا نستطيع لمسه.

النبلاء كانوا خدّامه، والناس ذباباً.

كان الفارس الشجاع الذي يمتطي

ثلاثة جياد بالوقت نفسه.

هو قويّ كالنسر، كالسيل، كالعتمة..

يطرد كلّ شيء أمامه.

ينطلق بسيفه، كما لو انّه يمشي على سجّاد.

كلّ ما يقع أمامه يصبح فريسته.

إنّه يرقد مثل مجرى السيل. جبل كبير سقط !

.. وبقيت التلال صغيرة.

لا يزال على صهوة جواده بنظر أعدائه».

- من نشيد إفريقي -

- ٢٢ -

.. عند طرف المدينة الغربي، كانت عربة مسرعة يجرّها حصانان. صرخ الحوذيّ بهؤلاء العبيد، وهو يلوّح بالسوط طالباً منهم التوقف .

كان يمتطي العربة المكشوفة من الخلف رجل عظيم الهيئة، على رأسه شملة حريرية خضراء، ويسراه ترفع فوق رأسه شمسيّة تقيه حرارة الشمس. يقفز الحوذي من العربة، والسوط بيمناه، بينما كانت يسراه تحمل سلسلة تستعمل عادة لتقييد العبيد من أعناقهم!.. وبحكم الخوف تسمّر مقرود، وجنزار، ولاشياما، في أماكنهم ، دون أدنى مقاومة....وبحكم العادة كان أحدهم يضع طوق العنق لصاحبه، ولم تكن مهمّة الحوذيّ سوى إقفال الطوق، وببساطة ربط السلسلة خلف العربة، بينما مرزوق كان قد سارع، وابتعد قليلاً وهو ينظر إلى هذا المشهد. لم يكن غريباً عليه، إلاّ بخنوع هؤلاء. لقد شاهد أكثر من عملية قنص، لكن ما واحدة تمّت بمثل هذه السهولة. كان يتحرق غيظاً، وهو يفكر ما سيفعل.

قال صاحب العربة للحوذيّ، وهو يشير بيده نحو مرزوق :

- خذ سلسلة أخرى، واجلب ذاك العبد. يبدو أنه لن يأتي إلاّ بالقوة!

حمل الحوذي السوط والسلسلة، واتجه نحو مرزوق، وهو يستلطفه بخبث، كي يأتي طائعاً إليه..

مدّ مرزوق يده متخابثاً هو الآخر. انطلت الخدعة على الحوذيّ، وما أن استقر طرف السلسلة بيده، حتى خطفها من يد الحوذي، وانهال بها عليه، حتى سقط أرضاً، وسقط السوط من يده، وهو يصرخ متوجّعاً. يقف صاحب العربة، ويصرخ بمرزوق أن يكفّ عن ضربه.

حاول مرزوق أن يضع طوق السلسلة بعنق الحوذي، ولكنه استطاع انتزاعها من يد مرزوق. دار بينهما صراع عنيف. أدمى أحدهما الآخر. كانت الغلبة لمرزوق، فألقى الحوذيّ أرضاً. قيدّه، وجره إلى خلف العربة، وربط السلسلة بها بأحكام.

... كان العبيد الثلاثة ينظرون إلى مرزوق بفرح تخالطه الشماتة بالحوذيّ، والخجل منه. اتجه مرزوق نحوهم. شتمهم. نهرهم. طلب منهم ألاّ يفكّروا بمتابعة السير معه. توسّلوا إليه. عنّفهم، وكال لهم المزيد من الشتائم، بسبب استسلامهم للحوذيّ، وعدم مقاومتهم له. أخيراً قال لهم:

- عودوا إلى ذلّكم.. أنا لا أرافق الجبناء!

غادروا المكان، وهم ينظرون إلى الخلف، بينما اتّجه مرزوق نحو صاحب العربة. التقط سوط الحوذيّ، ولوّحه بوجهه، ثم قذفه به، وبصق عليه:

- هذا لا يليق إلا بكم. !قال له. وأضاف قائلاً بسخرية: يمكنك الآن أن تقود عربتك بنفسك .!

حاول صاحب العربة أن يستميله إليه، وهو يتأمله بإعجاب:

- تعال معي، وإليك ما تشاء...

قاطعه مرزوق، ولم يدعه يكمل كلامه، وأجابه باستهزاء مهدّداً:

- أغرب عن وجهي بعربتك، وإلاّ !..

أجابه، وهو يظهر الإشفاق عليه:

- إلى أين ستذهب ؟ ثم قال مستعطفاً مرزوق : أنا متأكّد بأنّك دون مأوى، وآبق من أناس لا يقدّرونك.. تعال معي، واتكّل على الله. لديّ مزرعة، ولديّ فيها سكن لك يليق بك ! .

- إذا كنت تريد عبداً، فعبدك خلف العربة.. وإذا كنت مشفقاً عليّ، فاحتفظ بشفقتك لسواي.. أمّا إلى أين سأذهب ؛ فكلّ الأرض لقدميّ !.

.. ما إن غادرت العربة المكان، وقبل أن تغيب عن ناظري مرزوق، وتنعطف في طريق فرعيّ، حتى نبق العبيد الثلاثة في وجهها يهشّون حصانيها، ويتوسّلون السيّد كي يصطحبهم معه. غابت العربة في المنعطف، وغابوا معها، وهم على هذه الحال..

تألم مرزوق ممّا رأى. تساءل في سرّه مستنكراً :

- أمعقول هذا ؟ أيّ مخلوق يسعى إلى ذله بنفسه ؟ ..أألحق بهم، وأقلب الدنيا عليهم !؟

ثم تساءل بمرارة : .. لا شكّ لو فعلت ذلك، واصطحبتهم مجدّداً، سيكون من السهل عليهم خيانة أنفسهم قبل خيانتي ! ربما يغدرون بي في أيّة لحظة..هؤلاء استمرأوا الذلّ. لا أمل منهم. استمرأوا الطعام المرّ. حُسم أمرهم ..فليذهبوا إلى الجحيم ! .

... لكنّه لم ييأس من أن يجد في طريقه من يرافقه في هذا السديم إلى المجهول، الذي لا يشعّ فيه سوى بصيص الأمل، ووجوه تغيب صورها، وتختفي. صورة أبي ثامر. وطفة. ضحى . الدروب إلى متاهات تنتهي عند سواد العراق،أو في بلاد النوبة، أو في غابات إفريقيا. .أو! .

* * *

.. يغذّ مرزوق السير نحو الغوطة الغربيّة. يتوغّل فيها ليجد نفسه في الجهة الشرقية منها. تتّضح له المزارع المتفرّقة فيها. يرى المزارعين هنا، وهناك، في حقولهم. لم يكن يعنيه من أمرهم شيئاً. يواجههم في الدروب. يعرض عنهم. يتذكّر ما كان قد رآه من مشاهد في هذه المنطقة. لم يلوِ الحنين إليها. كان كمن يشاهدها لأوّل مرّة .

رأى عند آخر مزارع (بلاس القدم الشريف) من جهة الجنوب ثلاثة، عرف من أشكالهم أنّهم من أقرانه العبيد. غمره فرح داخلي، حين رآهم دون سائس يقودهم، وأنّهم -على اختلاف ألوانهم- ذوو ملامح صارمة . أيستوقفونه قبل أن يستوقفهم؟ سرّه أنّ أحدهم طلب التعرّف إليه . قال له:

- الآن اسمي مرزوق .

ثم عرّف كلّ منهم باسمه : ناماري. .مستجيب. .سرور.

استعرضهم مرزوق بنظرة بانوراميّة:

.. ناماري: زنجي، فارع الطول، شعر أجعد. ثلاثة خطوط طولانيّة قصيرة تعلو جبهته، كوشم يعبّر عن رمز قبيلته.

.. مستجيب: ذو ملامح عربية صرفة. سمرة بفعل حرارة الشمس. قامته أقرب إلى الطول. شعره بنيّ مسترسل.

.. سرور: بشرة تميل إلى الاحمرار. فارع الطول. شعر بنيّ خفيف مسبل، ومربوط إلى الخلف.

لم يسيروا بضع خطوات، حتى طلب مرزوق منهم أن يقتعدوا الأرض . سألهم أين وجهتهم. أجاب سرور:

- الحقيقة، أنّنا نبحث عن مكان آمن نعمل فيه معاً. اتفقنا ألاّ نعمل فرادى، وألاّ نعمل بصفة عبيد، حتى لو متنا جوعاً .

طلب سرور من مرزوق أن ينضمّ إليهم.. لم يفكّر مرزوق طويلاً. وافق على ذلك شريطة أن يسير الجميع بإمرة واحد منهم، دون اعتراض على أيّة جهة يشاء الذهاب إليها، أو أيّ عمل يراه مناسباً لأيّ منهم، أو لهم مجتمعين، حتى ولو أدّى ذلك إلى الموت..

راحوا ينظرون إلى بعضهم بعضاً مستغربين مثل هذا الرأي .

لاحظ مرزوق ذلك . أردف قائلاً :

- لديّ اقتراح آخر !؟ ..

سأله سرور متعجّلاً معرفة هذا الاقتراح !؟

- ما هو !؟

- نتبارز !

- كيف، وليس لدينا سلاحاً نتبارز به ؟.

- بسيوف من خشب ! (وأطلق ضحكة طويلة). كلّ منكم يأتي بعصا. انظروا إلى الجذوع اليابسة التي هناك..

قاطعه سرور:

- وهذا الاقتراح، لا. لا نريد أن نبدأ السير معاً على طريق من الصراع!

قال مرزوق:

- إذن لديّ اقتراح أخير، آمل أن توافقوا عليه..

استعجله سرور أيضاً:

- قل ما هو؟!

- ننطلق معاً كلّ باتجاه. لا يعود أحدنا إلا بصيد. يفوز صاحب الصيد المميّز، والأسرع بالحضور إلى هذا المكان قبل سواه. السهل ممتدّ أمامكم، حتى سفوح مرتفعات الكسوة فيه ما تبتغون. لن نقبل بأقلّ من غزال نشويه هنا .

قال سرور:

- بالنسبة لي. أتنحّى سلفاً عن هذه المنافسة، لأنّني بوجود ناماري سأخسر الشرط. لذا سأبقى هنا، وأجهّز الموقد، والحطب .

- وأنا أيضاً. قال مستجيب.

قال ناماري:

- وأنا أعتذر عن أن أكون آمراً لكم. سأذهب، وآتي لكم بطريدة.

فتح مرزوق باب الحديث مع سرور، ومستجيب، بعد أن غادر ناماري المكان، بسؤاله لهما عن سبب وجودهما في هذه الديار .اختصر سرور حكايته بقوله:

«.. كنت عبداً لدى أحد التمّارين في سواد البصرة. غضب عليّ ذات يوم، فباعني إلى تاجر يهوديّ كان لا يفارق تلك المنطقة المكتظة بالعبيد أمثالي. لم يلبث هذا التاجر أن باعني لأحد الملاّكين. كان هذا المالك قد اشترى خمسمائة عبد سواي بواسطته . قادنا وكيل المالك إلى إقطاعيّة، منحها له والي البصرة، عند نهر المرغاب. هناك رحنا نعمل في كسح السباخ بظروف صعبة..

فاض نهر المرغاب، فانتقلنا إلى إقطاعيّة له في البطيحة. كنّا نبيت في العراء، وطعامنا يقتصر على السويق والتمر. تسرّبت لنا أخبار عن تمرّد الزنج في أكثر من مكان. جاءنا شخص ذات ليلة متسللاً، وراح يحرّضنا على الفرار معه، والانضمام إلى المتمرّدين. استجاب الكثير منّا له. أحدنا وشى لأزلام الوكيل، وأعوانه بنا. كانت الغلبة لكثرتنا في مواجهة قلّتهم. قيّدناهم في ذلك المكان، مع من آثر البقاء من العبيد، والتحقنا بفرقة القائد عليّ ابن أبان..كم خضنا معارك مع هذا القائد، ضدّ جيش العباسيّين، وكنّا ننتصر بها جميعها....الحرب كرّ وفرّ !!.

دفع أحد قادة الجيش العباسيّ، أعداداً كبيرة لمواجهتنا، فحاصرتنا في منطقة مستنقعات، وفتكت بالكثيرين منا. حلّ وباء الملاريا. امتدّ إلى كور دجلة. هلك كثير في بغداد، وسامراء، وواسط، وغيرها. أصيب قائدنا عليّ ابن أبان بهذا الوباء، وأنا، والكثيرون منّا .

لم تلبث أن هدأت الأحوال قليلاً، بعد احتلال العديد من القرى. ساقونا إلى أرض واسعة فيها الكثير من المستنقعات. هناك قمنا بشقّ قناة لتصريف مياهها. علمنا أنّها لأحد أصحاب عليّ ابن أبان. فكّرت بالفرار. حرّضت عدداً من العبيد، وفررنا فعلاً . لاحقنا جند عليّ. قتلوا سبعة منا..

لجأ اثنان من الناجين إلى سامراء، واثنان إلى البحرين، أما أنا، فلجأت إلى إحدى العشائر البدويّة، في الطرف الغربيّ من البطائح . هذه العشيرة كانت تؤمّن الأرزاق لجيش الزنج من البلاد الشاميّة. قدّمت نفسي لزعيمها، كعبد أكون في ملكه. لم يستجب لطلبي هذا. ساهرني طوال الليل، وهو يسألني، وأنا أجيب عن أمور شعرت أنّه يتوخّى منها تعزيز تجارته مع الزنج، وعدم قطع صلته مع دهاقنة العباسيين، لغاية، بل لغايات لم يتبيّن لي منها، سوى أنّها تجاريّة، ولا شكّ أنّها تتعلق بالعبيد، والنخّاسين، والمجوهرات. أرسلني في صباح اليوم التالي، مع قافلة تجارية تحمل التمر، والدبس، إلى الشام، كانت تعبر حرم عشيرته، بعد أن كلفني بأمر لا طاقة لي عليه، كما أنّني لم أتوقّعه. تردّدت في البداية، ثم وافقت إذ وعدني بالزواج من ابنته، كما وعدني بفرس أصيلة، وعدد من الجمال..

- لكنّك لم تقل ما الأمر الذي كلّفك به يا سرور !؟ سأله مرزوق.

تردّد سرور في أن يبوح بالحقيقة، ثم قال:

- أن أثأر لمقتل ولده .

- ممّن ؟

- من شيخ عشيرة، ترتحل مابين جبل الأشعريّ، وجبل بدران. ذاكرتي الآن لم تسعفني لتذكّر ما يكنّى به. قال لي يومها : .. لا أرضى بديلاً عن دم ولدي، بأقلّ من دم هذا الشيخ .

- أيكون أبا ثامر !؟ سأله مرزوق .

- أجل هو. كيف عرفته ؟ أجاب مستغرباً.

أشاح مرزوق عن الإجابة حول معرفته بأبي ثامر.

- هل تحدّث لك عن السبب الذي دفعه ليثأر لولده منه ؟

- لا. إنّما عرفت سبب مقتل ولده من الشيخ أبي ثامر نفسه فيما بعد.

* * *

- ٢٣ -

راح سرور يروي لمرزوق ما حدث معه، حين وصل إلى جبل بدران:

- قبل أن أصل مضارب العشيرة بمسافة، انطلق نحوي ما اعتقدت أنّه أحد فرسان العشيرة على فرس تسابق الريح. كان الغبار يعجّ خلفها، لكن الفارس كان ابنة الشيخ. استقبلتني. رحّبت بي كضيف. قادتني إلى ربعته. أكرمني الرجل. بالغ في إكرامي. نحر جزوراً. دعا بعض شباب العشيرة لمشاركتي الطعام. ساهرني حتى ساعة متأخّرة من الليل، وهو يروي لي قصصاً عن الأعراب. ممّا رواه لي حادثة مقتل قاطع طريق، كان لصّاً عريقاً في الاعتداء على القوافل. عرفت وهو يروي تفاصيل تلك الحادثة أنّه ولد الشيخ، الذي دفعني للثأر. قلت له على الفور، دون تردّد، أو خوف :

- أتدري يا شيخ ما السرّ، الذي جاء بي إلى هنا ؟ للحقّ أقول لك : جئت لأثأر له منك!

كأنّما صحا الشيخ من غفلة. نظر إليّ مندهشاً من صراحتي له. سألني، وقد بدت على وجهه علامات الغضب:

- ألم تعاهده على ذلك ؟

- بلى. أجبته.

تجهّم. ثم قال لي بعد لحظات من الصمت :

- أنت بذلك أسأت أمانة، فأفشيت السرّ. نكثت، فحنثت العهد. تجابنت، فلم تقتل غريماً.!

أجبته:

- أليس من الأفضل ألاّ أغدر بمن أكرمني، وأخون ملح من أطعمني زاده، وفتح لي صدره، وأقتل رجلاً كان يدافع عن حياض عشيرته ؟

أليس شرّاً أن أثأر للصّ، من رجل كريم مثلك، وأريق دماء بريءٍ لم يخرج من حدود عشيرته، ويقصد الآخرين في منازلهم ؟.

جمع أبو ثامر شبّان عشيرته .جعلني بجانبه. وضع كفّه على رأسي، وقال لهم بلهجة الأمر:

- انظروا إلى هذا الشاب جيّداً. اسمه سرور. تذكّروا صورته جيّداً. .هذا عليه الأمان في أن يدخل، أو يخرج من، وإلى حرم عشيرتنا متى يشاء، وفي أيّ وقت. لن يعترض طريقه أحد. لن يردّ له أحد حاجة. يجاب طلبه أيّاً كان هذا الطلب، حتى ولو كان خيلكم .

ثم رفع كفه عن رأسي. هبط بها إلى كتفي. هزّني قائلاً:

- إذا شئت البقاء هنا، فمرحباً بك، وإن اخترت طريقاً آخر، فالله معك.!.

قصدت الشام. عملت في الشام، لدى حدّاد صقلّيّ في سوق الحدّادين. لم تمرّ عدّة أيّام على عملي لديه، حتى حضر نخّاس، وراح يساوم

على شرائي من الحدّاد. استغربت كيف يساوم الحدّاد على ما لا يملكه. غافلتهما، وهربت من الدكّان إلى بساتين الغوطة. التقيت بين أدغالها بآبقين أمثالي، وبمطاردين من جند الوالي. .ثم بعد ذلك تركت المكان، والتقيت بناماري، ومستجيب.

.. ومع ذلك، فقصّتي نقطة في بحر ناماري، وأشار بيده نحو مستجيب مضيفاً ...: أو من قصّة هذا النّمس، وما تعرّض له .

- تأخّر ناماري. قال لهما مرزوق .

- من يتأخّر يأتي بالغنيمة ! أجابه سرور.

قال مرزوق :

- إنّها فرصة لنسمع من مستجيب شيئاً!؟

كان مستجيب ينظر إليه، وهو يخمّن في داخله أن يُطلب منه ذلك، فبدا شارداً وحزيناً، كأنّما لا يريد لشريط ذكرياته، أن يكرّ على الماضي، ويُستعاد، لما فيه من ألم، لكنّه لم يجد منفذاً للتملص من البوح، تحت نظرات مرزوق التي تتطلّب منه الكلام ..

قال مستجيب:

- قصدت أخوالي في البصرة، بعد وفاة والدي ؛ وفيها التحقت بجيش الزنج، مع كثيرين من غلمانهم..

قاطعه مرزوق:

- وأين كنت في البصرة ؟ وأهلك من أين بالأصل ؟

- لا أريد أن أتذكّر ذلك، ولهذا اختصرت!

- جميل أن نتذكّر الماضي.. أحبّ أن تبدأ منه!

* * *

... لم يلحّ مرزوق على مستجيب كثيراً. راح مستجيب يروي قصّته، بدءاً من ذلك الماضي البعيد، والظروف التي دفعت جدّه للرحيل من اليمن إلى البحرين، والإقامة فيها، وزواج أبيه فيما بعد من أمّه البصراويّة، وولادته، ووفاة والديه، الأمر الذي جعله يلجأ إلى أخواله، بعد أن سطا أقاربه على كلّ ما ورثه من دار، وأرض، ودواب.. قال:

«...كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار. هربت من الدبّ إلى الجبّ . دفعني ظلم أخوالي في البصرة إلى العمل في السباخ، لدى مالك لكثير من الأرض والعبيد يدعى زبيدة، وكان صاحب مكانة لدى والي البصرة. كان رئيس غلمانه ظالماً وبخيلاً . تقتيره علينا بالطعام لا يطاق. يعاقبنا لأقلّ ملاحظة، أو هفوة بمنع الطعام عنّا، ليوم، أو ليومين. هذا كان أشدّ علينا من ضربنا بالسياط.

ذلك كان سبباً لفراري، والالتحاق بجيش الزنج مع كثيرين. لا أعتقد أنّ أحداً من صحبي هؤلاء الآن على قيد الحياة. كانت وعود صاحب الزنج تذهب أدراج الرياح، بين معركة وأخرى. كان القائد بعد كل معركة نخوضها، وننتصر بها، يقودنا إلى العمل في مزرعته، أو ببناء دار له. لم يختلف علينا الأمر بين زبيدة*، وغيره مثل حماد الساجي*، ورميس*، وعقيل*، الذين كانوا أوّل من واجه الزنج بالمتطوّعين، وبعدد كبير من أهل

البصرة من أهل حيّ المسجد الجامع، وجماعة من الهاشميّين، والقرشيّين. رأيت أنّ الأمر لم يختلف بين هؤلاء، وبين قائد الزنج، وأعوانه، الذين استطاعوا خلال أقلّ من شهرين، أن يضمّوا إلى صفوفهم ؛ ليس أعداداً كبيرة من الزنج فحسب ؛ بل فرقة كبيرة من الفرسان العرب، الذين كان لهم دور كبير في احتلال البصرة. أتدري يا صاحبي أنّ أهل البصرة أكثر من يكنّ العداء، ليس لصاحب الزنج الذي خرّب مدينتهم، بل لحاكميها العباسيّين، ولكلّ الطبقات العليا، التي تشدّ على يد أميرهم الكبير، الخليفة!.

دهاقنة البصرة هم أوّل من ساهم بتسليم مدينتهم للزنج. تصوّر يا صاحبي كيف حتى واليها جحظة* يخونها، ويخون أهلها. يقبض ثمن خيانته لهم رشوة، لم تكن أكثر من ثلاثين ألف دينار، ليسلم لقائد الزنج مدينته. المساكين أهل البصرة، لم يجدوا أيّ موظف يحاربون تحت قيادته !.

لجأوا إلى إبراهيم بن محمد المعروف بـ «ببريه* »وهو أحد كبار الموظفين، وإلى هارون بن عبد الرحيم* صاحب البريد، وحتى إلى وجهاء البصرة، لعلّ واحداً من كلّ هؤلاء ينضوون تحت قيادته، فلم يجدوا أحداً. كان الكلّ قد هربوا خارج المدينة..

* * *

كان سرور مستلقياً يتناوم، وقد أصابه الملل من تكرار الأحداث على لسان مستجيب. نهض قائلا:

- سألحق بناماري، لقد تأخّر! .

- ألا تريد أن تسمع ؟ سأله مرزوق.

أجابه بأسى:

- كأنّما البصرة منذورة للخراب!... ليقل لك باختصار : خربت مدينتهم على يد هؤلاء، وأولئك، وكفى!! .

قال له مرزوق: الحق بناماري..

.. في سرّه يريد مرزوق أن يسمع المزيد، عمّا كان يحدث خلال السنوات، التي ضاعت من عمره كما كان يعتقد. ندم على أنّه لم يعد إلى بلد -على عبوديّته فيه- له به الكثير من الذكريات على الأقل، ولم يكن له فيه أيّ دور. كم تمنّى أن يكون قد شاهد صاحب الزنج، ليهزّه من صدره، ويصرخ به:

- أنت انحرفت يا عليّ بن محمد، إلى طريق الخطأ، الطريق الذي يسير فيه كلّ أنانيّ، ومتجبّر، وكلّ من لا يرى أبعد من ظلّه ؛ .

يتذكّر مرزوق أنّه لم يكن أكثر من عبد لا ينظر إليه أحد، حتى أقرانه إلاّ من زاوية واحدة، يُؤمر فيطيع.. من هذا المنظور كان صاحب الزنج يقاتل بهم أعدائه .

كان سرور قد التقى بناماري، وهو في طريق العودة من الصيد مطوّقاً عنقه بثعبان ضخم يتدلّى طرفاه، الرأس، والذنب، حتى الأرض، كان قد اصطاده، وفي يمناه أيضاً يحمل أرنباً لا يزال حياً.

قال لسرور، كيف كان يلحق بالثعبان، واستطاع أن يجهز عليه، ثم

لحق بالأرنب الذي كان منهكاً، وكان ناماري أسرع منه، فقبض عليه. حدثه ناماري، كيف فشل باصطياد ذئب، ظهر أمامه فجأة من خلف أحد الرّجوم، وعن غزالة ترضع صغارها، كيف تركها، ومضى، وعدا عن أنّها مرضعة، لم يعتد أن يقتل أنثى الحيوان، أيّا كانت فصيلته .

- هات الأرنب كي أحمله عنك يا ناماري. قال سرور.

- أخشى أن يفلت منك.

- أجهز عليه، فأحمله.

يلتفت ناماري نحو سرور لائماً:

- هذا لا لنأكله يا بطل!

- وماذا ستفعل به !؟

- سأطلقه !.

- لطالما ستطلقه، لماذا اصطدته ؟

- لم أصطده، إنّما أنقذته ؛ وما أنقذته من أن يكون الآن في بطن ثعبان، ليكون بعد قليل في بطنك ! حدّق به جيداً. إنّه أنثى. سأطلقها هناك عند ذلك السهل المزروع بالذرة، لعلها تجد ذكراً يؤنسها.

* * *

انظر! قال مستجيب لمرزوق. .ها سرور وناماري قد أطلاّ. أترى مثلي أنّهما لا يحملان بأيديهما شيئاً ؟

يحدّق مرزوق بهما جيّداً :

- أشعل النار يا مستجيب .اقدح حجريّ الصوّان، بما تحت الحطب، كما علّمتك. افتح عينيك. ألا ترى ما الذي يحمله ناماري ؟

يحجب مستجيب ضوء الشمس بكفه عن عينيه، وينظر إلى البعيد :

- كأنّما يحمل ثعباناً. قال. ثم سارع إلى كومة الحطب. انحنى فوق جهة منها وراح يحكّ، ويقدح، أحد حجريّ الصوّان بالأخر. .انتبه مرزوق له:

- قف بوجه الهواء. الهواء لا يساعد شرارة الحجر على إشعال الهشيم في البداية. اقدح بسرعة وقوّة.

يحاول مستجيب إشعال النار، فلم يفلح. دنا مرزوق منه:

- هات الصوّان !.

- رفع كفّه في الفراغ. حدّد اتجاه الهواء. انحنى، وبأوّل محاولة اشتعلت النار. يتصاعد اللهب، والدخان.

لم يصل ناماري، حتى كادت النار تخمد مخلفة جمرات يعابثها الهواء، فتتأجّج من جديد.

انتشرت رائحة الشواء في السهل. تحوّلت البقعة الصغيرة التي تناولوا فيها طعامهم، وخلفوا فيها رماد نارهم، وحجارة موقدهم، إلى طلليّةٍ للعابرين من المكان. تتشبّث فيه لفترةٍ من زمن. لعمرٍ قصير قد ينتهي عند أوّل فصل خريف، وأوّل فصل شتاء. .وإلى ساحة فرح تعبق فيها رائحة

الرماد، والشواء، وعرق أجساد تحمل تاريخها المليء بالحزن، والقهر. والذكريات، لتوقظ الأرض بألوان من الرقص، والدبكة، صبغتها أدغال أفريقيا، وشمسها الاستوائيّة، ورمال جزيرة العرب، ونخيل العراق، وجنّة الشام، بإيقاعات تضرب في الجذور الممتدة إلى الإنسان الأوّل. تطوف على الكهوف التي نقشها في الصخر. تلملم كلّ ذلك الحزن الذي عرفته البشرية، وجعلته أوتارها، وموسيقاها الأبديّة..

.. كان مرزوق أشدّهم تجاوباً، وتناغماً مع إيقاعات تراثيّة، وأكثرهم صخباً سرور، وأهجنهم مستجيب، وأرشقهم ناماري ؛ إذ انتُزع فتىً يافعاً من قبيلته، التي كسواها، لم تسلم من السطو، وخطف أبنائها ليكونوا في عداد الرقيق.. أو الموتى..

بعد هذه الاحتفاليّة، استلقوا من تعب الرقص، والدبكة، والغناء. كانت رؤوسهم هي الأقرب إلى بعضها بعضاً. وسائدهم هي أيديهم المتشابكة تحتها. على شكل صليب كانوا ممدّدين. كأنّما الأرض جعلت من أجسادهم صليبها. تمكّن ملاك النوم من مستجيب فغفا، وإله الشرود من سرور فسرقه إلى الذكريات.

.. مرزوق وحده كان يصغي لناماري، الذي استرسل في الحديث. يقول:

حين تموت الحمير تفرح الكلاب يا صاحبي! يقول المثل. .ومن بدهيّات الحياة، أن القويّ غالباً ما يستبد به الغرور ؛ والغرور ابن النعمة، والنعمة ابنة الخيرات، والخيرات ابنة المال، والمال ابن الشيطان، والشيطان ابن النفس البشريّة.

قاطعه مرزوق:

- وإلى أين تريد أن تأخذنا بكلامك هذا يا ناماري ؟

- إلى المكان الذي قطعت فيه سرّتي يا مرزوق. (يتنهّد) إمّا أن تصغوا إلى ما سأقول، أو سأقفل فمي.. لأوّل مرّة في حياتي، أحدهم يسألني مثل هذا السؤال، وأجدها فرصة لي أن أنزع كلّ ما في رأسي، وصدري، من أشجان عالقة فيهما، أخاف أن أغصّ بها، وأختنق.. بالمقابل فيهما أفراح قليلة أخاف أن تصدأ مع الزمن، ويمتدّ هذا الصدأ إلى القلب، فيتسمّم..

- إذاً علينا أن نتابع السير. في الطريق قل ما تشاء. نهض مرزوق، ونفض ما علق على جسمه من تراب، وناماري بينهم..

* * *

- ٢٤ -

... على وقع خطواته، وخطوات رفاقه، راح يروي ناماري، لا حكايته فحسب، بل ملحمة زنجيّة طويلة، فيها من الآلام ما يجعل الذاكرة تفضح أسرارها المخبّأة، وتؤجّج جمراتها الكامنة تحت رمادها. وقع نظره على حجر صغير أسود. انحنى والتقطه. راح يدوره بين يديه، كأنّما يفتّش في سطحه عن شيء ما. ربّما لم يثره به أيّ شيء، فطوّحه في الهواء. بدا في حالة تذكّر، وذهول.. فجأة انطلق يغنّي:

«مامي ني اينا..

تسيهبيلا مبانا

.. لي

أولونا».

ردّد ذلك مرّتين، ثم توقف عن الغناء، ثم فوجئوا به يرفع يمناه إلى الأعلى، ويبتهل :

أيّها الإله «نهيال» أسعفني على تذكر الحقيقة: (جدودي الأوائل من بلاد الواق واق. نهاية العالم. جدودي هؤلاء من شعب الملغاش. وصل إلى هذه الجزيرة جيلنا منهم. هي هضبة عالية

ينمو في مرتفعاتها البامبو والسافانا، والنخيل الزيتي. تعيش فيها سلاحف، وأفراس نهر، وطيور ضخمة). قالت لي أمّي ذات يوم :

«.. إنّ أصلنا الأساسي ليس من تلك البلاد، إنّما من المهاجرين الأفارقة البانتو، الذين جاؤوها بمراكبهم الشراعيّة. أقاموا فيها. اختلطوا بسكانها . جدّاتي الأوائل ــ كما علمت من كبار السن، ورغبة منّي معرفة كلّ شيء عن الجذور الأولى ــ أندونيسيّة، وهنديّة، وسومطريّة، وماليزيّة. انظروا إلى سحنتي. عيوني. شفاهي. شعري، لتعرفوا أنّي مزيج من دماء هاته الجدّات «ملغاشي» تصبغني دماء أعالي النيل، التي اختلطت بدماء الجدود هي الأخرى. كلها شكّلتني «ناماري» الذي يسير معكم في هذه الأرض، ولا يعرف إن كان سيستمر له نسل في هذه الدنيا الواسعة، أو سينقطع. كلّها تشكّلتُ منها، ليضاف إلى (الزولو) إنسان جديد هو أنا، يبتره من قبيلة (الدنكا) التي ولد فيها ملغاشياً ينتمي للزولو نخّاس إفرنجيّ. يحرمه من شمس أفريقيا، ورائحة أرضها. .فكّرت حين كنت بعمر لا يزيد عن اثني عشر عاماً، بأن أغامر، وأذهب إلى أرض جدودي الأوّلين في بلاد الواق واق. كانت القبيلة تحتفل بعيد الإله. انتظرتُ حتى أرخى الليل سدوله. تسلّلتُ إلى ناقة كانت تربيها أمي من أجل حليبها، وتألفني بسبب تكليف أمي لي بإطعامها. لم أكن أحسب أيّ حساب للمخاطر التي سأتعرّض لها. في الطريق وحوش. زواحف. قبائل لا تطيق غريباً يدخل حرماتها، وأخرى، هو عندها من أقدس طقوسها. كدت أكون وجبة لزعيم إحداها، لولا أحد خدمه الذي أنقذني في اللحظة الأخيرة. كان هذا الخادم قزماً يجيد الكثير من لغات إفريقيا، ويعرف الكثير من خبراتها.

قبل تلك الليلة التي كنت سأُنحر فيها، لم يسألني من أين جئت. ربما عرف ذلك من لغتي، وهو يبادلني الحديث بها بطلاقة ؛ لكنه سألني:

- إلى أين ستذهب ؟

- إلى بلاد الواق واق*. قلت له.

ضحك طويلا حتى انقلب على قفاه من الضحك. بعد أن هجع راح يحدّثني عن تلك البلاد، بعد أن قلت له إنّها بلاد جدودي الأوائل:

الواق واق، هي بلادي أنا لا بلادك،هي بلاد (الهونتوت)رجال الأحراش. هي بلاد قصار القامة أمثالي .

آه لو تعرف سبب وجودي في هذا المكان، والمكانة التي أنا فيها لدى زعيم القبيلة هنا!؟.

أنا مثلك هربت من أهلي وقبيلتي. تنقلت أياماً وشهوراً، وتعرّضت للموت أكثر من مرّة، حتى وصلت إلى هنا. قنصني بعض رجال هذه القبيلة، قدّموني لزعيمها كغنيمة، فأكون وجبة طعام له. ضحك منهم قائلاً: لن أتغذّى بخنفساء! دعوا هذا الزيز. اغربوا عن وجهي...

طلب مني أن أغنّي له، وأرقص، ففعلت .

هذه هي مهنتي هنا .

الآخرون تدهشهم أشكالنا كأقزام .

فرعون مصر أرسل من قنص العديد منّا، ليسلّوه بالغناء، والرقص، في قديم الزمان.

كلّ منطقتي «هيكوم» و«أوين دكونغ» مقصد القنّاصين الآن. يريدون العبيد لغايات أخرى. يريدونهم للعمل في الأدغال الكثيفة؛ أو للفرجة!. ليسوا في نظرهم سوى قردة بشكل آدميين. منهم من يعتقد أنّهم خلقوا قبل أن يخلق الإنسان من الطين . يجب أن يعتقدوا ذلك ؛ فلغة أهلي لا تزيد عن ثلاث وستين كلمة. يتّم التفاهم فيما عداها بأصوات القردة، كما أنّ معرفتهم بالحساب لا تتعدّى الثلاثة... الآن كلّ ما علينا أن نفعله هو الفرار من هذا المكان بأقصى سرعة، دون أن يلحظنا أحد. .سأحدّثك كثيراً ليس عن أهلي فحسب، بل عن كلّ ما شاهدت فيما بعد. كلّ قبيلة هنا، لها في مواقع متقدّمة رجال يكمنون. ينذرون قبيلتهم عن أيّ طارئ، أو خطر داهم، بأصوات الحيوانات، أو الطير. لا يميّزها سوى العارف بما توحي إليه من معان . على أية حال، أنا أعرف سرّ هذه الأصوات، ممّا يسهل علينا تفادي الوقوع في هذه الكمائن. .أما بشأن ناقتك، فلندعها لهم، لأنّها ستكون عبئاً علينا، لا عوناً لنا..

يتابع ناماري قائلا:

- غادرنا ذاك المكان. سلكنا طريق الأحراش الذي يعرفه هذا القزم. تعرّضنا فيه لكثير من المخاطر، والمآزق التي كان أسرع منّي بالنجاة منها. ساعدتني كثيراً، الحيل التي كان يلجأ إليها لإنقاذي من موت محتّم..

قاطعه سرور قائلا:

- تتحدّث يا ناماري، وكأنّك لم تفرح في حياتك مرّة واحدة!

أجابه ناماري:

- لا، بل فرحت ثلاث مرّات، وربما أربع..

- متى وكيف كان ذلك ؟ سأله.

- الأولى :حين نجوت من أن أكون وجبة طعام، وقد ذكرتها لكم.

- الثانية : حين لمست أوّل امرأة في حياتي غير أمّي . حدث ذلك بعد انتصارنا على جند الموفّق في قرية (...) غاب اسمها عن البال الآن.. خلال مطاردتنا لفلولهم فيها، واجهتنا قوة من أهلها كانت كامنة لنا في إحدى دورها الكبيرة. قُتل منّا أكثر من ثلاثين، لكنّنا في النهاية، قضينا على أكثر من مائة رجل، وأسرنا خمسة عشر. انفلتنا بعدها نأسر النسوة، والأطفال. لمحت صبيّة تحاول أن تجد ملاذاً تختبئ فيه. انطلقت خلفها. قبل أن أبلغها التفتت إلى الخلف . توقفت. انكفأت نحوي، وهي تمسح دموعها. لم تلبث أن انقضّت عليّ مثل لبوة كاسرة . دخلت معها في صراع عنيف. تمزّقت ثيابها. طرحتها أرضاً. ألقيت بثقلي فوقها. نشبت أظافرها في عنقي. تمكّنت منها. التقت عيوننا بنظرة تحدٍّ. كدت أستسلم لها، وأنا أتوخّى الحذر من إلحاق الأذى بها. جسدها الحارّ أشعل في جسدي جذوة نار، لهيبها تصاعد إلى رأسي. التقت عيوننا ثانية. قرأت في عينيها التوسّل. الخوف. الانكسار. نداءات الأنثى النبيلة. لم تكن عيناي أقلّ استجابة لها. تراخت يدها. أفلتت يدي مشفقة عليّ. راحت تمسح دمي النازف من عنقي بباطن كفّها، وأصابعها .انقلب لهاثها إلى أنفاس حارقة. رفعت يديها كأنما ترجوني أن أكفّ عنها، وألاّ تكون في عداد الأسيرات. تبيّن لي أنّها

خرساء. استسلمت لطلبها .أشرت لها أن تتظاهر بالموت، ففعلت. مسحت بدمائي التي كانت ما تزال تنزف، وجهها، وصدرها، وخرجت . كان فرحي يومها مضاعفاً.

- والثالثة يا ناماري؟ سأله سرور متعجّلاً .

أجابه:

- حدثت قبل تلك الحادثة بستّ سنين:

- كنتُ عبداً لأحد سادة البصرة. غضب منّي ذات يوم بسبب جارية رآها تنظر إليّ خلسة - هذا ما علمته فيما بعد- فأمر وكيله أن يبيعني. قال للوكيل:

- لا أريد أن أرى هذا الشيطان. بعهُ لنخّاس لا يعرف الله، أو لأفقر الناس في السوق، ولو بثمن بخس، كي يموت عنده جوعاً، أو أجّره لأيّ شخص، إذا لم تجد من يشتريه.. بعد مداولات الوكيل مع الشارين في السوق، باعني لاثنين تشاركا على دفع ثمني، وسريعا تحرّر عقد البيع، وشهد الشهود. دفع كلّ منهما خمس دراهم للوكيل. نظر إليّ بشماتةٍ، وتشفٍّ ، وغادر المكان..

مضيت مع الرجلين، وسلسلة قيد عنقي تنتقل من يد أحدهما إلى الآخر، وهما بين أخذ وردّ، وشدّ السلسلة، باليد التي كان من يمسك بها متوتّراً في النقاش المحموم الذي دار بينهما حول مسائل مختلفة تتعلق بشراكتهما. عند وصولنا دار الأوّل، والسلسلة بيده، أصرّ الآخر على اصطحابي معه، وبين تناوب شدّ السلسلة، والاثنان يتشبّثان بها نفرت

عروق رقبتي. جحظت عيناي.عانيت من ألم لا يطاق. آلت السلسلة أخيراً إلى الرجل الثاني، وقد كان أقوى زنداً، وأقوى حجّة . تنفست الصعداء..

ذقت الأمرّين لدى هذا الرجل، كما عند الآخر فيما بعد. كان الاثنان لا يرحمان، فتعبت. تعبت حدّ الإعياء.. كانا بخيلين مقتّرين. أضناني الجوع. كنت أصاب بدوار شديد. كنت أتخيّل كيف الناس يأكلون. كم فكّرت بالانتقام منهما، أو من أيّ أحد في هذه الدنيا التي جئت إليها، وعلى اتساعها تضيق عليّ!! حتى من نفسي فكرت أن أنتقم، لأنّني كنت عاجزاً عن الانتقام من أحد. كان الهمّ يعتريني في اللحظات التي أذهب بها بحجّة نفسي. كنت لا أفرغ ما يدخل معدتي من الطعام الجافّ بسهولة. كانت آلامي كلّ مرّة أشدّ من آلام امرأة تلد. كان يخرج منّي مثل بعر الدواب، كلّ خمسة، أو ستّة أيّام .

... جاء الفرج أخيراً ! قلت في سرّي. انتابني فرح غامر، يوم اشترى أحدهما حصّة الآخر، وغدوت ملكاً لواحدٍ فقط! .

أما فرحتي الأخيرة كانت عند اختطافي من قبل زنجيّ مثلي، وأنا في طريقي إلى العمل عند ذلك المالك مع العديد من العبيد، في شقّ ترعة لتصريف مياه آسنة تغمر مساحة من أرضه. عرفت أن الزنجيّ من الزنوج الثائرين مع ذلك الرجل الطالقاني عليّ بن محمد. «صاحب الزنج».. حاولت التمنّع بالسير معه. قلت له:

- لن أذهب معك مرغماً. اتركني كي أذهب معك بإرادتي. لكنّه لم يفهم لغتي، كما لم أفهم اللغة التي كان ينهرني بها. هدّدني بسيف قصير كان

في يده. استسلمت له طائعاً، وقلبي يكاد يطير من الفرح. ساقني إلى معسكرهم. كان عليّ صاحب الزنج يلقي الكلمات الأخيرة من خطابه برجاله، من زنج، وسواهم :(بكم سيكون النصر إن شاء الله).

رأيت عليّاً يحوّل نظره نحوي، فيما أنا آخذ مكاني في الصف الأخير من جنده. قادني إليه جنديّه الذي أسرني. وقف إلى جانبي. تأبّط ذراعي، وشدّ عليها بقوّة، ونظره معلق بالسيّد. كأنّما يقول له : أنظر إلى صيدي الثمين هذا ! -وهو يعنيني-.

يشرد ناماري قليلا. يحدّق في نقطة من الفراغ غير محدّدة. ينتبه إلى رفاقه الذين ينتظرون منه متابعة الكلام. يقول: .. أعود إلى حكايتي مع القزم. فاتني أن أقول لكم ما اسمه. اسمه «سوما» كان هو الذي يقودني. تماماً كنت كأرنب يقوده فأر. لقد كانت خبرته واسعة. كأنّما يعرف كلّ الأمكنة التي يتوغّل فيها، وأكثر اللغات التي علينا أن نتفاهم بها مع من تتقاطع معهم طريقنا. كان قد بدأ فصل الشتاء .قال لي:

- سنشاهد بعد تلك الواحة قبيلة، هي جزء من قبيلة (النامان)، وقد نزحت إلى هذا المكان. كانت فخذاً في القبيلة، فكبرت، وصارت قبيلة. لا تزال تحمل كلّ عاداتها. إذا كان حظنا طيّباً، يكون عيدهم السنويّ بقدوم المطر. هؤلاء من(الهوتنوت) القدامى، الذين صاروا من الماضي، ولم يبق منهم سوى بعض عاداتهم القديمة، ومعتقداتهم..

ما إن قطعنا الواحة حتى اشتدّ هطول المطر. ظهرت أكواخهم. كانوا يخرجون منها إلى ساحة تتوسّط هذه الأكواخ. قال سوما:

..لاشكّ أنّ احتفالهم سيبدأ الآن ؛ فلنسرع لنحظى بزعيمهم، وإلاّ فلن نفلت من العقاب. كان الجميع يلبسون جلوداً مقلوبة، إذ من عاداتهم أن يلبسوا جلود الغنم، وصوفها إلى الداخل شتاءً، وعلى العكس صيفاً، عدا الفتيات البالغات، فكنّ عاريات تماماً يتأهّبن للسير، والرقص تحت المطر، وغسل رؤوسهن، وأجسادهن، ليلدن أطفالاً أكثر في المستقبل. كانت أغنام كثيرة مذبوحة، ومعلقة، معدّة لهذا الاحتفال، والنسوة يقمن بإعداد المواقد لشيّها. سارع عدد من الشباب الذين يحرسون القبيلة بأقواسهم، وطوّقونا . طلب سوما منهم أن يقابلونا بزعيمهم ففعلوا. كان الزعيم يتأهّب هو الآخر للجلوس على المحفّة، التي سيحمل عليها إلى الساحة، وكان لزاماً علينا أن نقدّم اسمينا، وعمرينا له حسب العادة المتبعة لديهم حين يعرّف أحد عن نفسه...

... طلب الزعيم من سوما بعد التعارف أن يرقص أمامه . أمر بإحضار قارعي الطبول -والكلّ يجيدون ذلك- قام سوما بأداء حركات بهلوانيّة، ثم رقص رقصة القرد. ترافق الاحتفال بالمطر مع الاحتفال بتزويج شابّ وفتاة. انسحبت الفتاة من بين الفتيات، وغادرت مسرعة إلى كوخ ذويها. لحق بها عدد من النسوة. خرجن بها بعد أن لبست جلدها، وقد صبغ صوفه الأبيض بألوان زاهية. تقدّم عريسها من الزعيم. انحنى أمامه، ثم جثا على الأرض، وسجد. ظلّ العريس ساجداً إلى أن أمره بالنهوض. تحوّل الجميع من الاحتفال بالمطر، إلى إقامة احتفال للعريس والعروس. تخللت طقوسه البسيطة، الكثير من الرقصات والغناء، وتقديم الطعام، ولم أجد أشدّ احتراماً للمرأة، من احترام هذه القبيلة للمرأة في حياتي..

الأمّ لها القول الفصل. كذا الأخت الكبرى، والعمّة. للمرأة دور ملموس في إعداد مراسم مراحل الحياة: الولادة. البلوغ. الزواج. الزواج الثاني. الوفاة. تحديد الواجبات للطلبات الاجتماعية، ولمكانة الشخص. الأسلوب الصحيح لتصرّف الفرد مع رفاقه، وطبقته. مع الذين هم أدنى منه، أو أعلى. مراسمهم معقدة. منذ الولادة يُهيّأ الطفل للمرور بطقوس القبيلة للاعتراف به كرجل، وعضو كامل فيها. تجري هذه المراسم بتحضير حفلة سرّية، لا يحضرها سوى الأشخاص المؤهّلين، والمعدّين لها. لا تتمّ إلاّ بعد تحضير وليمة من نوع معين، فالشخص هو الذي يعلن عن انتقاله من طبقة إلى أخرى، بأن يصرّح قائلاً:

- سأصبح **(نوو)** حتى يبعد عن نفسه الخطر في تماسه مع الآخرين، وكي يتساوى مع أفراد مجموعته الجديدة، يجب أن يتساوى معهم ب**(**حقنة روحيّة**)** يُفتح جرح في أحد أجزاء جسمه. يتغيّر مكانها حسب الصفة المؤهّل إليها، والدرجة. توضع في الجرح بعض الدهون الوسخة، من جسم أحد الرجال المقدّسين. يسري ذلك على الرجل عند زواجه للمرّة الثانية أيضاً، كما عند زواجه الأوّل... لفت نظري غياب العريس لفترة خلال عرسه. عرفت فيما بعد أنّه غاب عن الاحتفال لهذا الغرض. عند البلوغ يحدث ذلك، وعند الدخول في إطار الصيادين، وغيره. ليصبح (نوو).. كلّ مرحلة تلغي سابقتها. يجب على الفرد أن يولد من جديد، كتنظيف خاص لجسم الـ (نوو)عن طريق شخص مقدّس. يرتدي نوعاً جديداً من اللباس، ويشارك مجموعته الجديدة طعامهم، ثم يعاد تقديمه إلى كلّ أفراد عائلته. بعدها يعود إلى القيام بواجباته العائليّة اليوميّة .

أما مراسم البنات، فتبدأ بعزل الفتاة فترة من الزمن، في كوخ مظلم بجانب كوخ والديها، وتبقى هناك هادئة مغطاة ببطانية من جلود الأغنام، ولا تتكلم إلاّ همساً. مع ذلك يمكنها استقبال بعض صديقاتها، اللواتي يطحنّ لها أوراقاً زكيّة الرائحة. يجعلنها على شكل بودرة. يغطّين فيها الفتاة كلياً، وعلى الفتاة البقاء في الكوخ. لا تمسّ الماء البارد، كما عليها أن تحمي نفسها من أشياء أخرى كثيرة ، ولمّا يحين موعد خروجها، تأتيها امرأة مسنّة من اللواتي نجحن في زواجهن، وأنجبن عدة أطفال، وتجاوزن مرحلة الحمل، والولادة. هذه المرأة تكلف بالعناية بها، في فترة الانعزال وما بعدها.

.. تعنى هذه المرأة بجسم الفتاة بالدهون الممزوجة بروث البقر لتنظيفها.

.. ترافقها، وهي تخرج من الكوخ ممسكة بيدها بحضور نسوة تنتظرن خروجها.

.. ترافقها، وهي تقوم بإعداد الطعام للنسوة اللواتي يشاركنها بإعداده.

.. تعلّمها كيف تحلب البقرة، بعد أن صارت حرّة، وهي متّكئة على ذراعها.. حليب أوّل حلابة يكون مقدّساً، ولا تشربه إلاّ المرأة المشرفة، والفتيات اللواتي في سنّها.. عند المساء يتمّ غسلها. تسير خلف المشرفة، وخلفها مباشرة امرأة عجوز، وفتاة عازبة.. عند الوصول إلى الماء تأخذ المرأتان غصناً ؛ بينما تكون الفتاة قد سارت إلى مكان موحل، حتى يبلغ الطين أعلى ساقيها .

* * *

- ٢٥ -

كان مرزوق يصغي لناماري على مضض. لم ينتبه ناماري لتبرّمه. ينهض مرزوق فجأة. يخاطبه بعصبيّة:

- وماذا يعنينا من كلّ هذا الهراء!؟

- أهذا تسمّيه هراء يا مرزوق ؟

ينهض الجميع. يقول سرور لمرزوق لائماً:

- ما كان عليك أن تخذله. بالنسبة لي أتابع ما يقوله كلمة كلمة..

وقال مستجيب:

- أنا أيضاً أصغي إليه بشغف .

أجابهما مرزوق:

- الآن علينا أن نفكّر بما نحن فيه. ما يقوله ناماري له غير هذا الوقت..

ثم وجّه سؤالاً مباغتاً:

- ألستم ظمآنين مثلي. يكاد يقتلني العطش !؟

- وأشد ظمأً منك. قال سرور،وأضاف : لكن أين سنجد الماء في هذه الأرض القاحلة..؟

- هيّا نتابع السير .أجابه مرزوق.

انطلق مرزوق أمامهم. فانطلقوا بعده، ثم انتظمت خطواتهم ليسيروا على نسق، عدا ناماري الذي قصرت خطواته، فسار خلفهم، وغلالة حزن ترتسم على وجهه. التفت إليه مرزوق بنظرة ودّ فيها ما يوحي باسترضاء ناماري. التقت نظراتهما. قرأ مرزوق ما بعيني ناماري من عتاب يخفي الكثير مما هو مكتوم. قصّر خطواته حتى حاذاه بالسير. وضع يده على كتفه برفق. تابعا السير دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، بعد فترة قصيرة بادره مرزوق بسؤاله:

- أزعلت مني ؟

- بصراحة لقد صدمتني. كنت، وأنا مسترسل بالحديث عمّا عانيت، ورأيت، وسمعت، خلال الفترة التي سبقت، أشعر بأن روحي ما تزال هناك في أفريقيا. تعانق أهلي. تحلق مثل طير فوق غاباتها. أنهارها. جبالها.

روحي ما تزال هناك تحت شمس أفريقيا تسكن مع أهلها في أكواخهم. تفرح لفرحهم ، وتحزن لحزنهم..

قاطعه مرزوق:

- لكنّنا الآن لسنا هناك. إنّنا الآن، وفي هذه اللحظات كشجرة مقطوعة. أنتم عشتم أياماً عصيبة. ذقتم ويلات حرب مجنونة، لم تبقِ، ولم تذر. نجوتم بأرواحكم، وأنا أسمع وأمتلئ ألماً، وشجناً ، لأنّ ما حدث لا يتقبّله عقل. لا يزال العبد أينما وُجِد عرضة للموت. للجوع. للإذلال.

- ألا ترى معي، كأنّما الزنج، وكلّ أطياف العبيد، الذين اندفعوا مع صاحبهم لحرب العباسيّين، أُصيبوا بلوثة جنون معاً حين فعلوا ذلك!؟

- كانوا ينشدون الخلاص.. هذا عذرهم!

- أليس مجنوناً من يهرب من جحيم إلى جحيم ؟.

- هم لم يهربوا حسب ظنّي من جحيم إلى جحيم، بل من جحيم، إلى أمل. إلى حلم! .

- لكن هربهم - وأنا واحد منهم - لم يكن لأملهم، أو لحلمهم، بل لأمل رجل أوحد، ولحلمه، هو عليّ بن محمد .

- لا أعتقد أنّ ذلك هو الحقيقة!

- أين الحقيقة إذاً ؟

- سنعرف فيما بعد.

- حتى لو عرفنا ؛ فإنّ كل شيء قد انتهى !

- أنا أرى على العكس تماماً. كلّ شيء قد بدأ الآن .

- ثورة عليّ يا صاحبي، نيزك سقط، وانطفأ، وغدا رماداً!

- لطالما على الأرض عبد يئنّ بقيد، فلن تنطفئ نار السعي إلى الخلاص. سيأتي من يؤجّج هذه النار لنفسه، كما فعل صاحبنا، ولن يظلّ حيّاً سوى القيد. ما أمامنا غير طريق واحد، هو العودة إلى بلادنا.

- هناك، عند محطّ أوّل قدم ، سنجد نخّاساً ينتظر، أو قرصاناً. هذا ليس حلاً ..

- ما الحل إذاً برأيك ؟

- نتركه للقدر!

- أما أنا، فلا!

*　*　*

... وصل النقاش مابين سرور وناماري إلى طريق مسدود. لم يحتدّ أحد منهما.

حاول مرزوق أن يكسر الصمت الذي ساد لفترة، والجميع ما زالوا يغذّون السير. كلهم يفكّر بعالمه الخاص:

- نشف ريقي من العطش يا ناماري، بينما كان ناماري يحدّق في البعيد نحو الشمس. فاجأهم قائلاً:

- ماء! ثم أشار بيده نحو بقعة مخضرّة في منخفض من الأرض، تقول لنا خضرتها:

- هنا يوجد ماء!

إنّي أرى طيوراً تحطّ عندها. أترونها مثلي ؟

سارعوا الخطو حتى وصلوا إليها. لم يجدوا ماء بل بقعة تجمّعت فيها مياه مسيل ينحدر نحوها. جفّت مخلفة تربة طريّة، ورطبة . لكن بعض الغربان التي كانت تحط قربها،فرّت حين اقتربوا منها وظلّت تحوم. قال ناماري لهم:

لاشكّ إنّها تحوم فوق جيفة. جالت أبصارهم في المكان .عيناه كانتا الأسرع في رؤية المشهد : إنّها جثة إنسان، وعليها بقايا من ثياب. تراكضوا

نحوها. ناماري كان أسرعهم. تفحّصتها أنظارهم. أجمع الكلّ على أنّها جثّة رجل أربعينيّ مات قتلاً في هذا المكان، ولمّا يمرّ على مقتله أكثر من ساعات، لأنّ قتله حتى لو كان من يوم سابق، لتناهشته وحوش البريّة. عيناه فقط نقرتها الطيور، وبعض وجهه، وظاهر كفّيه. مقتله لم يكن في ذات المكان، وإلاّ لسال منه دم، وتبقّع في التراب جرّاء الطعنات التي في جسمه. ناماري، راح يفسر الحادثة:

- إنّه محمول على دابّة إلى هنا. الأرجح أنّها حصان، أو فرس. انظروا إلى هذا الأثر. إنّه حوافر خيل..

قال لهم مرزوق:

- إكرام الميت دفنه ! فلنحفر له قبراً، وندفنه..

- وأنا أقرأ على روحه الفاتحة. قال مستجيب.

اعترض ناماري:

- لا بل يجب تركه في العراء، كي تأكله الضباع!

حدّقوا به مستنكرين ما يقول. تناول مستجيب حجراً حادّاً كان تحت بصره. اندفع ناماري نحوه. انتزع الحجر من يده :

- قلت يجب أن نتركه للضباع !

سأله مرزوق محاولاً إقناعه:

- كيف يا ناماري نتركه دون دفن ؟ حرام هذا !.

- بل حرام دفنه ! راح ناماري يعلل رأيه بموروث كان قد تأثّر به، من

رفاقه العبيد المنحدرين من قبيلة «النادي» الإفريقية، وطريقة تعاملهم مع موتاهم، وراح يشرح لهم ما عليهم أن يفعلوه:

نطوي رجله اليمنى لأنه رجل، ثم نأتي ليلاً، وننادي الضباع .نتفقّده في ليلة أخرى ؛ وإذا كانت الجثة ما تزال على حالها نبحث عن معزة. نذبحها، ونضع قطعة منها تشويقاً للضباع كي تأتي..

قاطعه مرزوق مستغرباً ممّا يقول:

- وإذا لم تأته الضباع. .أنتركه في العراء !؟

- ماذا يضيره هذا ؟ يكون فيه شيء من السحر!

- أيترك هكذا! ؟ مستحيل!

- لا نبحث عن فعل السحر به. نحرق الجثة بعد أن يبوح بكلّ شيء.

- ما هذه الخزعبلات؟!! .

يشير مرزوق لسرور، ومستجيب، أن يشرعا في الحفر. يقول، وقد بدا مغتاظاً من ناماري :

- الرجل مات مقتولاً، فلا سحر به، ولا من يحزنون. استلّ خنجره من زنّاره، وسبقهما إلى الحفر بنصله.

تنحّى ناماري جانباً، وهو يقول غاضباً:

- .. لن أشارككم جريمة دفنه.الضباع خلقها الربّ، وعليها أن تجد ما تقتات به، في هذه البراري القاحلة!

حمل الثلاثة الجثة إلى الحفرة. واروها فيها. أهالوا عليها التراب.

رصفوا التراب بحجارة صغيرة، بينما كان مرزوق يبحث عن حجر مناسب كشاهدة. عثر على حجر أقرب إلى الاستطالة. ركزه عند رأس القبر:

- الآن تعال اقرأ الفاتحة يا مستجيب .

- أنت أولى! قال مستجيب، وظلّ على موقفه.

أشار مرزوق إلى سرور أن يتقدّم، وما لبث ناماري أيضاً أن وقف خلفهم .

- نتلوها كلها معاً. .قال مرزوق.

وقفوا خاشعين، وقرؤوا الفاتحة، ثم غادروا المكان، واتّجهوا شرقاً.

- يبدو أنّنا في مفازة. قال مرزوق. أضاف، وهو يلوم نفسه على تعنّته الخاطئ في تحديد الجهات:

- أنا المخطئ، وحقكم عليّ!

توقّفوا، والحيرة تبدو على وجوههم..

قال لهم ناماري، وهو يشير إلى مرتفع من الأرض تنعدم رؤية ما خلفه:

- سيروا على مهل، وأنا أصعد ذلك المرتفع أستطلع ما خلفه . إن لوّحت لكم بيميني ، تقدّموا ؛ فأكون قد رأيت خضرة، أو ما يدلّ على شيء يقودنا في الاتجاه الصحيح ؛ أمّا إذا رفعت يديّ الاثنتين قفوا في أمكنتكم . أنا سأعود إليكم .

غادر ناماري المكان عدواً سريعاً، كأنّما لا أرض تحت قدميه. بلغ

المرتفع. صعد حتى نهايته من الجهة الأخرى. كان مرزوق أكثرهم دهشة بخفّة ناماري. شعر في داخله بالندم من جديد على زجره له، سواء حين راح يروي حكايته، أو حين أبدى رأيه في دفن القتيل. قال في داخله:

- إنّ مثل هذا النمر لا يُزجر ! أيّ امرأة حملته! ؟..

إنّه جنّي، وليس إنسيّا ..! ثم حوّل نظره إلى مستجيب، وسرور، مقارناً في سرّه بينهما، وقد بدا عليهما الإرهاق جليّاً، وبين ناماري الذي لم ينل منه عناء المسير ما نال منهما .

توقف ناماري قليلاً في أعلى التلة، ثم ما لبث أن هبط إلى الطريق الآخر منها، وغاب عن الأنظار. بدا الاستغراب عليهم. كأنّما يتساءلون:

- ما بدر منه ليس ما ننتظره!

قال مرزوق مبدّداً ما قد اعتراهم من شكوك حوله:

- لعله راح يتأكّد من شيء ما !؟ لكنّه في سرّه خشي من أن يكون قد افترق عنهم .

قال سرور متوجساً:

- أخشى ألاّ يعود!

عقّب مستجيب متوجسّاً هو الآخر:

- لا أعتقد أنّنا سنراه ثانية !

كان مرزوق متخوّفاً هو الآخر:

- هيّا نسرع بالصعود إلى التلّ، ونتابعه ..

قاطعه سرور:

- يكون قد اختفى ! أضاف : مثله ينطح أباه إذا غضب، ويأكل أمّه إذا جاع! .

وصلوا رأس التلّ منهكين. شاهدوا خربة، ومعالم بيوت كأنّها أصابها زلزال. خلفها من الشرق خضرة في وادٍ شكّلته السيول، قليل الانحدار يمتد جنوباً. شاهدوا أربع خيام صغيرة. دابّتان. ذلول. فرس شقراء.

شاهدوا ناماري يلتفّ من خلف إحدى الخيام. خرجت منها خلفه امرأة. كأنّها تقول له شيئاً ما، وهي تشير بيدها نحو الشرق .

يتّجه ناماري نحو الفرس. يحرّر رسنها من وتد دُقّ في الأرض. يتعامل معها بهدوء، وملاطفة قبل أن يمتطيها. بدت أنّها سكنت له.

قال سرور:

- يبدو أنها ليست أصيلة!

أجابه مرزوق، وهو يهزّ رأسه بالنفي:

- الفرس تعرف خيّالها..! ، ثم انطلقت تعدو بناماري. قال مرزوق في سرّه :

- .. إنها تشبه فرس وطفة. إن لم تكن هي ذاتها ! يتساءل : إن كانت هي؛ فماذا في الأمر ؟

يعتلي ناماري الفرس. يلكزها. تنطلق به. يرى رفاقه. يشير لهم أن يهبطوا من التلّ لملاقاته. تملاّه مرزوق، وهو يقترب منهم. تأكّد له أنّها فرس وطفة بنت أبي ثامر. تساءل في داخله متوجّساً:

- لكن لماذا هي هنا!؟

قال لهم ناماري فور التقائه بهم،وهو يشير إلى الخيام:

- هناك امرأة طلبت التعرّف إليكم!

- هل قالت لك شيئاً غير ذلك ؟ سأله مرزوق.

- لا. فقط سألتني من رفاقك ؟ أجبتها. استغرقت في ذهول عميق. كأنّها تتذكّر. هذا كلّ شيء .

كانت الفرس تنظر إلى مرزوق محاولة التقرّب منه، والتحسّس به. اختطف رسنها من ناماري. ما إن شدّ مرزوق رسن الفرس حتى راحت تصهل، وترفع قائمتيها الأماميّتين، وتخبطهما بالأرض. بدت كأنّها ترقص . فعلت ذلك أكثر من مرّة. .صهيلها كان يشقّ الفضاء..

ساروا نحو الخيام. رسن الفرس لا يزال في قبضة مرزوق، وهي تهدج خلفهم بفرح جنونيّ..

خرجت زرقاء السوح فضّة. خلعت شالها عن رأسها، وراحت تندب. كان ندبها موجهاً لمرزوق:

«عفراقكم يا خلّي، قلبي غدا بالويل

والريح سودا خَذَتْ مني عطور الهيل

والنور بعيوني غبش، ما شوف غير الليلْ

ع غيابكم قلبي احترق، وانهدّ منّي الحيلْ

وريحة فرس ظلّت معي تنده صهيل الخيلْ

خيّالها بين الذياب يلوب، وروحي كنجم سهيلْ»

... همس ناماري في أذن مرزوق مبتسماً بخبث:

- ستظلّ هذه المرأة تندب إلى أن تموت!

حاول مرزوق أن يظلّ صامتاً، لكنّه لم يستطع. سأل مرزوق :

- أشامت بها ؟

- ليس شماتة، لكنّ العشائر ستستمرّ بالاقتتال مع بعضها إلى يوم القيامة!.

انفرد مرزوق عنهم. دنا من المرأة، وقد عرفها تماماً. .إنّها فضّة (زرقاء السوح). بدت شعثاء مهلهلة الثوب. حيّاها. بادلته التحيّة. بادرته الكلام. أخبرته بما حدث بين عشيرة أبي ثامر، وعشيرة أخرى من الشمال تضمر لها الشرّ، الذي ينطوي على الاستئثار بحماية طريق الحجّ، وطريق القوافل التجاريّة، ما بين الشام، والقدس، والشام، وبلاد نجد، وجنوب العراق. لم يكن الهدف عشيرة أبي ثامر وحدها، بل كلّ العشائر التي تنتمي في جذورها إلى (مطلق بن سبر بن شبيب التبّعيّ)..

كانت عشائر الشمال من القوّة، ما استطاعت أن تنتزع المهمّة الموكلة لخصومها في حماية الطرق الحيويّة، وتشتّت شملها .

أما عن عشيرة أبي ثامر، قالت فضّة، وهي غير متيقنة، وباعتقاد غير جازم:

- إنّ أبا ثامر نزح مع بعض عشيرته، بعد مقتل ابنه ثامر إلى جبل الأشعري في حوران. هناك من فرسانه من انضم إلى خصومه، كما تمّ أسر من لم يستسلم، ويخضع لهم، ولم يتمّ العفو عنهم حتى قطعوا على أنفسهم عهداً بالانفصال عن أبي ثامر، والإقامة عند أطراف المدن، أو في أماكن محدّدة لهم بين مضاربهم..

سكتت فضّة لبرهة. عيناها اغرورقتا بالدمع. استطردت تقول بصوت كارثي:

- أمّا وطفة، فقد أسرت. لا يعلم إلاّ الله أين تكون. لا أحد يدري ماذا حلّ بها، لكنني لا أعتقد أنّ أحداً سيصيبها بسوء، لأنهم لن يعتبروها غنيمة، أو فدية، بل رهينة لتنفيذ مأرب وتحقيق شروط .

- لكنّي أرى فرسها هنا !؟ قال مرزوق.

- قطعت الفرس زمامها في تلك الليلة المشؤومة. هربت كما هربنا. لم أكن أدري أنّها تتابع خطانا في اليوم التالي كأنّها واحدة منّا. كنت قد اصطحبت معي إلى هنا صبيّة دخيلة لجأت إلى عشيرتنا هرباً، من صاحب شرطة ابن طولون حسبما قالت لأبي ثامر. لم أعرف أسباب هربها إلاّ في الليلة الفائتة. لا أخفيك سرّا أنّنا تمكّنا من قتل أحد جنده عند فجر هذا النهار. جاءنا متخفياً بزيّ بدويّ. كانت الدخيلة تعرفه من قبل. لا ندري من وشى له حتى عرف أنّها في هذا المكان. كنت نائمة عندها. حاول التسلل إلى خيمتها. ربّما لقتلها، أو لاختطافها. هي الليلة الوحيدة التي فكّرت فيها بألاّ أدعها تنام وحدها. كأنّ هاتفاً

من الغيب أوحى لي: هناك من يضمر لها شرّاً. رأيت من شقّ الخيمة شبحاً ينبطح أرضاً. راح يزحف نحونا، و كعادتي عند النوم أضع الخنجر تحت وسادتي. مددت يدي. نزعت الخنجر من غمده. شددت عليه قبضتي. وصل الشبح الزاحف الخيمة. انتظرت حتى دخل القسم العلويّ من جسمه الخيمة .أحسست أن الدخيلة تتعرّض لسوء. صرخت. ارتبك. كانت فرصة لي أن أغمد الخنجر في صدره. نزعته فيما كان يحاول الوقوف. طعنته في الخاصرة. هوى، ثم لا أدري كم طعنة طعنته حتى تلاشى تماماً. فكّرنا طويلاً ماذا نفعل بجثته!؟. أخيراً حملناه على ظهر فرس وطفة، وألقيناه خلف التلة الواقعة إلى الشمال من هذا المكان كي تأكله الوحوش . كلّ ذلك تمّ قبل شروق الشمس. قالت لي الدخيلة:

- أنا أعرف هذا الشخص. هو السبب في لجوئي إلى الشيخ أبي ثامر، وأكون دخيلة لديه. رجل من القدم الشريف، هداني إليه. قال لي:
- إنّه الوحيد الذي يستطيع حمايتك. حدث ما حدث للعشيرة، وعليّ أن أحمي دخيلها..

.. أخلت لهم زرقاء السوح خيمة تقيم فيها امرأة وولداها الصغيران، ليستريحوا، ويلوذوا عن الأعين. هناك من يترصّد هذه الخيام من بعيد بين الحين والآخر. أعدّت لهم ما تيّسر من طعام. تناولوه، وراحوا في إغفاءة طويلة. عدا مرزوق. شاغله التفكير بالطريقة التي ينقذ فيها وطفة. جافاه النوم. كان مشوّشاً، فلم يستطع أن يجد حلاً. فضّة بالمقابل كانت في خيمتها

تفكّر أيضاً، كيف ستستعين بهؤلاء الشبّان، لتحقيق أكثر من غاية. أوّلها إنقاذ وطفة. الصبيّة التي لو لم تؤخذ على حين غرّة، لما أصاب العشيرة ما أصابها..

.. ليلاً، انفردت فضّة بمرزوق تتدارس معه الوسائل التي تنقذ فيها وطفة، وتعيد لعشائر قبيلتها بعض هيبتها، بعد شروط خصومها القاسية. شروط تفضي إلى أكثر من إذلالها، حتى لا تقوم لها قائمة، ولو بعد ألف عام. أوّل هذه الشروط وأقساها، أن يذهب كلّ شيخ عشيرة بمفرده، وألاّ يدخل حمى قبيلة الخصم إلاّ راجلاً. يقدّم نفسه لزعيمها متحلّلاً من الولاء لقبيلته، ومن زعامته لعشيرته، وفدية مؤلفة من مائة ناقة، وألف ليرة ذهبيّة.

- بالقوة ؟ !قال لها مرزوق، بعد كل ما دار بينهما من نقاش.

- لا. بالحيلة ! أجابته حاسمة الأمر بأن قوّة أفراد قلائل ليست أكثر من مقامرة خاسرة في وجه قبيلة تسيطر على معظم البوادي الشامية بالإضافة إلى أنها أصبحت صاحبة المكانة المميّزة لدى ولاة السلطان بحمايتها لمصالحهم، ولاستتباب الأمن في الصحراء. بالحيلة، وهي الأكثر صواباً، في كسر شوكتهم، وعنجهيتهم يا مرزوق..

.. أصرّت فضّة على رأيها. فنّدت له ما يجب أن يكون، وما يمكن أن يحدث.. إنّ للون البشرة حكمته. قالت: أنت والأسمر الآخر (ناماري) لكما مهمّات سأوضّحها لك فيما بعد. الاثنان الآخران. (وهنا بيت القصيد)، أحدهما يأخذ دور تاجر من اليمن السعيد، والآخر دور تاجر

حبشيّ، تقصد الأول (مستجيب)، والثاني (سرور)، وأنت تكون عبداً لأحدهما، ورفيقك عبداً للآخر..

قاطعها مرزوق بحدة:

- أسقط، وأموت حرّاً، وقويّاً يا فضّة، ولا أكون عبداً لأحد، أو أكون حيّاً، أعيش خفيض الرأس!

ضحكت فضّة قائلة:

- أنت فيما نرمي إليه، لست كما تظنّ. أنت لأنك حر ستفعل ذلك!

فكَّرَ قليلًا بما ألمحت إليه فابتسم:

- الآن فهمت. وماذا بعد ؟ سألها.

قالت:

- الجواد لسيّدك، لأنّك أنت ستصحب وطفة على جوادها، والذلول لسيّد رفيقك. اذهب الآن. تداول مع رفاقك بهذا الشأن. نسيت أن أقول لك بأنّني سأزوّدك بصّرة من الذهب، والجواهر، والدراهم، لهذه الغاية، حتى تتخاطب مع التجّار الآخرين، ومع من ستتسقّط الأخبار عن وطفة، وعن مكان تواجدها..

لم يَطُل الوقت الذي تحدّث فيه مرزوق لرفاقه عن وطفة وذويها، وعمّا حلّ بهم. وافقوه الرأي على إنقاذها، مقتنعين بأدوارهم في هذه اللعبة الخطرة، التي تحتاج إلى الكثير من الحنكة، والحذر. .خيّم الصمت عليهم لفترة كان كلّ منهم شارداً يتذكّر مغامراته في الاستبسال، أو الدهاء.

كسر مرزوق هذا الصمت، حين طلب منهم، أن يروي كلّ واحد منهم واقعة تركت في نفسه أثراً لا يستطيع نسيانه، أو شاهدها بأمّ العين، أو سمعها.

مرزوق كان يبغي تبديد قلق انتابه حول وطفة أولاً، وهي الفتاة التي تجرّأت على نزاله، وعلى ذويها الذين احتضنوه بكلّ الحنان والمحبّة ذات يوم..

وحتى ساعة متأخّرة من الليل ساهروه بحكاياتهم..

كان مستجيب متعجّلاً البدء بالحديث، قال:

- اسمعوا. .لا شكّ أنّكم تذكرون ما قلته لكم كيف عملت فترة مع عبيد المالك زبيدة البصراوي في كسح السباخ !

قاطعه سرور مازحاً:

- تحكي بلهجة سيّد، وكأنّك لم تكن عبداً !

- أووه. .وأكثر من عبد. ثم تابع:

- اقتادني وكيله المشرف علينا، في ضحى نهار إلى ضواحي البصرة. هناك دخلنا داراً كبيرة لأحد أصحابه . كنت طوال الطريق خائفاً. أيّة مفاجأة تنتظرني لا أعرف. كان في ساحة الدار بعض الصبيان البيض، والشقر، والملوّنين. نحّاني جانباً، وبعد فترة قصيرة من الانتظار، دخل الدار رجلان، أحدهما يحمل مخلاة جلديّة، تذكّرت أنّه الطبيب اليهوديّ، الذي أحضروه ذات يوم إلى سباخ زبيدة، لمعالجة

الغلمان المصابين بالجرب، والملاريا، والثاني لاشكّ مساعده. تساءلت في داخلي عن سبب حضوره، وعن وجود الصبيان في الدار، وعن إحضاري. لم يخطر ببالي أبداً أنّ عملية إخصاء ستجري لهؤلاء الصبيان المساكين.. ما إن رأوه حتى استبدّ بهم الخوف. منهم من غالبه البكاء الذي يقطع نياط القلب. .لماذا أنا هنا ؟ سألت نفسي.

أفرغ الطبيب مخلاته من أدوات. تفقّدها، ثم أعادها إلى المخلاة. قصد إحدى غرف الدار. دخلها دون أن يتبعه المساعد. قال الوكيل لي:

- أنا سأذهب لشراء حاجيات من المدينة. عليك أن تذهب فور انتهاء عملك هنا وحدك إلى السباخ، إذا لم أعد لاصطحابك. كنت لا أعرف لماذا جاء بي الوكيل إلى هنا..

أشار مساعد الطبيب للصبيّ الواقف إلى يمين رفاقه أن يتقدم نحوهما. سقط الصبيّ خوفاً، وهو يبكي. أمرني المساعد:

- احمل ذاك الصقلبيّ إلى هنا، وضعه بين يديّ الطبيب..

كان عارياً. حملته. كان يرتعد. بال علي. أمرني الطبيب بأن أمدّده أمامه، وأثبّت يديه، ورجليه، ولا أدعه يتحرك. فعلت كما أمرني.

- أخرج الطبيب من عبّه علبة دهون. دهن قضيب الصبيّ، وخصيتيه، ثم بالمشرط شقّ إحداهما، وعصرها. صرخ الصبيّ. صار يرتجف بين يديّ. عيناه كانتا تتوسّلان إليّ، وهو يتمتم بما يتلعثم على شفتيه من كلام لم أفهمه. سال دم غزير منه. مسحه مساعد الطبيب بخرقة كانت في يده. همّ الطبيب ليشرط الخصية الثانية التي اختفت. الخوف

جعلها تهرب إلى جوفه، فلم يستطع الطبيب الحؤول بها، وإمساكها. أمرني بأن أزيح الصبيّ جانباً، وآتي بآخر، ففعلت..

نجح الطبيب بشقّ خصيتي الصبيّ الثاني.ناوله مساعده قطعة خشب كانت قد أفرغت مع المشارط، وسواها من المخلاة. جعلها تحت قضيب الصبيّ، وقطعه من أصله. دهن موضع القطع. سارع مساعده بخرقة، وشدّ بها على هذا الموضع..

تكررت عملية الشقّ، والقطع مع الصبيان جميعهم، ومع انهماكنا لفترة بهم. نسي الطبيب، أو بالأصحّ تناسى الصبيّ الأول عن قصد حسبما تأكّد لي. كان قد سال منه دم كثير. أمرني بأن أحمله إليه. كان الطفل متلاشياً تماماً. ظننت أنّه مغمى عليه.. لكن الصبيّ كان قد فارق الحياة، أو أنّ الحياة قد فارقته سيّان! .

انتقل الطبيب من مخصيّ إلى آخر، وهو يضع في منفذ البول مراود من رصاص، كان قد أعدّها لهذه الغاية، لتُخرج عند التبوّل، إلى أن يبرأ المخصيّ كي لا يلتحم .

كان الخوف يلازمني من أنّني سُأخصى مثل هؤلاء الصبيان بعد الانتهاء من إخصائهم، لكنّ الطبيب أمر مساعده بأن يكفّن الصبيّ الذي مات. دخل إلى إحدى الغرف. أحضر قطعة قماش من كتّان رقيق. ساعدته بلفّه. فعلنا ذلك كما لو كنّا نلفّ حصيرة من قشّ. أمرني بأن أحمله إلى مدفن قريب. حملته كما لو كنت أحمل شاة نافقة. هناك كان شخص بانتظاري. أخذه منّي كما لو كان يأخذ شيئاً مرسلاً إليه، وليس

إنساناً كان قبل ساعات حيّاً. ليس إنساناً ولدته أمّ تعبت بحمله، وعاش طفولة كان خلالها يلعب. يحلم.

عدت إلى السباخ. حمدت الله أنّني لم أتعرّض في يوم ما كي أكون خصيّاً. العمل في السباخ، وغير السباخ، أهون ألف مرة..

فيما كانوا يصغون إليه باهتمام، سأله مرزوق باستفزاز ساخر:

- ألم تفكر بينك، وبين نفسك، أأنت مخصيّ أم لا؟!

- أنا ؟ ! أجابه مستجيب مستغرباً، وقد بدا الاستغراب أيضاً على رفاقه، جرّاء هذا السؤال.

- نعم، أنت!

ظلّ مستجيب صامتاً. صدمه سؤال مرزوق، وإصراره على معرفة الإجابة. راح يفكّر في سرّه بما يعنيه. لم يجل في فكره سوى أنّ قضيبه يؤدي وظيفته في التبوّل، ويستجيب له حين يفكّر، أو يحلم بامرأة ! أضاف مرزوق، وهو يدرك أنّ مستجيب لن يجيب على سؤاله، وبتأكيد، وحدّة:

- هم يُخصون مرّة واحدة. يعيشون بين جواري القصور. على الأقل يستمتعون برؤية قدود جميلة. يستنشقون العطور. يشبعون ولو من بقايا فاخر الأطعمة، والشراب. يسمعون الغناء، والموسيقى. .أما أنت فمخصيّ آلاف المرّات.

لاحت ابتسامة شامتة من سرور. انتبه مرزوق. قال له:

- وأنت مثله!

انتظر سرور أن يضمّ ناماري إلى القائمة. كي يتعادلوا، لكنه ظلّ صامتاً. ابتسم ناماري ابتسامة المنتصر. قال له مرزوق:

- وأنت أيضاً!

- أنا ؟ أجابه ناماري مستنكراً..

- نعم لكن بيدك أنت، لا بيد الآخرين ! أجابه.

- أنت أيضاً إذاً !؟ قال ناماري.

- أنا ؟.. لا!

أجابه مرزوق بحدّة:

- انتبه إلى ما سأقوله لك : أنت تخصى، حين لا تستطيع أن ترفع رأسك في وجه خصمك .حين لا تكسر يده إذا امتدّت إليك. حين لا تفقأ عينه إذا نظرت إليك بشرّ، ولا تدفنه حيّاً إذا تمادى عليك!

شعر مرزوق بأنه أثقل عليه. افتعل الهدوء، وراح يسترضيه:

- لا تغضب، كثيرون مخصيّون. القويّ دائماً يحاول أن يخصي الضعيف. القويّ أيضاً يمكن أن يخصى. يخصيه المال، والمرأة. السلاطين يُخصون . يخصيهم الغرور، والاستبداد. يسكت مرزوق لبرهة. يتمعّن في وجوههم يستطرد:

.. النخاسون؟ : هؤلاء إلى الجحيم.

.. القراصنة؟ : وحوش مفترسة ؛ لا تعرف متى ينقضّون عليك.

.. السادة؟ : آه منهم. مصّاصو دماء. حتى على الربّ ينافقون. أعجب كيف يعطيهم. كيف يمدّهم بكلّ أسباب العيش الرغيد، ولا يعطينا سوى ما يصنعون لنا من قيود، وسوى الشقاء..

سكت مرزوق، وأطرق في الأرض، مخففاً ما اعتراه من توتّر وانفعال. رفع رأسه بعد برهة. تأمّلهم. كانت عيونهم غارقة بتساؤلات مبهمة، كأنّها تستحثه على الإجابة. استرسل بحديثه لهم من جديد:

- قلت لكم أنا لم أُخصَ. نعم. لكن ما الذي حدث؟ صرت مثل صحراء قاحلة. دبّت الحياة بها بعد شتاء قاس أزهر الوحشيّ فيّ. صرت مثل مغارة خلت إلاّ من خيوط عنكبوت . داخلها وحش ضارٍ، وخارجها وحش بشريّ. لا أحد يتجرّأ على الاقتراب منها، أو على دخولها. مرغماً بقيت وحيداً. مقصيّاً. أنا أقصيت نفسي، حتى لا أتعرّض لخصاء . هذا ما كنت أرومه. الحقيقة، هي أنا -وليس باختياري- أقصيت نفسي. كلّ شيء كان يُضيّق عليّ حتى الحلم. تضاءلت في الوقت الذي كانت تضيق به حريّتي دون أن أدري. كان ذلك أقسى من الخصاء.. ثم لاذ مرزوق بالصمت، على أمل أن يُخرجوا هم أيضاً ما يغلي في صدورهم.. كان ناماري ينظر إليه.. لاح له كأنّ ناماري يريد أن يقول شيئاً. سأله :

- بم تفكر يا ناماري؛ كأنّ كلاماً بعينيك!؟

كان ناماري مذهولاً، ففاجأه سؤال مرزوق. أجابه:

- أكثر من الكلام يا مرزوق!

- هي الذكريات إذاً!

- أجل هي الذكريات، وأبعد من الذكريات. وأنت تتحدّث، كانت أطياف رفاقي الزنج الذين أكلتهم الحرب، والملاريا، كما طيور سوداء لا تزال تحوم مشتعلة في رأسي: «ماتابا». «مارفي». «كارنجي». «دومي». ماتوا بين يديّ. على صدري لفظوا أنفاسهم الأخيرة، وأنا أنتزع السهام من أجسادهم «نغوني» مات مريضاً بالملاريا. لم يعفوه من العمل ريثما يصحّ. كان يعمل وهو يرتجف. كم زاغت عيناه، وسقط ليصحو تحت سوط الوكيل. «شاكا» ابتلعه النهر. «سيسل» مات، وهم يعذّبونه . مئات مثلهم. آلاف. يلوحون لي الآن في سواد البصرة. سواد كأنّه من أجساد هؤلاء، ممّن ولدتهم أمهاتهم على أرض القارّة السوداء. من أعالي النيل إلى المحيط. فيهم، الكوشيّ. الجيبوتيّ. البوغنديّ. الغينيّ. ومن كل مكان في القارّة. كأنّما هي مزرعة لإنتاج العبيد. مزرعة للنخّاسين !.

مع الجيش العباسيّ كنّا طعاماً للموت. مع صاحب الزنج كنّا طعاماً للموت.. يا «هوتسوي غواب» يا مرسل العواصف والأمطار.. أين المخلص. الروح العظيم «هيتسي إيبي » الموجود في كلّ مكان. لماذا لم تكن معنا؟ ما معنى أن يقاتلوا العبيد بالعبيد !؟ ما معنى أن يخالف السادة في هذه الجبهة، أو تلك. ما جاء به لهم إله يعبدون، ووصايا نبيّ به ادّعوا أنّهم آمنوا!.

انتهى بوح ناماري لهم. كان أقرب إلى الهذيان. تمتم سرور، وهو ينظر إليه بأسى:

- هذه هي الحياة يا ناماري، وهذا ما تريده. حاول أن تغفو. إنّك متعب!

قال مرزوق لسرور:

- ليس هذا ما تريده الحياة، بل ما يريده أعداء الحياة يا سرور. لا يزال أمامنا متّسع من الوقت كي ننام لفترة قبل انطلاقنا. فلنأخذ قسطاً من النوم.

* * *

«وكانوا يبيعوننا كالحيوانات

ويعدّون أسناننا

ويجسون خصينا

ويضعون في عنقنا

عنق الحيوان الخاضع

طوق العبودية والمهانة

بقدر مايموت كلّ شيء فإني...

إنّي أتّسع

أنا النار

أنا البحر

العالم يتفكّك ولكنّي أنا العالم»

من قصيدة «وصمتت الكلاب»

للشاعر الزنجي إيمي سيزر...

- ٢٦ -

أشرقت الشمس لمرزوق، ورفاقه عند خربة الأمباشي التي ضربها القدر ذات يوم، فعجن البشر، بالحيوان، بالتراب، وغدت ركاماً بعد أن كانت محطة مزدهرة للمسافرين، من الجزيرة العربية إلى الفرات، وللسابلة من أبناء المنطقة، ومكاناً لدفن موتى عابري السبيل. لم يتوقفوا فيها بل تابعوا السير شمالاً.

باتوا ليلتهم في أحد خانات السفر بين الشام، والشمال. كان اثنان من عسس الوالي يبيتان بزيّ تاجرين، مهمتهما مراقبة جاسوس مرسل من قصر سامراء، لتقصّي الأحوال في الديار الشاميّة، ومحاولة تجنيد أعوانٍ لسامراء من هذه الديار. أهمّ من ذلك كله معرفة نوايا ابن طولون، بعد إصراره على عدم إرسال الخراج إلى مركز الخلافة، واحتضان العبيد الفارّين، أو الناجين، من المعارك التي انتهت بنصر سامراء، على صاحب الزنج وجيشه. أحد الرجلين كان على معرفة بمرزوق، وهو تحت تصرف الحاكميّة. دُهش لمرآه. لكنّه أشاح النظر عنه متجاهلاً معرفته به .

عرفه مرزوق أيضاً. لقد كانت بينهما علاقة فيها الكثير من الودّ. لم يطق الرجل صبراً. تقدّم من مرزوق. ألقى عليه، وعلى من معه السلام، وهو غير مصدّق نفسه أنّه أمام ذلك العبد الذي شغل الحاكميّة، في عهد حاكمها التركيّ ماجور، وفوجئ به حيّاً لا يزال. تذكّر كيف

تناقلت الروايات قصّة موته، وكيف آلت بطولته إلى ذاكرة الناس، وحكايات العشيّات .

كما يتذكّر مرزوق أيضاً، أنّ هذا الرجل من العسس، الذين كان يُعتمد عليهم في التقصّي، وملاحقة الأثر، والعيافة، والقيافة، بذكائه، ودهائه، والوصول إلى غايته، بأيّة وسيلة، أو ذريعة، وله من الحنكة في تمويه، وتغيير شخصيته ما يعجز أقرب المقرّبين إليه كشفها، وبراعته في استدراج ضحيّته، لوقوعها في الفخّ، دون أيّة ضجّة، وبالتباس يجعله بعيداً عن الشبهة، ويجعله في نفس الضحيّة الأمل بالخلاص، مما هي فيه من مأزق، أو تجريم يصل حدّ السجن، أو قصاص عاقبته الإعدام، أو الحدّ على الأقلّ .

خارج الخان، أعطاه مرزوق بعض الليرات الذهبيّة، ووعده بأكثر منها إذا تمكن من معرفة المكان الذي تُأسر فيه وطفة، بعد أن روى له ما يعرف عنها، ومعرفة مصير ضحى، والمكان الذي هي فيه، فيما لو كانت ما تزال حيّة ..

قال له الرجل:

ابقَ، ومن معك، في الخان ؛ فأنا منذ هذه اللحظة تحت أمرك. سأغادر بعد أن أقنع زميلي، بحجّة تمكنّني من تركه وحيداً هنا، ولن أعود إليك، إلاّ بالخبر اليقين. أمّا ما ألوم نفسي عليه، أنّني صدّقت حكاية موتك يا شكاكرين !؟.

- انسَ شكاكرين يا رجل. أنا مرزوق.

- للحقّ أقول لك: كنت مندهشاً، ومعجباً بك، في ذلك النهار، الذي لا أنساه. كنتَ مثل جنيّ. كيف لم يستطع أحد من الجند الاقتراب منك، والوقوف بوجهك ؟!.

اسمع يا مرزوق. سأسدي لك هذه الخدمة، لكن إيّاك أن تلعب معي..

- أريد الخبر اليقين ! أجابه مرزوق.

... يعرف هذا العسسيّ كيف يتسقط الحقيقة. له في العشائر، بل في كل مكان، من يزوّده بالمعلومات التي يشاء، والتي لا يشاء، لما به من طمع الوصول إلى المتنفّذين. هو جسر غير مرئي، بين الضفاف جميعها . مثل حرباء يتلوّن. رجراج مثل زئبق. كان يداً قويّة للحاكم التركيّ، والآن، صار يداً أقوى لابن طولون. .كان عوناً للقبيلة التي تحرس، وتحمي طريق الحجّ. الآن هو مع القبيلة التي انتصرت عليها، ودفعت بها إلى الشتات، وأخذت دورها. دائماً هو مع الأقوى.. أكّد لمرزوق أنّه سيأتيه بالخبر اليقين..

... في اليوم التالي خلا الخان إلاّ من مرزوق ورفاقه.

عاد هذا العسسيّ بعد ثلاثة أيام. يطفح وجهه بالبِشر. نحّى مرزوق جانباً:

- هاتِ الذهب أولاً!

- ليس قبل أن أعرف كلّ شيء!

- هه. ما هكذا اتّفقنا !

لوّح له مرزوق بصرّة أمام عينيه :

- الحقيقة أولاً ! وطفة في أيّ مكان. ضحى ما مصيرها ؟

- سأقول لك كلّ شيء. لكن إيّاك أن تلعب معي !

هزّه مرزوق من صدره، وقال له بحدّة:

- لا أغدر حتى بعدوّي ! قل ما عندك!

أفضى العسسيّ لمرزوق بكلّ ما عرفه عن وطفة : المكان، وبدقة متناهية . الخيمة، وتوصيفها.الحراسة، و مناوباتها. الرعاية، ومن يقوم بها .

... أكدّ لمرزوق أنّها لم تتعرّض لإساءة، أو أذى. أكّد له أن زعيم القبيلة سيزفها لأيّ وضيع من شباب القبيلة، إذا لم تنفّذ شروطه خلال عشرين يوماً، ثم زوّده بحيلة كاذبة اختلقها له، مدعيّاً أنّه وجد من يساعده في العشيرة على هربها، والطريق الذي يضمن سلامتها.

... وضع مرزوق في حسابه كلّ شيء، إلاّ هذه الحيلة، التي لم ترق له حبكتها، ولم يصدّقها .

أمّا عن مصير ضحى. قال:

- إنّها دخيلة لدى عشيرة أبي ثامر. هي الآن بكنف امرأة من هذه العشيرة تدعى فضّة، ويطلقون عليها زرقاء السوح، تخيّم جنوبي خرائب الأمباشي، والهبّاريّة، عند أحد الوديان..

- إنّه يكذب... قال مرزوق في سرّه. كنّا هناك، ولم نرها... أو أنّ فضّة تخفيها عن الأعين... ربّما! .

بعد تردّد أعطاه ما وعد به من ليرات ذهبية. غادر العسسيّ الخان، وهو متيقّن ممّا قاله لمرزوق. أقسم بأغلظ الأيْمان أنّه لم يخدعه.

تأهّب مرزوق، ورفاقه لمغادرة الخان. وغذّوا السير شرقاً حتى الغروب. باتوا ليلتهم في خان آخر على ذات الطريق، ثم توغلوا في البادية. دليلهم بدويّ كان يبيت في الخان. قدّم له مرزوق أعطية من الليرات الذهبية كإكرامية. رفضها لعزّةٍ بنفسه، وشكّاً بقصده. الأهمّ أنّه لأوّل مرّة يفاجأ بعبد يخاطب الآخرين نيابة عن سيّده. أقنعه مرزوق بأنّ التاجر يثق به، ويعتمد عليه حتى في مساومات البيع والشراء .

لم يكن هذا البدويّ متكتماً كسواه من البدو. كان لاستفاضته في الكلام، وتبجّحه، وادّعائه، وتباهيه بنفسه، وثرثرته التي ذهبت في أكثر من اتّجاه، وتناولت أكثر من موضوع، مدخلاً ليلتقط منه مرزوق رأس الخيط الذي يصله بوطفة، ويساعده على انتزاعها من الأسر بأيسر السبل.

... جعلوا قصدهم عند وصولهم مضارب العشيرة ربعة زعيمها. استقبلهم شابّ ببشاشة غامزاً لمرزوق أنّه المعنيّ من رجل الخان بمساعدتهم. قادهم إلى ممرّ تستطيع وطفة أن تراهم من شقّ خيمتها حين يعبرونه.

رأى مرزوق من بعيد خيمة صغيرة، يجلس على مقربة منها عبد بوسطه سيف قصير، يقوم بحراستها. .ومن شقّ خيمتها لمحتهم وطفة . وقعت عيناها على فرسها أوّلاً. كانت الفرس تخبّ بمستجيب ذليلة. مرزوق يسير إلى جانبه. يلتفت خلسة نحو خيمتها. أدركت أنّها ستنال حريّتها لا محالة. تذكّرت أفعال مرزوق بتفاصيلها. بدأت تستعدّ لمعركتها

الفاصلة، مع التحرّر من الأسر. قالت في سرّها مؤكّدة لذاتها، ما تخمّنه عن تواجد مرزوق، ومن معه في هذا المكان القصيّ :

- إنّهم هنا من أجلي، وليس لأي غرض آخر!

انتبهت إلى سيفها المثبّت بسرج الفرس .

... في لحظة خاطفة تغيّر اتجاه الريح. تمحى من ذاكرة مرزوق، ورفاقه خطّة زرقاء السوح..

.. تثب اللبوة النائمة في صدر وطفة..

كانت القبيلة الآسرة تراهن على وطفة : أن تنكسر شوكتها. أن تمتنع عن الطعام. الاغتسال. الزينة، حداداً على ما ألمّ بعشيرتها، أو أن تموت قهراً، أو تجنّ. كانت على العكس من هذا كلّه، ظلت على طبيعتها، متيقّنة في داخلها أنّ الساعة التي ستُحرر فيها آتية لا ريب فيها. كانت قيامتها حين انقضّت على حارسها كما باشق. كمّمت فمه. انتزعت سيفه. شلّته المباغتة. دفعته بالسيف إلى خيمتها، فخمد خائفاً مذعوراً.

لم ينتبه سوى مرزوق لما كانت تفعله وطفة. كان ذكيّاً حين أخفى تعاطفه معها. ترك الأمور على طبيعتها، وترك وطفة تنفّذ ما برأسها. أقبلت نحوهم مشهرة سيفها في وجوههم. بادر مرزوق برفع يده استسلاماً لها. فعل رفاقه ما فعل. رأتها الفرس، فرفعت قائمتيها الأماميّتين، وصهيلها يشقّ الفضاء. خرج الكثيرون من خيامهم بدافع الفضول عند سماعهم الصهيل. غمز مرزوق لمستجيب، ألاّ يقاوم وطفة إذا ما دفعته عن الفرس، وهذا ما حدث..

وبأسرع من البرق غابت وطفة بفرسها عن الأبصار. بعد فترة لا تقلّ عن ساعة من الزمن انطلقت ثلة من الفرسان خلفها. عادوا مع غروب الشمس، دون بلوغها، ودون معرفة الجهة التي سلكتها، أو اختفت فيها.

ليلاً طلب زعيم العشيرة أن يصف له التاجران : مستجيب، وسرور، ما حدث.

تطابق وصفهما مع ما قال العبدان مرزوق، وناماري، الرابضان خارج الربعة. لم يتعرّض أحد منهما لمساءلة..

لم تعقد أيّة صفقة تجاريّة بسبب انشغال العشيرة، التي كانت تؤتمن على احتجاز وطفة كرهينة، أو كأسيرة، بفرارها في وضح النهار. لم تقع العقوبة، إلاّ على حارسها العبد، الذي اقتادوه إلى مكان بعيد غير مأهول، تكثر فيه الوحوش الضارية. هناك قيّدوه لتنهشه الضواري حيّا.

آخر الليل سرى مرزوق، ورفاقه، وعادوا إلى مخيم زرقاء السوح، بعد وداع زعيم العشيرة المضطربة، بسبب فرار أسيرتها، رهينة القبيلة الأم، لهذه العشيرة..

وصلوا مع غروب الشمس في اليوم التالي. لم يجدوا أحداً. رماد المواقد. آثار مواقع الخيام، والروث ذلك وحده ما يدل على أن المكان كان مأهولاً، وهجره ساكنوه الذين لا تزال رائحتهم تنبئ أنّهم غادروه للتوّ .

- لا بدّ أن أمراً ما قد حدث! قال مرزوق لرفاقه .

- ما العمل ؟ سأله سرور.

- نتابع المسير إلى جبل الأشعريّ في حوران.

- وإذا لم نجد أبا ثامر هناك ؟

- يكون قد عاد إلى جبل بدران، أو ؟!

- أو ماذا ؟ سأله سرور متوجّساً.

- لا أدري!. ثم بدا مرزوق شارداً يفكّر .

- أراك شردت . قال له سرور.

أجابه، وعلامات التشاؤم على وجهه:

- لن يتركوا قبيلة هذا الرجل بحالها، والآن زاد الطين بلّة بفرار ابنته من بين براثنهم .

- لِمَ لا يكون في حالة مغايرة. ينهض بعشيرته من جديد. يجمع فلولها؛ ومغادرة فضّة هذا المكان دليل على ذلك ؟ أعتقد أنّه يستجمع قواه ليثأر لكرامته. لن ينسى دم ولده، وآخرين. لن ينسى قصّة أسر ابنته!.

أجابه مرزوق بعد تفكير عميق:

- الرجل عاقل. لا أعتقد أنّه سيلجأ إلى تأجيج العداء، بل إلى الصلح. لن يلجأ إلاّ إلى إخماد النار، ودفن الأحقاد. لن يفكّر بعد الآن بما كانت تدرّ عليه حماية الطرق، ولن ينسى ما بين قبيلته، والخصوم من مصاهرة، وقربى..

هذا ما أعتقد أنّه كلّ ما يفكّر فيه أبو ثامر في هذه الأيام الصعبة!.

.. اقترب مستجيب، ونبق بفكرة تخصّه وحده. قال لهما على نحو مفاجئ:

- أنا سأعود إلى دياري!

أجابه مرزوق مستغرباً هذا القرار المفاجىء:

- وهل لك ديار تعود إليها ؟ في بلد أبيك لا مكان لك. كذلك في بلد جدّك التي تجهلها، وتجهلك... وفي بلد أخوالك تنتظرك العبوديّة. لن يرحمك أحد. سيتلقفك فيها من يبيعك ويشتريك، أو من سيهدر دمك..

قاطعه مستجيب:

- وهنا سائب أنا، ودمي! هناك لي على الأقل قبرٌ أدفن فيه..

ضحك مرزوق:

- أو نهرٌ تلقى في لجّته!

- هناك لن أكون مختلفاً عن أمثالي بشيء. كلامك لن يخيفني.

ربّت مرزوق على كتفه قائلاً:

- وأنت عبد، لك الدنيا كلها ! أنا لا أقصد أن أخيفك. قد تخاف من أيّ شيء. الجميل أنّك لا تزال دون وشم على جبينك، أو بين كتفيك. هنا لونك يحميك، وستجد من يراك سيّداً. هناك لن يكون أمامك، أو خلفك سوى السوط!.

- وليكن!

.. كلمة حاسمة قالها مستجيب لمرزوق أخيراً. كشفت الغطاء عما كان يدور في رأسه، ويفكّر فيه دون أن يفصح عنه من قبل.

كان ناماري وسرور يصغيان لهما دون مبالاة. همس سرور بأذن ناماري ساخراً:

- صاحبنا (أي مرزوق) يحرث البحر!

- أأنت أيضاً تفكّر في العودة إلى ديارك ؟سأله سرور.

- حتى الآن لم يخطر ببالي أن أعود، أو لا أعود. لكن ربّما ! وأنت ؟

- أنا فكّرت، لكن لم أصل إلى قرار .

... في الطريق كانوا يتناوبون امتطاء الذلول. كان الأكثر شغباً ناماري، يمازحهم بأفعى صغيرة كان قد اصطادها. انتزع منها إبرتها اللاسعة. يخيفهم بها تارة. يلاعبها كحاو عريق تارة. اصطاد لهم من بين صخور اللجاة أرنباً سميناً. توقفوا عند بركة صغيرة آسنة الماء . سلخ ناماري الأرنب وشواه لهم. أكلوه، وتابعوا المسير حتى أذرعات (إزرع) شاهدوا قافلة صغيرة تحطّ رحالها حول الخان. عرف مستجيب من أحد حرّاسها أنّها قاصدة الإحساء. قصد مستجيب زعيم القافلة، وهو يهمّ لدخول الخان مع عبده. استوقفه يسأل عن وجهتها. نظر إليه متخوّفاً من أن يكون واحداً من قطاع الطرق:

- ماذا تبغي من معرفة وجهتها؟ سأله، بينما تأهّب العبد ينتظر إشارة من سيّده.

لاحظ مستجيب الشرّ في عينيّ العبد. أجاب متلجلجاً:

- أودّ لو أكون خادمك في هذه الرحلة، وحارساً أميناً لتجارتك ؟!

- يصطحبني من الرجال ما يكفي. اذهب وشأنك !.

- .. راح مستجيب يتوسّل إليه. لان قلبه حين عرف أنّه يريد العودة إلى دياره، ولا يستطيع قطع المفازات وحيداً دون دليل .

- أتعرف ما ثمن ذلك ؟ سأله زعيم القافلة، وأضاف بجلف : أبيعك في الطريق، إذا خالفتني بشيء، أو..(أذبحك) .. لم ينطق هذه الكلمة، بل عبّر عنها بحركة من حرف كفّه على عنقه. كان قد تعرّض لمثل هذا التهديد كثيراً من قبل. كانت تحميه من هذه العاقبة طاعته العمياء، لكلّ من كان تحت نيرهم في ماضيه الشقيّ، فلم يبال بما توعّد به هذا الرجل.

اكتفى بأن هزّ رأسه بخضوع :

- أنا عبدك يا سيدي.!

.. تحلّق رجال القافلة حول سيدهم في الخان جلوساً عدا من ظل يحرس القافلة في الخارج .

نهض فضوليّ في الستّين من العمر، يرتدي جلاّبية بيضاء هفهافة، ويعتمر عمامة حريرية خضراء. لحيته مشذّبة كأنّها طلعت للتوّ من تحت المقصّ. كان يجالس صاحب الخان. تقدّم من حلقة زعيم القافلة طالباً الإذن بمجالستهم. رحّب به ببشاشة. دعاه للجلوس. تعرّف إليهم واحداً واحداً. ظلّ معهم حتى ساعة متأخّرة

من الليل، وهو يروي لهم عن أسفاره في الأقاليم من ديار العرب، والمسلمين..

.. أشدّ الصاغين له كان زعيم القافلة. كادت تتبلبل أفكاره، وهو يصف المخاطر التي يتعرّض لها المسافرون، وقوافل التجّار، وقوافل الحجّ إلى بيت الله الحرام، وإلى بيت المقدس. كم كان ندم مستجيب فظيعاً على افتراقه عن مرزوق، ورفاقه، حين ذكر هذا الرجل في معرض حديثه عن إقليم مصر، ما روي عن النوبة :

«من لم يكن له أخ فليتخذ أخاً من النوبة»..

تذكّر مستجيب كلّ دقائق الفترة التي قضاها بصحبة مرزوق، لكن فات ما فات، فهو لا يستطيع فكاكاً بعد الآن من براثن زعيم القافلة. لاحظ أنّه يحصي عليه أنفاسه منذ اللحظة الأولى التي قيّد بها نفسه كعبد له لا يخرج عن طاعته. ما عليه إلاّ أن يألف وضعه الجديد، ويلقي ما مضى خلف ظهره، وإن لم يستطع نسيان النوبيّ مرزوق، أو يتناساه، حتى لا يكون تذكّره باعثاً للندم، أو.. الألم!.

تذكّر في اللحظة ذاتها كيف كان مرزوق غيوراً عليهم. حريصاً على سلامتهم، وبدقّة ساعة رملية يدعوهم لأداء طقوس صلواتهم..

* * *

* بلاد الواق واق، هي جزيرة مدغشقر، وكان العرب يسمّونها (قنبلو).

- ٢٧ -

.. في الخان، كان مستجيب كله آذان صاغية لرجل العمامة الخضراء. كذا الآخرون . بدأ الرجل بالحديث ساخراً من نفسه، وأصله:

- أنا من الخوز. مات والدي، وأنا ابن سنتين. حملتني أمي، وعادت إلى أهلها في (جيرفت). لم تجد أحداً منهم. كانوا قد رحلوا إلى الشام. لم تشأ أمّي اللحاق بهم، فجيرفت مدينة كبيرة جليلة كغيرها من مدن كرمان، وأنزهها، وأوسعها. كبرتُ فيها حتى صرت يافعاً. فيها خيرات، ونخل كثير، وفواكه. فيها نهر يتخللها. أمّي لم تشأ مغادرتها لأنّ أهلها كرام لا يرفعون من تمورهم ما تسقطه الريح، بل يتركونه للصعاليك. يجني الصعاليك منها -إذا ما اشتدّت الريح - أكثر من أصحابها. ماتت أمّي، وأنا في الرابعة عشر. أزمعت السفر إلى ديار أبي. الرجل الذي رافقته لم تكن سماته تدلّ على ما في داخله. الأسفار تبين معادن الرجال. غافلت هذا الرجل اللوطيّ. هربت منه لأقطع هذه المسافات وحيداً. الغرّ تمتلئ طريقه بالأشباح ليلاً. عرّجت إلى أوّل قرية حلّ فيها المساء عليّ. عطفت عليّ امرأة عجوز. بتّ ليلتي في كوخها. نصحتني المرأة أن أبقى لديها، أو أجعل طريقي إلى بغداد، وفيها أبحث عن رزقي..

كنت مصّراً على الذهاب إلى بلد أبي. تحت إصراري قالت العجوز لي:

- اسمع يا ولد. لا بارك الله ببلد لن تجد أخاً لك فيها. إنّها بلد أهلي أيضاً. حتى الآن يعرض عنّي أهل هذه القرية لأنّني من ذلك البلد .يعيّرني الناس بها، وبأهلي هنا، وبأولادي الذين أنجبتهم لهم . أولادي رحلوا من هذه القرية بعد أن أعرض ناسها عنهم. لم يقبل هنا أحد تزويجهم، أو جيرتهم..

قالت أيضاً:

.. أنصحك -قالت لي أخيراً- بأن تقصد بغداد، أو الشام، أو غيرهما.في هذه المدن لا يسلسلون حسبك، ونسبك، بل يسألونك عملك، وخلقك. .إنّ بلد أهلي، وأهلك، غنيّة. أموالها جمّة. تجارتها عجيبة. صناعتها نفيسة. على الرغم من كلّ هذا ؛ يطرحون أولادهم في الغربة. يبلونهم بالأسفار، والكسب. عند كلّ أهل الدنيا تكون الأسفار للفقراء، أو العلماء، أو للترويح عن النفس، إلاّ عندهم، فبمالهم يتيهون من بلد إلى بلد، ولا حظّ لهم في علم، ولا أدب!.

.. كان لكلام هذه المرأة الحكيمة أبعد الأثر في نفسي، مع أنّني كرهتها بسبب هذه الطريقة التي تحدّثت بها عن بلد أهلي.

في صباح اليوم التالي، حوّلت طريقي إلى مدينة السلام بغداد. كانت محطّة لي أنطلق منها مع من يكتريني، فأرافق قافلته. عند عودتي يكتريني آخر. كانوا يتفاءلون، ويتوسّمون الربح الوفير. ويتّقون شرّ اللصوص، والوحوش بتواجدي معهم في السفر. كان شهبندر التجّار غالباً ما يتّخذني

ندياً، ودليلاً له إلى الأمكنة :الخانات. مواقع الماء. البلدات. الأسواق.. ومعرّفاً عن عادات الناس. طباعهم. اعتقاداتهم. طقوسهم. لغاتهم ؛ ولّما كانت لكلّ حال نهاية، حطّت همّتي. اعتزلت ؛ لكن حنيني للأسفار، والمسافرين لا يزال. .ولا آتي إلى هذا الخان، إلاّ بدافع الشوق..

.. تململ زعيم القافلة. بدا في شكّ من أمر هذا الرجل. لم يغترّ بما يدّعي معتبراً ما يقوله تبجّحاً، أو أنّه واحد من اللصوص، والعيّارين. جاء يتقصّى مقدرة رجال القافلة في الدفاع عنها إذا ما تعرّضت لسطو. .قال له دون مراعاة لشعوره:

- أراك كثير الغرور بنفسك يا رجل!. .ما اسمك ؟

فوجىء الرجل بفجاجة زعيم القافلة. بلع ريقه. شحب لونه خجلاً. لم يسكت على ما اعتبره إهانة له. عدّل من جلوسه. أجاب بعد تداركه هذه الصدمة التي لم يكن يتوقّعها:

- ما الغرور الذي رأيته منّي ؟!

- علامات على وجهك!

حدّق الرجل به. راح يتملّى عينيه ساخراً. أجابه:

- لا أرى بعينيك قذىً، كي تنعتني هكذا جزافاً، وتتّهِم. .إن كان لا بدّ . اسأل ما تشاء. أمّا اسمي، فهو مرواد .

أجابه زعيم القافلة بفجاجة أشدّ، وجلف، بينما كان مستجيب، والحاضرون يحدّقون بهما مستغربين هذا التنافر الذي حدث بين الرجلين، وهو ما لم يتوقّعوه. أجابه، وقد ثبّت عينيه بعينيّ الرجل:

- أرى بعينيك عينيّ لصّ عريق. أفهمت ما أعني ؟!

- لقد فهمت. لكنّك مخطيء ! أخرج من هنا ! قال له زعيم القافلة، وعيناه تقدحان شرراً..

ابتسم مرواد. أجابه بهدوء:

- لن أقول لك : الخان ليس لك وحدك لأنني ما جئته لأبيت فيه، بل زائراً عابراً كي لا تكون أواخر أيامي كأوائلها. ما اعتدت الخروج من مكان محرجاً، أو متلبّساً .

.. كان مستجيب مأخوذاً بحديث مرواد لهم، وإحساسه بالندم على افتراقه عن مرزوق، ورفاقه لم يفارقه. فكّر أن يخاتل الحضور، ويهرب. استوقفته عند ذلك شرارة أخرى انبعثت من زعيم القافلة في وجه مرواد:

- وما نقيض الرقيم ؟

- مواضع كثيرة أوّلها: قريات لوط القريبة من حبرا قرية ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

يقال إنّ إبراهيم لما رأى هذه القرى في الهواء رقد وقال:

.. أشهد أنّ هذا هو الحقّ اليقين! .

ثانيهما: في الفسطاط عند قصر الشمع امرأة ممسوخة على رأسها سفل من حجر. يقال:

إنّها كانت غسّالة لآل فرعون، وأنّها آذت نبيّاً، فمُسخت.

- إنّك تنبش لنا قبور الموتى. قال له زعيم القافلة مستفزّاً .

- إذاً سأنبش في قبور الأحياء ! أجابه :

.. اسمع: هذه ثالثهما مما لم ترهُ العين بعد، وقد أخبر بها أبو بكر من أهل جرجان، قال:

- ما أعجب ما رأيت، أو سمعت ، أو قرأت ؟

«.. ذكروا أنّ العصبيّات ضربت المروشين، والفضليين في الأهواز، وأهل البذان، وبصنا، وأهل تستر، والعسكر، وأهل تستر، والسوس في دينهم الواحد !! فلما ظهر قبر دانيال عليه السلام، جُعل في تابوت، فكان يحمل إلى المواضع يُستسقى به. قالوا: فتباعد التابوت عنّا، ثم عاد إلى تستر فضبطوه.

بعثنا إليهم عشرة رجال رهائن إلى وقت ردّه ؛ فلما حصلوه شقّوا نهراً، وأسالوا عليه الماء، وأبقوا الرهائن لديهم. ذلك كان قدر الناس إلى اليوم.!.

قال لهم مرواد :

- لا تسألوني رأيي بهذا، بل اسألوا دانيال عليه السلام، لو عاد حياً !.

أضاف: .. قد يهون هذا حين ترون جامعاً في قرية اختلف أهلها في دينهم، فقسموه فيما بينهم، وأعلوا جداراً يزيد في فرقتهم. لن أقول بهم إلاّ ما قالته امرأة بضرّتها!!.

* * *

